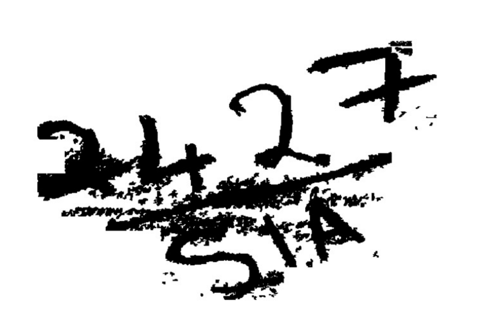




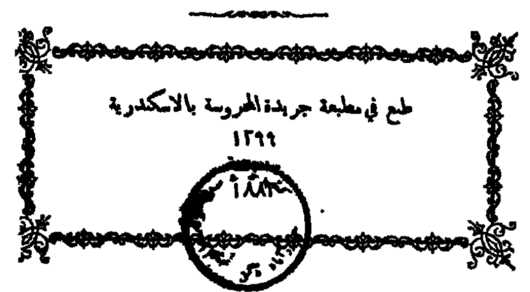
علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا

الجزء الاول



طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصور الاكوان ومدبرها ومقدر الاحوال ومسيرها وصلى الله على سيدنا محمد شمس الضحى ونور الهدى وعلى اله وصحبه مصابيح الدجى وكل من بنورهم اهتدى وبهداهم اقتدى وسلم تسليما كثيرا دائما وابدا

وبعد فمن نظر في هذا العالم وسبر احواله وتدبر قوانينه التي فطره عليها الخالق جل اسمه بقدرته ودبرها بحكمته وجد بين افراد كل نوع من انواعه وبين كل نوع وغيره من العوالم وكل جنس واخر من اجناسه ارتباطا تاما يستدعيه كمال نظامه كما انه يجد هذا الارتباط بين العالم السفلي والعالم العلوي ايضا الا ترى ان الشمس تشرق على الارض بانوارها فتنبث اشعتها في انحائها واجزائها فينفصل بواسطة الحرارة بخار يرتفع لخفته على الهواء فينعقد سحابا في جو السماء تثيره الرياح فتصيره الى حيث شاء الله من الاماكن القاصية والدانية فيتراكم ويسقط على الارض ماء تخرج به الارض انواع النبات والثمرات رزقا للعباد كما قال الله سبحانه وجعلنا سراجا وهاجا وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا ثم يرى ان كل مخلوق حصل على شيء من هذا العالم ايا كان مما ينزل من السماء او يخرج من الارض صار ذلك الشيء اشبه بدين في ذمته مجبور على وفائه قضت عليه الحكم الازلية والاحكام العلية بتمويضه وادائه بعد حين الى الارض او السماء بواسطة التحليل والتركيب المتبادلين المتعادلين لاستمرار النظام وبقاء هذا الكون الى ان يشاء الله

فاذا علمنا ذلك في الامور النظرية والاحوال القسرية ناسب ان نراعيه كذلك في احوالنا الارادية وافعالنا الاختيارية

فكل خير حصلنا عليه في هذه الحياة الزمنا انفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالجميل على قدر الامكان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان

مثلاً نحن قد تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من احوال

الكمال وصلنا اليها ولم نكن نشأنا عليها فترتب علينا ان نربي غيرنا حتى يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا ومن اعظم ما نرى انفسنا مدينين له مطالبين من جهته مجبورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن الجليل الذي نشأنا به وعشنا فوق ارضه وتحت سمائه ونعشنا بهوائه وروينا بمائه واغتذينا بنباته وحيوانه وانتفعنا بسائر اجزائه وهو في كل آن يمدنا ويفيدنا ويعطينا ويزيدنا كما كان صنيعه مع ابائنا واجدادنا السابقين . وكذلك يكون شأنه مع ابنائنا واحفادنا اللاحقين فلزمنا ان نقدره حق قدره ونأتي على اخر جهدنا واستطاعتنا في منفعته وخيره ولا شيء انفع له واجلب للخير والبركة اليه من تعليم ابنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدًا واحدة في نفعه وخدمته وايصاله الى غاية ما يمكن ان يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم وهذا لا يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره لانه لا يميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لا يعرف الطرق الموصلة اليها ولو عرف لا يهتدي لاحسنها واقربها للمقصود واسلمها من الآفات والمحذور بل طال ما اراد ان ينفع فضر وطلب الخير فاجتلب الشر فان الجاهل اعمى ولو كان بصيرًا فهو يتخبط في ظلمات الغي والحيرة لا يبصر الحقيقة ولا يهتدي الى الصواب ولا يدري حاله وما عليه ولا يعلم حقوق نفسه ولا يعرف حقوق غيره وان وقع على الغرض فبالصدفة والاتفاق رمية من غير رام وصاحب الفضل والمعرفة يسير في اعماله مستنيرًا بمصباح علمه فيميز الخير من الشر والمليح من القبيح ويرى الصواب واضحًا فيقصد ونهج الحق نيرًا فيسلكه ويعرف قدر نفسه وغيره وما له على غيره وما لغيره عليه ويرى حقوق وطنه فيأخذ نفسه بقضائها وحسن القيام بها عارفًا ان نفعه لوطنه مع كونه حقًا يقضيه ودينًا يؤديه انما هو في الحقيقة نفع لنفسه لما لا ريبة فيه عنده من ان خير بلاده وخصبها وبركتها وتقدمها ورفعة شأنها كل ذلك فائدة له وعكسه بعكسه فلذا كان نفع وطنه نفع نفسه كصاحب الارض

مثلاً ينتفع بخيراتها ويجتني ثمراتها فيترتب عليه ازاء ذلك ان يقوم بخدمتها وأداء ما يلزمها وينفعها ويصلح شأنها من تقليب وتقصيب وتمهيد وتسميد وريٍ وطيٍ ونحو ذلك فاذا فعل ما ذكر فقد أدى ما عليه من جهتها في نظير ما انتفع به منها وبذلك تصلح الارض وتحسن وتعلو قيمتها فتدرّ عليه خيراتها وتنمو حاصلاتها فتعود عليه بنفع اخر وتزيده خيرا وهلم جرًّا

هذا واني لمعترف بفضل هذا الوطن العزيز عليّ فقد نشأت في ظله وتقلبت في مهد تربيته في حجر كفالته وتعهده حتى صرت من ابنائه المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيراً وكبيرا بكثير من خيراته وثمراته ولا ازال متنعما بطيباته فاجدني وان استوفيت الجهد وقضيت العمر في خدمته لم اتم بعشر معشار ما عليّ من واجباته وحقوقه ولكن عرفاني لذلك واعترافي به لا يمنعني من بذل جهد المقل والانتهاء لغاية الاستطاعة ولهذا التزمت في كل ما تقلدت من الاعمال وجميع ما تقلبت فيه من الاحوال ان اخدم وطني بكل ما تناله يدي ويبلغه امكاني مما اراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل او جل كالسعي في استكثار المكاتب والمدارس وتعميم التربية والتعليم ونشر الكتب المفيدة اما بالاشتغال في تأليفها بنفسي او الحث والتحريض عليها لمن ارى فيه اهلية القيام بها

وقد رأيت النفوس كثيرًا ما تميل الى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان لا سيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفي اوقات عدم خلو البال

فحدا بي هذا ايام نظارتي لديوان المعارف الى عمل كتاب اضمنه كثيرًا من الفوائد ف[illegible] ب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ويرغب فيها رغ[illegible] عموالاولاد [illegible] من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك الفوائد ينالها في صغره لم يتقدم في [illegible] الفائدة وبث المنفعة

[illegible] مستمدًا من عناية الله مستعينا في تهذيب

[illegible] الاساتذة لا سيما العالم الفاضل السيد

[illegible] المعارف فانه صرف عنايته الى تنقيح

عما اطلع عليه من هذا الكتاب وليس بالقليل فهذب معانيه وشذب مبانيه وقرب مجانيه فجاء كتابا جامعا اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية واسرار الخليقة وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وما تقلب نوع الانسان فيه من الاطوار والادوار في الزمن الغابر وما هو عليه في الوقت الحاضر وما طرأ عليه من تقدم وتأخر وصفاء وتكدر وراحة وعناء وبؤس ورخاء الى غير ذلك من التلون بتقلب الدهور وتصرف الامور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين احواله وعاداته في الاوقات المتفاوتة والانحاء المتباينة ليطلع مطالعه على ما يحفز خاطره وينبه قريحته ويستنهض فكرته ويدرجه لاجالة عقله واعمال نظره واستعمال بصر بصيرته في هذه الامور وسبرها وتدبرها ومعارضتها بالموازنة بينها والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر وتخير النافع والانفع والحسن والاحسن منها على نمط بعيد عن السآمة ولا يميل الى الملالة مفرغا في قالب سياحة شيخ عالم مصري وسم بعلم الدين مع رجل انكليزي كلاهما هيان بن بيان نظمها سمط الحديث لتأتي المقارنة بين الاحوال المشرقية والاوروبية

وكل ما وقع تحت نظر الناظر وقرع السمع وشغل البال وحرك قوة من قوى النفس مدة السياحة يجده الناظر في الكتاب مستوفي البيان مشبعا فيه الكلام بحسب المقام وقد قسمه الى مسامرات ينتقل فيها القارىء تنقل المسافر ويجد فيها فكاهة المسامر كما يتمتع به المعلم والمتعلم فيكون للاول مذكرا منبها وللثاني معلما مفقها والله المسئول ان يعم النفع بهذا الكتاب وان يجعله ذخيرة عنده ليوم المآب

عارف

مع لمعصه لما لا

بها ورفعة شأنها كل

ه فع نفسه كصاحب الارض



علم الدين

بكَ أستعين

المسامرة الاولى
السفر

حكي انه كان بقرية من قرى مصر فيما سلف من العصر رجل من فقهاء الريف كان يصلي بالناس في جامع القرية ويعلم اطفالها كتاب الله عز وجلّ وكان من اهل الفضل والصلاح رزقه الله على الكبر بولد سمّاه علم الدين تفاؤلاً بان يكون من اعلام العلماء المجتهدين ثم انه ربّاه في كتابه وأدّبه محاسن آدابه الى ان ترعرع الغلام وحفظ عن والده كتاب الله العظيم وبعض متون صغيرة ومبادئ فنون يسيرة فرأى فيه والده اثار الذكاء ومخائل النجابة وحسن القريحة ومحبة العلم والقبول لما يلقي عليه والقابليّة لما يساق اليه فاراد اكمال تربيته وتعليمه في اوان شبيبته حتى يلحق برتبة اكابر العلماء فقد قال الحكماء علموا اولادكم صغارًا تنتفعوا بهم كبارًا وقالوا من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره وقال الشاعر

قد ينفع الادب الاحداث في صغر
وليس ينفع بعد الكبرة الادبُ
ان الغصون اذا قومتها اعتدلت
ولن تلين اذا قومتها الخشبُ

فوقع في نفسه ان يوجهه الى الجامع الازهر لما يعرفه في تلك البقعة الطاهرة من المحاسن الزاهرة والبركات الظاهرة فانه منبع الفضائل ومجمع الافاضل وموضع حسن التعلم والتعليم ومرجع طلاب العلم من الاقاليم فاراد ان يكمل فيه ولده دراسة العلم الشريف بملازمة دروس عظمائه من افاضل علمائه لينال ببركتهم الارب ويكتسب بصحبتهم العلم والادب وكان الشيخ قد تقارب عمره ولم يكن له ولد غيره فاستخار الله تعالى على هذه النية فانشرح لها صدره ومال خاطره فركن اليها وصمم عليها واعد لولده ما يلزم من الزاد والذخيرة وان كانت يسيرة وكتب معه مكتوبًا الى صديق لهُ في مصر القاهرة من مشاهير تجارها واعيان مشاهيرها يرجوه ان يكون لولده في جميع مهمّاته كالوالد وان يكون واسطة في اجتماعه على الصالحين من العلماء الاماجد ويقرّبهُ منهم ليسعوا بتهذيبه ويبذلوا النصيحة في تاديبه واوصى ولده بالطاعة والامتثال لمعلميه فيما يعود نفعه عليه وان يصرف جميع اوقاته في تحصيل ما يرشدونهُ اليه وان يجتنب المناهي واماكن الملاهي وان يكون في الغدوة والرّواح مع اهل الصلاح ومن

لم شهرة بفعل الخير وحسن السّير فقد قال العلماء اصطفِ من الاخوان ذا الدّين والحسب والراي والادب فانهٔ ردء لك عند حاجتك وركن عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقال الشاعر

تخيّر من الاخوان كلّ ابن حرّة
يسرّك عند النّائبات بلاؤهُ
وقارن اذا قارنت حرًّا فانما
يزين ويزري بالفتى قرناؤهُ

وقال عديّ بن زيد

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم
ولا تصحب الاردى فتردى مع الرّدي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويحكى ان جماعة من اللصوص وقع القبض عليهم فاخذوا الى السلطان فامر بقتلهم جميعًا فتقدم احدهم وقال انا لست منهم وإنما كنت مغنيًا لهم ولم افعل افعالهم فقال السلطان فغنّ حتى نسمع فلم يجرِ على لسانه غير البيتين المذكورين لعدي بن زيد فغنّى بها فلما بلغ الى قوله (فكل قرين بالمقارن يقتدي) قال السلطان سبحان من انطقك وانا اول من صدّقك ثم امر به فقتل معهم وهذه عاقبة من يصاحب الاشرار ويخالط الفجّار

فانه ان لم يفعل كافعالهم نسب الى احوالهم ثم ان الشيخ رحمه الله ختم وصيته لولده علّمَ الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وما يلزمه من الاداب التي يتوقف عليها كمال الوصول الى المطلوب والحصول على تمام المرغوب فقال اعلم يا بنيّ ان آداب المتعلم كثيرة يطول تعداد تفاصيلها ولكن اختصرها لك في عشر جمل تلقيتها عن المشائخ تكون لها كالاصول يتفرع عنها ما عداها

الوظيفة الاولى

تقويم النفس من رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف كالغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر وامثالها فكلها من موانع التحصيل وقواطع السبيل

الوظيفة الثانية

ان يقلّل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الاهل والوطن فان العلائق صارفة وشاغلة وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة قصرت عن ادراك الحقائق ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك والفكرة المتوزعة على امور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الارض بعضه واختطفت الحرارة بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ الزرع

الوظيفة الثالثة

ان يداوم في تحصيل العلم على الاجتهاد والجد ويصبر على المشقة والكد ويبذل غاية الوسع والجهد ويطرح الكسل والملل ولا يقطع الامل ولا يترك العمل ولو طال الامد وبعد المدد فقد حكي عن بعض المشائخ انهُ اتى في اول امره الى الجامع الازهر لطلب العلم فمكث فيه مدة لا يصل الى فائدة ولا يحصل على عائدة حتى كلت قوته وفترت همته وادته الحال الى قطع امله وعزم على ترك الطلب والرجوع الى بلده واهله فقام ليخرج من الجامع تاركًا للتحصيل قاصدًا للرحيل فلما قرب من بابه اتفق انهُ راى دويبة من حشرات الارض تحاول الصعود في محل من حيطان الجامع وكان المحل صعب المرتقى عليها عسر الصعود بالنسبة اليها فصعدت مقدارًا يسيرًا ثم زلقت ارجلها فوقعت ثم قامت وصعدت مرة ثانية فوصلت الى ارفع مما كانت قد وصلت اليه اولاً ووقعت ولم تزل كذلك تقع وترتفع مرارًا حتى وصلت الى اعلى المكان حيث ارادت فقال في نفسه والله لا اكون اعجز من هذه الدويبة الضعيفة فهذه من الله لي اشارة لطيفة ولمحة ظريفة فانها لما صبرت على مداومة العمل ظفرت بغاية الامل ثم انهُ عاد الى الطلب والتحصيل بنشاط جديد وهمة قوية وعزيمة ثابتة ونفس صابرة فما زال يجد ويجتهد ويكد الى ان صار وحيد اوانه وفريد اقرانه وشيخ الاسلام في زمانه وصار حديثه عبرة لاولي

الالباب وقد قال الله سبحانهُ انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب

الوظيفة الرابعة

ان لا يتكبر على العلم ولا يتامر على المعلم بل يلقي اليهِ زمام امره في التعليم ويذعن لنصيحتهِ اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق وينبغي ان يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمتهِ فقد قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ليس من اخلاق المؤمن التملق الاَّ في طلب العلم فلا ينبغي لطالب العلم ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم ان يستنكف من الاستفادة ممن يراه خامل الذكر عديم الشهرة ولا يرغب في التعلم الاَّ من المشهورين واصحاب المظاهر وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهربًا من سبع ضارٍ يفترسه لم يفرق بين ان يرشده الى طريق النجاة رجل مشهور او خامل وضرر الجهل اشد من ضرر السبع والحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليهِ كائنًا من كان فلذلك قيل

العلم حرب للفتى المتعالي * كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم الاَّ بالتواضع والقاء السمع قال الله تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان لهُ قلب او القى السمع وهو شهيد) ومعنى كونه ذا قلب ان يكون قابلاً للعلم فهيمًا ثم لا تعنه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كلما

التي اليه بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة فيكون المتعلم لمعلمه كارض ميتة نالت مطرًا غزيرًا فشربت بجميع اجزائها واذعنت بالكلية لقبوله وقد قال عليّ رضي الله عنه من حق العالم الا تكثر عليه السؤال ولا تعنته في الجواب ولا تلح عليه اذا كل ولا تاخذ بثوبه اذا نهض ولا تفشي له سرًا ولا تغتابنّ احدًا عنده ولا تطلبنّ عثرته وان ذل قبلت معذرته وعليك ان توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ امر الله تعالى وان كانت له حاجة سبقت القوم الى خدمته

الوظيفة الخامسة

ان يحترز الخائض في العلم في مبدء الامر من الاصغاء الى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من علوم الاخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رايه ويوئيسه من الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن اولاً الطريقة الواحدة الحميدة المرضية عند استاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه واختلاف الاراء فان لم يكن استاذه مستقلاً باختيار راي واحد وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها على اختلافها فليحذر منه فان اضلاله اكثر من ارشاده فلا يصلح الاعمى لقود العميان وارشادهم ومن هذه حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل

الوظيفة السادسة

ان لا يدع طالب العلم فنًا من العلوم المحمودة ولا نوعًا من

انواعه الا وينظر فيهِ نظرًا يطلع بهِ على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيهِ والاّ اشتغل بالاهم منهُ واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منهُ في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس اعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا بهِ فسيقولون هذا افك قديم) وقال الشاعر

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ * يجدْ مرًّا بهِ الماءَ الزلالا

الوظيفة السابعة

ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالاهم فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبًا فالحزم ان يأخذ من كل شيء احسنهُ فقد قال عليٌّ رضي الله عنه وكرّم وجهه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كلّ شي احسنه وانشا يقول

ما حوى العلم جميعًا احد * لا ولو مارسهُ الف سنه
انما العلم بعيد غورهُ * فخذوا من كل علم احسنه

الوظيفة الثامنة

ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان العلوم مرتبة ترتيبًا ضروريًا وبعضها طريق الى بعض والموفق من

راعى ذلك الترتيب والتدريج وذلك كترتب علم المعاني على النحو وعلم الهندسة على الحساب ثمن خاض في فن وحاول تحصيله قبل ان يعرف الذي قبله فقد أحبط عمله واضاع وقته في الباطل ولم يخرج بطائل قال الله تعالى (الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) اي لا يجاوزون فنًا حتى يحكموه علمًا وعملًا وينبغي ان يكون قصده في كل علم يتحراه الترقي الى ما فوقه

الوظيفة التاسعة

ان يعرف السبب الذي يدرك بهِ اشرف العلوم وذلك يراد بهِ شيآن احدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل فعلم الحساب وعلم الطب مثلًا اذا نسبتهما لبعضهما وجدت علم الطب اشرف باعتبار ثمرته فان ثمرته حفظ البدن وثمرة الحساب حفظ المال ووجدت علم الحساب اشرف باعتبار قوة ادلته فانها يقينية وملاحظة الثمرة اولى ولهذا كان الطب اشرف وإن كان كثير منهُ بالتخمين والحساب مبني على اليقين وعلى هذا فاشرف العلوم علم الدين لان ثمرته حفظ الارواح ونجاتها من الوبال الابدي والشقاء السرمدي ولا ينبغي ان يفهم من هذا الاطراء والمدح لعلم الدين ذم غيره من العلوم ولا ينبغي ان ينظر اليها بعين الحقارة كعلم النحو واللغة وغيرها من الفنون الممدوحة ولا يظن من تعظيم علم الدين وتفخيمه تهجين غيره من العلوم وتقبيحها فان المتكفلين بالعلوم والقائمين عليها

كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله
فمنهم المقاتل ومنهم المدد ومنهم الذي يجلب لهم المؤنة والذي
يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدها ولا ينفك احد
منهم عن اجرٍ اذا كانت نيته حسنة وكذلك العلماء قال الله
تعالى (يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات)
وقال تعالى (هم درجات عند ربهم) والفضيلة نسبيةٌ وكون
السلطان مثلاً اعظم من وزيره لا يدل على حقارة الوزير في ذاته
وكذا من دون الوزير وهكذا وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة
خيرًا يرَه ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يرَهْ ومن قصد وجه الله
وسبيل الخير بالعلم اي علم كان نفعه ورفعهُ لا محالة وينبغي ان
لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين اصحابهِ فيهِ ولا
بخطاء واحد او آحاد فيهِ ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل فترى
جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بانها لو
كان لها اصل لادركهُ اربابها وترى طائفة يعتقدون بطلان
الطب لخطاء شاهدوهُ من طبيب وطائفة اعتقدوا صحة التنجيم
لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانهُ لخطاء اتفق لآخر
والكل خطاء بل ينبغي ان يعرف الشي في نفسه فلا كل علم
يستقل بالاحاطة بهِ كل شخص ولذا قال علي رضي الله عنهُ
لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرفهُ اهله

الوظيفة العاشرة

ان يكون قصد المتعلم التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه باكمل الوجوه واعظمها واحسن الطرق واسلها والنفع لاخوانه واهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان احب الناس الى الله انفعهم لعباده ولا يقصد بتحصيله المفاخرة والمباهاة والمحاسدة للناس ومزاحمة ارباب الوظائف في وظائفهم ومضايقتهم في مناصبهم فان هذه المقاصد ذميمة وطلب العلم وان كان ممدوحًا في نفسه الاّ ان من قصده بنية ذميمة كان مذمومًا بالنسبة له ففعل الصلاة مثلاً ممدوح في نفسه وطاعة لله سبحانه وقربة ولكن اذا اراده شخص بنية الرياء والسمعة والفخر كان مذمومًا بالنسبة لذلك الشخص وهكذا العلم فينبغي لطالبه أن يحسن نيته ويخلص طويته ويقصد وجه الله وطريق الخير ينفعه الله ويرفعه في الحال والمآل ويبلغه غاية الكمال

ثم ان الشيخ بعد ان اتم نصيحته وانهى وصيته جمع عشيرته الاقربين وفيهم زوجه والدة علم الدين وقال لهم وهو يبكي اني قضيت جميع عمري في اداء ما فرضه الشرع عليّ في حق الوالدين والاقارب ومن انتمى اليّ وقد منّ الله تعالى عليّ بولدي هذا في اخر عمري واود ان يخلفني ويكون لكم بفضل الله عونًا من بعدي وجاهًا قائمًا بحق صلة رحمه عاملاً بامر الله العام واتقوا الله الذي

تسالون بهِ والارحام وبقولهِ تعالى وبالوالدين احساناً ولكن مقصودي هذا لا يتم الاّ بطلبه للعلم فانه الكاشف للبصيرة والمنور للسريرة والماحي للجهل والمبلغ صاحبه درجة اهل الفضل وهو المؤنس في الوحشه والمحدث في الخلوة والجليس في الوحدة والصاحب في الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء والزينة عند الاخلاء والسلاح على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد منازل الاخيار في الدرجات العلى ومجالسة الملوك والكبار في الدنيا ومراققة الابرار في الاخرة ولذا قال الشاعر

لا تدّخر غير العلو * م فانهـا نعم الذخائر
فالمرء لو ربح البقـآ * ء مع الجهالة كان خاسر

قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الدنيا والاخرة مع العلم وشر الدنيا والاخرة مع الجهل ثم انه التفت الى ولده في الاخر وخاطبه بقول الشاعر

العلم انفس شيء انت ذاخرهُ
من يدرس العلم لم تدرس مفاخرهُ
اقبل على العلم واستقبل فوائدهُ
فاول العلم اقبـال وآخرهُ

ثم قال لمن عنده هذه قطرة من بحر ونقطة من قطر وللعلم من المزايا الفاخرة في الدنيا والاخرة ما لا يحاط بحد ولا يدخل

تمت عد ولهذا قد استخرتُ الله تعالى وصممت النية على ارسال ولدي هذا الى محروسة القاهرة لطلب العلم وتحصيله في الجامع الازهر وتبحره فيه لينتفع به مدة دهره الى اخر عمره وفي يوم حشره وقد هيئت جميع ما يلزم لسفره فلا تحزنوا لفراقه وادعوا له عسى ان يفتح الله عليه ويحسن بتنوير بصيرته اليه فابتهلوا جميعًا بالدعاء له وان يفتح الله عليه ويتقبل عمله وكانت والدته من ذوات الحسب مصونة العرض اصيلة النسب قد اعتدت عليها الايام وصدعتها الامراض والاسقام فكف بصرها واختل امرها فرفعت راسها الى السماء وطلبت من الله القبول ونيل المامول وان يرده لبلده في صحة وسلامة مجملًا باوصاف اهل الكمال متحليًا بحلل ارباب الجلال لينتفع به اهل بلدته وليكون ردا لاقاربه وعشيرته وتضرعت الى الله بصوت خاشع وقلب خاضع وامّن الشيخ وبقية الحاضرين ثم انهم ودعوا عَلَم الدين وهم في نحيب وبكاء من حرقة الفرقة وبعد الشقه ومشوا معه الى ان انزلوه في مركب كان متوجهًا الى مدينة مصر واوصوا عليه ارباب المركب ورجعوا الى منزلهم بعد ان قبلوه وودعوه وقبل هو ايضًا يدي والده ووالدته وسار على بركة الله تعالى

المسامرة الثانية

سفر وعودة

فكان في مبدء سفره تارة يبكي لفراق اهله وبلده ولم يكن فارقهم من قبل وتارة يفرح لميل قلبه الى العلم والرغبة في تحصيله لانه كان حافظًا للقرأن وكان يرى في نفسه ان فيه استعدادا لاتساع دائرة معارفه ولذلك كان دائمًا يطلب من والده ان يرسله لطلب العلم حتى تم هذا الامر وكان احيانًا يتكدر خاطره بسبب ركوب البحر وما يخشى من اخطاره لانه لم تكن سبقت له عادة به الا انه كان يتاسى بغيره ممن كان معه في المركب ويتسلى باختلاطه بهم والمحادثة معهم في اخبار مدينة القاهرة وما فيها من الغرائب فصار ينجلي ذلك الحزن عنه شيئًا فشيئًا حتى غلب عليه الفرح وطاب خاطره وانشرح خصوصًا وقد كان بالمركب في ضمن المسافرين رجل صالح لبيب من اهل القاهرة كان قد نزل الى الريف لقضاء بعض مصالح فقضاها ورجع وكان ذلك الرجل صاحب معرفة وتجربة يعلم من احوال الناس كثيرًا لكثرة ممارسته لهم واختلاطه بهم فاتحد علم الدين معه وصار الرجل يصف له حال المدينة واهلها ويفهمه بما يلزمه في الاقامة بها ويبين له كيف يكون سيره مع الناس اذا وصل وحاله اذا اختلط باهل الازهر واتصل ووعده انه بعد الوصول الى مصر يزوره ورخص له في التردد عليه اي وقت احب ووصف له منزله وحارته فتسلى

الولد بذلك وقر ناظره وطاب خاطره حتى انقضت ايام السفر ودخلوا مصر آمنين فاخذه ذلك الرجل الى منزلهِ واكرمهُ فبات عنده تلك الليلة وكان من جملة ما جرى بينهما من المحادثة ان حكى عَلَمَ الدين للرجل ان معهُ مكتوباً لبعض اصدقاء والده وعرّفهُ اسمه فوعده الرجل بان يدله عليهِ فلما اصبح الصباح قام معه وتوجه بهِ الى صاحب والده وسلماه المكتوب فلما قراه فرح بالولد لان بينه وبين ابيهِ مودة عظيمة وصداقة قديمة فرحب بهِ وتعهد له بان يكون لهُ كوالده وامره بان يخبره بكل ما يحتاج اليهِ ليقضيه لهُ وفاء بحق صحبة والده لانهُ من اعز الناس عليهِ فشكره عَلَمَ الدين على معروفهِ وسالهُ ان يرشده الى كل ما يلزمهُ لانهُ مامور من والده ان لا يخرج عن رأيهِ وطاعتهِ فقال لهُ لا تعجل ففي غدٍ ان شاء الله اتوجه معك واسلمك لاحد الاساتذة واوصيه بك واتكلم معهُ بما تعود منافعهُ عليك واتفقا على ذلك ثم ان الرجل صديق والده خيره بين الاقامة في منزلهِ او في مكان قريب من المسجد فاختار الاقامة في مكان قريب من المسجد ليسهل عليه حضور مجالس العلم في اول اوقاتها فاستحسن صاحب والده رايهُ ورأى بذلك من الامارات على مزيد اجتهاده ورغبته في تحصيل العلم وحرصه عليهِ ولما جاء الغد مضى معهُ الى الجامع الازهر وجمعه على شيخ من مشاهير علمائهِ كان بينه وبينه صداقة ووداد وله فيهِ حسن اعتقاد فوصى بهِ ورغب اليهِ في القاء نظره

عليه ورعاية شانه والعناية بامره وارشاده الى سواء السبيل في امر الطلب والتحصيل ورجاه كثيرًا في ذلك وذكر له ما بينه وبين والده من المودة الاكيدة فقبل الشيخ رجاءه وامر علّم الدين بحضور الدروس في اوقاتها وبين له سبيل التحصيل ونهاه عن الكسل والتعطيل فصار الولد من وقتئذٍ ملازمًا للدروس طول نهاره واذا جاء الليل ذهب الى بيته واقام غالب ليله يطالع الدروس المستقبلة ويتذكر الدروس الماضية ويحيي بعض الليل في تلاوة القران فما مضى عليه الاّ قليل من سنين حتى بلغ في علوم اللغة والنحو والصرف والعروض وفروع الفقه مبلغًا لا يصل اليه غيره في سنين كثيرة ثم اخذ يتعلم علوم البلاغة والاصول والتفسير والحديث وهكذا كان ينتقل من فن الى اخر ومن درجة الى ما فوقها حتى برع في العلوم النقلية والعقلية وصار يشار اليه بأطراف البنان ويضرب به المثل بين الاقران وما ذاك الاّ بدعاء والديه ورضى مشايخه واخوانه عنه وكثرة اجتهاده ونور بصيرته وقوة فؤاده وامتثاله امر مشايخه واخوانه وحرصه على كل ما سمعه من مشايخ زمانه وكان من ذوي الالباب كامل الاخلاق والاداب اذا قعد في مجلس لا يتكلم فيما لا يعنيه واذا سئل احسن الجواب واصاب الصواب محبًا لمجالسة اللطفاء ومجانسة الادباء حميد الخصال حسن الصفات والافعال شاعرًا اديبًا فصيح اللسان لبيبًا محمود الخلق والخلق عند العام

والخاص يشهد لهُ بذلك العلماء والاكابر والخواصّ وقد حاز جميع هذه الاوصاف الحميدة والمزايا الفائقة الفريدة في مدة يسيرة واعوام غير كثيرة لم يسافر فيها الى وطنه ولم يحنّ الى مسقط راسه وعطنه الى ان جاءه الخبر بموت والديه ومن يعز فراقهم عليه فتوجه الى البلد لياتي باخواته الى مصر وكنّ ثلاثا من البنات خلفهن ابوهُ بعد سفره الى مصر فاحضرهنّ معهُ وقد باع كل ما تركه ابوهُ على اهل البلد وكان شيئًا قليلًا وذلك بعض اعنز وحمارة وآنية فخار وشيء يسير من اثاث الدار فبلغ ثمن ذلك كله نحو اربعمائة قرش واشترى منهُ ما يحتاجه من الزاد ولوازم السفر وفي مدة اقامتهِ في البلدة اجتمع عليهِ مشائخها ومشاذوها والجيران وتكلموا معهُ ان يقيم في وظيفة ابيهِ اماماً بجامعهم فشكر فضلهم وتنحى عن ذلك قائلًا اني احب ان اتم دراسة العلم وبعد ذلك ان شاء الله تعالى اعود لبلدتي ومقر راسي فقالوا لهُ جميعًا ان الذي حصّلته انت من العلم الان اكثر مما كان يعلمهُ ابوك. فقد درست النحو والفقه وغيرهما وبرعت في علوم كثيرة كما سمعناه من الناس كثيرًا فضلًا عن حفظ القرآن وحسن تلاوته وكان ابوك لا يحسن غير تلاوة القرآن وشيء من العلم على قدر ما يلزم للامامة وعقد النكاح بل انت الان فيك كفاية لان تتولى نيابة القضاء في القرية فلو بقيت عندنا توجهنا بك الى قاضي الولاية وسعينا في توليتك نيابة القضاء في البلد والحوا عليهِ فابى واعتذر لهم بان القضاء يحتاج

الى معرفة علوم شتى غير التي حصلها وانهُ لا ينبغي أن تعرض للقضاء وفصل قضايا الناس الاَّ من كان متبحرًا في العلوم الشرعية متضلعًا من اصولها وفروعها واثقًا من نفسه بعدم الميل عن اتباع الحق في الحكم بين الخلق وانهُ لا يرضى ان يكون مسؤُولاً يوم القيامة عما يحكم بهِ خصوصًا اذا كان بدون تثبت فقد قال صلى الله عليهِ وسلم ليأتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى ان لم يقض بين اثنين في تمرة قط لاسيما وانه يخشى ان يغره الطمع وحب الدنيا فيقع في حبائل الشهوات النفسية فيظلم ويحكم على خلاف الطريقة الشرعية والعمر ينقضي ومتاع الدنيا قليل فالأولى بالعاقل أن يتمسك بعرى التقوى فانها السبب الاقوى وامثال هذا الكلام فما كان يزيدهم تمنعهُ الاَّ رغبة فيه فلما لم يجد لهُ مخلصًا من ذلك قال لهم عما قريب ان شاء الله تعالى يتم المقصود ويهدينا الله لما يريد وكان في المجلس رجل ضرير من اهل القرية يحفظ القران ووظيفته ان يملا ميضأة الجامع وكانوا بعد موت الشيخ جعلوهُ اماماً لهم في صلاتهم موقتًا الى حضور عَلَم الدين من الجامع الازهر وتوليه وظيفة والده فلما حضر وابى فرح الضرير بذلك في نفسه بسبب انهُ يصير حينئذٍ مستقلاً بهذه الوظيفة وملحقاتها من عقد نكاح وغيرهِ وكان بعض مشايخ البلد يميل الى الضرير فقالوا الشيخ سويلم يعنون الضرير رجل من الصالحين وحملة كتاب الله وتعرفهُ حق المعرفة فهو اولى من غيرهِ فاتفقوا جميعًا على تقليدهِ هذه

الوظائف وقد كان ثم ان علم الدين توجه باخواته الى مصر واستأجر لهنّ بيتاً في ربع وانزلهنّ فيه وصار كل يوم ياتيهنّ بجرايته المرتبة له بالازهر ولكنها لمّا لم تكن كافية لقوت اربعة تضايق فقصد بعض مشاهير اهل الازهر وشرح لهم حالة وحال اخواته ولكونه محبباً اليهم ومقرّباً لديهم سعوا له في ترتيب جراية اخرى من المحلول ومع ذلك لم يكن فيما رتب له من الجرايتين كفاية لنفقته ونفقة اخواته فضاق من ذلك صدره وتحير في تدبير المعيشة امره والجاته الضرورة الى القرآة مع اولاد الليالي في الختمات وغشيان منازل اهل الخير والصدقات وقدر في نفسه ان ذلك وان كان فيه هتك المروات الاّ ان الضرورات تبيح المحظورات فكان يذهب معهم في بعض الليالي لقراءة الختمات ويتبعهم في الذهاب الى بيوت الامراء لاخذ الصدقات فحصل له من ذلك بعض اتساع في احواله وتخلص بعض التخلص من ضيق الفقر واوحاله

المسامرة الثالثة
الزواج

ومضى على ذلك اربع سنوات يصرف نهاره في طلب العلم وليله في قراءة الختمات لكنه لصغر سن اخواته وعدم من يعولهنّ ويقوم باصلاح شانهنّ كان دائمًا مشغول البال بهنّ فرغب في الزواج ليستريح فؤاده من جهتهنّ ويتفرغ لطلب العلم والسعي في تحصيل معيشتهنّ الاّ انه كان اذا تفكر في امر الصداق وكلفة الزفاف ونفقة الزوجة وما يتبع ذلك من حقوق الزوجية وفي أنّ ما يرد له في هذه الحالة لا يفي بذلك كله قلت رغبته وضعفت نيته واذا ذكر قوله تعالى (وما من دابة في الارض الاّ على الله رزقها) وقوله صلى الله عليه وسلم من تزوج يريد العفاف فحق على الله عونه) وقول عمر بن الخطاب اني لاقشعر من الشاب ليست له امرأة) كثرت في الزواج رغبته وقويت نيته وهكذا فكان يتردد بين الامرين ولا يكشف له وجه الصواب عن احد الحالين ثم انه قال في نفسه اين انت من الاستخارة وما ورد فيها كقوله صلى الله عليه وسلم اذا همّ احدكم بامر فليستخر ربه فيه سبع مرات ثم لينظر الى الذي يسبق اليه قلبه فان فيه الخير) وقول بعض الصحابة كان صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن) فهلاّ استخرت او ذهبت الى

بعض المشائخ فاستشرت فاستخار واستشار وتبيّن له ان الزواج هو الصواب ثم طرأ له تحير اشد من الاول ولم يدرِ على ماذا يعوّل وهو انه هل يتزوج بفقيرة او غنية وهل الصواب ان تكون ثيّبا او بكرًا قال فكنت ذا قلب معذب وعزم مذبذب لا اهتدي الى صواب ولا اميز بين التبر والتراب فنظرت في كتب الاداب وما قيل فيها من هذا الباب فرأيت لكل مزية وليست واحدة منها عما يحذر منه عرية لان البكر وان كانت درة مخزونة وبيضة مكنونة لم يدنسها لامس ولا استغشاها لابس ولا مارسها عابث ولا وكسها طامث الاّ انها ابيّة العنان بطيئة الاذعان مؤنتها كثيرة ومعونتها يسيرة تقول انا ألبس واجلس واطلب من يطلق ويحبس واما الثيّب فهي وان كانت الصناع المدبرة والفطنة المختبرة عجالة الراكب وانشوطة الحاطب الاّ انها اللباس المستبدل والوعاء المستعمل دابها كنت وكنت وطالما بغي عليّ فنصرت وشتان بين اليوم وامس واين القمر من الشمس وامثال هذا مما قراته في الاسفار وطالعته من منشور الاخبار ومنظوم الاشعار ورايت ان الفقيرة وان كانت ترضى بالقليل وتقنع باليسير الاّ ان ما يرد لي من الصدقات والجراية وقراة الختمات انما يكفي لاقواتنا على قدر اللازم فلا يفي بما يزيد لاجل الزوجة من اللوازم وان الغنية وان ساعدت زوجها في امر المعيشة الاّ ان لوازمها كثيرة ويجب لها من الحقوق ما لا يجب

لغيرها لاعتيادها على السعة في بيت اهلهـا وربما كانت المساعدة التي تحصل منها لا تقابل بعض ما يجب لها خصوصًا وغالب من اراه من اغنياء مصر في هذا العصر لا يقوم علم الزوج عندهم مقام غنـاه بسبب جهلهم فربما قصد العالم الفقير بعضهم فردوه واستهزؤا به ولم يريدوه لان الانسان عدو ما جهله ومن جهل شيئًا عاداه وما زلت اتقلب في مثل هذه الافكار والخواطر واتردد بين الموارد والمصادر فازداد بي التحير وتشعبت عليّ طرق التخيّر ووقعت من الحيرة في ليل بهيم ولم ادرِ في ايّ وادٍ اهيم فرجعت الى كتب الحديث والاخبار وما ورد عن السلف الصالح من الاثار فقرات ما ورد عن جابر رضي الله عنـه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أتزوجت قلت نعم قال أبكرًا ام ثيبًا قلت ثيبًا قال هلاَّ بكرًا تلاعبك وتلاعبها وامثال هذا الحديث فرجحت البكر على الثيب ثم قرات ما رواه الامام احمد بن حنبل رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اعظم النساء بركة ايسرهنّ مؤونة فقلت الفقيرة بالنسبة لحالي ايسر مؤونة وبالنسبة لعيالي اكثر معونة واقرب للقناعة بقليل ما لديّ وابعد عن الترفع والتعاظم عليّ فصممت النية على البكر الفقيرة بعد ان استخرت الله تعالى وكان لي صديق له اخت فقيرة بالغة اسمها تقية فخطبتها منه فاجاب وسميت له ما تيسر من الصداق فرضي به وما عاب فاحضرت الشهود واولمت على قدر

الموجود وعقدنا العقد وميزنا بين المؤجل والنقد

المسامرة الرابعة
العيلة

قال الناقل فلما استقرت عنده وحلت بالمكان الذي اعده وجدها ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها تشكر على القليل ولا تنسى الجميل فبلغ عَلَمَ الدين بها مناه وحمد الله سبحانه على ما اولاه حيث كفته المؤنة في تربية اخواته وتفرغ هو لطلب العلم وقراءة ختماته وكانت صاحبة فطنة تدبر بها منزلها وتحسن التصرف فيما عليها ولها وتعرف بعض صنائع كالخياطة والتطريز وكب الحرير وكلما تيسر لها من ذلك تصرفه في لوازم المنزل من غير اسراف ولا تبذير ولما رأت ان اخوات زوجها لم يعرفنَ شيئًا من اللوازم المنزلية التي لا يستغني عن معرفتها النساء شمرت عن ساعد الجد واخذت تعلمهنَّ جميع ما يلزمهنَّ اذا تزوجنَ فاخذنَ في التعلم وصرنَ لها كبناتها فقمن بخدمة المنزل وتفرغت هي لصنائعها وكلما تيسر تصرفه في مساعدة زوجها فحسن حاله وراق باله ومكثوا على هذه الحالة اياماً متطاولة وليالي متوالية لا يخطر لهم الهم ببال ولا يحدث بينهم قيل ولا قال ثم انه وجد عندها ميلاً لتعلم العلم فصار يلقنها منه قواعد الدين شيئًا فشيئًا

ويعلمها الكتابة فكتبت وحفظة القرآن وتعلمت من العقائد ما تحتاج لمعرفته ثم سالته ان لا يكتم عنها شيئًا مما يعلمه فعلمها العلوم الادبية والفقه والحديث والتفسير الى غير ذلك من المعقول والمنقول وهي مع ذلك مؤدية جميع ما يجب عليها من حقوق الزوجية فكان اذا دخل المنزل كانت له احسن جليس والطف انيس واذا خرج تفرغت لاشغالها وللمطالعة في مطولات الكتب من التفسير والحديث والادب والفقه والاثار وقصص المتقدمين والاخبار حتى جارته في كل مضمار واخذت معه في اودية العلم حيثما سار ولم تزل سالكة طريق السداد حتى رزقهم الله باربعة من الاولاد فتعطلت عن مساعدته في امور المعيشة بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصغرهم وكثرتهم ومع هذا فكان يرى ان نعم الله عمته واحساناته غمرته فكان دائم الشكر لمولاه حامدًا له علي ما اولاه الاَّ انه كان يرى ان ما يرد له من الجراية والقرأة شيء قليل بالنسبة لكفاية العائلة لا يبرئ لهم عليلا ولا يروي لهم غليلا لانهم صاروا تسعة هو واخواته الثلاث واولاده الاربعة وزوجته فيخشى الوقوع فيما فر منه والعود لما نزع عنه ويتامل في الحكمة الالهية والقسمة الربانية من كثرة العيال وضيق الحال ولا يجد لتفريج ما بهِ من الضيق سببًا ولا للعلم باسرار الحكمة الالهية مطلبًا ولكنه كان لورعه وتقواه يفوض امره الى مولاه ويقول مخاطبًا لنفسه اذا كان بقسمة الله تجري الامور فالصبر عليهـا

مشكور مستوجب الاجور ومن غرس الصبر اجتنى الظفر والصبر على الغصه ربما ادّى الى الفرصه ومن فوض امره لمولاه كُفي مؤنة بلواه وعدم الرضا معاداة للقضا . ويتذكر قول شهاب الدين في تهذيبه الجامع وتصنيفه النافع اذا لم يمشِ الزمان معك على ما تريد فامشِ معه على ما يريد فان الانسان عبد الزمان الى غير ذلك من المواعظ التي مرت به والحكم التي تلقاها ايام طلبه وعند ذلك يرضى بحاله ويصبر على ابتلائه بكثرة عياله ولكن كان اذا مر باسواق المدينة ورأى الفواكه على ارجائها صفت واصناف المأكولات والمشروبات باكنافها احتفت او دخل بيتًا من بيوت جهلة الاغنياء والاوغاد الاغبياء ورأى ما لديهم من النعم والتوسع في المشرب والمطعم تذكر عياله وفقره واضمحلاله وكانت زوجته ايضًا بهذه الحالة الاّ انها كانت تبالغ في كتمان امرها وتحذر من افشاء سرها خوفًا على تشويش خاطر زوجها كما كان هو كذلك يكتم امره ولا يبدي سره واذا لاح لهُ منها امارات الضجر سالها تطييبًا لخاطرها عن اسباب ضجرها فتتعلل بان ذلك لامر حدث بين اخيها وزوجه او بينه وبين بعض قرابته فياخذ الكلام على ظاهره ولا يدقق عليها خوفًا من ان تخبره بالحقيقة فيزيد تشويش فكره بلا فائدة الى ان دخل عليها مرة فوجدها في بكاء وولولة لم يسبق في العادة لها وله فلم يسعهُ الاّ الالحاح عليها في طلب الافصاح عن سبب بكائها ووجه حزنها وعنائها واقسم عليها

بالمودة التي بينه وبينها ان تخبره عن اسباب تغيرها والبكاء الذي اضرّ بها وقال لها ان كان ذلك عن امر حصل مني أعتذر اليك منه وانت تعلمين اني لا اريد غير ما يرضيكِ عني ومعاذ الله ان اكون دنست في عشرتكِ او قصدت غير مسرتكِ فان كان ذلك لامر فرط مني ولم اعلمه اعتذرت اليكِ منهُ وان كان من طبع لي كرهته نفسك بذلت غاية جهدي في التباعد عنهُ فاماطت عن مكنون سرها الجلباب ونضت عن مستتر ضميرها النقاب وقالت

المسامرة الخامسة

محاورة

استغفر الله لي ولك واساله ان يصلح عملي وعملك وينجح املي واملك واقول لك الحق وامحضك الصدق ان البكاء الذي عراني والنحول الذي اعتراني ليس لك فيه سبب وانما هي امور جلبتها الى نفسي وخواطر اذهبت راحة عيشي وانسي فقال وكيف ذلك قالت نظرت لفقر حالنا وكثرة عيالنا فاسفت من ضيق عيشهم في حياتنا وخفت من سوء حالهم بعد مماتنا وذهلت عن

قول الله تعالى (وما من دابة في الارض الاّ على الله رزقها)
فهذا الذي اجرى عبرتي واضرم نار لوعتي وارجوك ان لا تواخذني
في ذلك فانك تعلم ان النساء اكثر من الرجال شفقة واعظم
منهم رافة ورقة فقال لها ان الذي قام بفكرك قد اوقعني الشيطان
فيه من قبلك فاجدني لا ادخل ولا اخرج الاّ حوقلت ولا ارى
سوقًا ولا بيتًا مزخرفًا الاّ استرجعت وسجلت لما اراه من ضيق
دويرتنا وشدة عيلتنا وارى الكثير من المنعمين في الدنيا وشهواتها
مجردين عن العلوم الشريفة وادواتها وغالب اهل العلم والكمال
في معزل عن السعة والمال فاجد العلم مقرونًا بالفقر والجهل
ملازمًا للسعادة واعتقد ان الصواب ما ورد في الكتاب من قوله
تعالى (وبشر الصابرين) وامثالُ ذلك لكن الحواس لا ترى
الاّ ظواهر الاشياء والعقل ان لم تدرك صاحبه الطاف ربه يحكم
بما شاهدته وشهدت به فهذا الذي كان يعتريني فكنت اجتهد
في اخفائه عنكِ واسال الله دواء هذا الداء فانه وهن عظمي
واوهى جسمي وشغل فكري وحيرني في امري فقالت وانا ازيدك
على هذا ان شئت ولا تواخذني ان اسأْت فقال هاتِ قالت ان
اكابر الفضلاء والمتقدمين من الحكماء قد اطالوا القول في مدح
العلم واهله وربما جعلوه بابًا للرزق واصله حيث قالوا انه نور
تستضيء به حواس الانسان فينظر بها الى ان تنكشف له مخدرات
حقائق الاكوان فيكسو صاحبه حلل الجمال والهيبة والاجلال

وان الجهل يطمس بصيرة صاحبه ويهوي به في ظلمة الغي ومعاطبه ويحجبه عن مشاهدة الاسرار الربانية ويمنعه عن ادراك ما اودع في الاكوان من اللطائف الخفية ويقوده الى وادي الخبال ويكسوه ثوب المهنة والاذلال فلا يرى الاَّ ظواهر الاشيا فيحكم عليها باحكام باطلة واوهام عاطلة فيكون بمعزل عن الارادة الربانية والحكم الالهية فلا يميز على الحقيقة ما ينفعه مما يضره ولذا يقال في الامثال (الجاهل عدو نفسه) ومن كان عدو نفسه كان عدو ربه ومقتضى القياس الذي حرره اهل الميزان وقرروه والمفهوم الذي استنتجوه من هذا المثل وقدروه ان يقال العاقل حبيب نفسه ومن كان حبيب نفسه كان حبيب ربه وذلك لان من عرف نفسه عرف ربه الى غير ذلك مما لا يعول في استخراج نتائجه الاَّ عليك ولا سند لي فيه الا اليك ولكن اذا تقرر هذا ففيه اشكال اريد ان استمد فيه رايك واستطلع ما عندك قال وما هو قالت اذا كان العالم حبيب نفسه وحبيب ربه والجاهل عدو نفسه وربه كما قلنا ورابنا الغنى والسعة عند اهل الجهل والفقر والقلَّة مع اهل العلم والفضل كما تقول فما الحكمة في ذلك وكيف يكون الحبيب محروماً من نعم حبيبه المتقلب فيها عدوه فقال هذا قضاء الله السابق في مكنون علمه وهو الفعال لما يريد لا يسال عما يفعل ولا معقّب لحكمه وانما علينا الصبر والرضا بكل ما يجري به القضا لكي لانحرم الثواب في الآجل اذا حرمنا

بعض المطلوب في العاجل فقالت مهلاً فهذا شيء عرفناه قديمًا وفرغنا منه تعلمًا وتعليمًا وانا لا ريب عندي في ان الصبر سبيل كل عاقل فضلا عن الكمَّل الافاضل كما اني لا ارتاب في ان كل شيء بقضاء الله وقدرته وحكمه ومشيئته ولكن مع ذلك اعلم ان الله علت كلمته وجلَّت حكمته لا تخلو افعاله عن اسرار علية وحكم خفيّة او جلية فان الانسان من خلقه اذا أتاه حظًا عظيمًا من العقل وقدرًا وافرًا من الحكمة وولاه جانبًا من حسن البصيرة والنظر في حقائق الأحوال وعواقب الامور والاطلاع على غوامض الاشياء تجده ترفعت نفسه عن الباطل وتنزهت أفعاله عن العبث وخلت اموره عن اللغو حتى لا يكاد يخلو حال من احواله وشيء من أقواله وافعاله عن حكمة يريدها ونكتة يقصدها اذا امدّه الله بالعصمة وايده بالتوفيق لمقتضى الحكمة فما ظنك بالصانع القدير الحكيم الخبير الذي لا يغرب شيء عن علمه كما لا يشذّ شيء عن أمره وحكمه أيجوز لمن رزق لمحة من الفضل او لمعة من العقل ان يظن به جل جلالهُ وتقدس كماله ان يتطرق العبث الى ساحة شيء من امره او يخلو عن الحكم الجليلة شيء من قضائه وقدره حاشا وكلاَّ ثم حاشا وكلا نعم نعلم مع ذلك ان عقل العاقل وإن جلّ امره وعظم قدره لا يمكنه الوصول الى الاحاطة بحِكَم الله كلها ولاجلّها وانما يصل الى معرفة اقلها فان حِكَم الله المنطوية في تضاعيف المقدور المنبثة في

تصاريف الامور تابعة لما علمه بعلمه المحيط بكل شيء قلّ او كثر خفي او ظهر حضر او غبر اذ لا يخفى عليهِ شيء من صغير او كبير الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وعقل العاقل انما يحكم بحسبما يراه في الاشياء الحاضرة من ظواهرها او ما يقرب الى الظهور من بواطنها وسرائرها فاما بواطنها المستكنة وسرائرها الغامضة ومستقبلاتها الغائبة التي لا سبيل اليها ولا دليل عليها فهو بعيد منها ومعزول عنها فمن اين لهُ علمها وكيف يتأتى لهُ فهمها ومصداق ذلك اننا نجد في بني نوعنا من آثره الله علينا بمزية مزيد العقل ونور البصيرة وكثرة التجربة فاذا تفقدنا جميع احواله وانتقدنا كل افعاله ظهر لنا السر والحكمة في بعض اموره وخفي علينا ذلك في البعض الاخر من اعماله وربما راينا بعضها خلوًا من الحكمة في بادىء النظر ثم يظهر لنا آخر الامر ما كان قد خفي علينا اولاً من حكمته وانه فهم بكثرة عقله ما لم نفهم وعلم بمزيد تجربته ما لم نعلم فان كان لنا حسن ثقة بعقله وفضل اعتماد على فضله بسبب كثرة موافقة الحكمة فيما علمنا سره من فعله لم يحملنا عدم معرفة السر والحكمة في امر من اموره على سوء الظن بهِ والقدح في حكمته او الجزم بخلو ذلك الامر عن الحكمة والسر في نفس الامر بل نحمل ذلك على قصورنا عن درجته وعدم وصولنا لما وصل اليه بكثرة معرفته وطول تجربته وقد يشير علينا بالشي من هو اكثر منا عقلا وتجربة فنسفّه رايه ونخالف قوله اذا لم يكن لنا فيهِ من الثقة مثل ما ذكر ثم نندم

على مخالفته ويظهر لنا بعد ذلك انهُ كان قد اشار علينا بما هو الصواب وظهر لهُ ما خفي علينا فأخطأنا بمخالفته وامثال هذا في كل عصر مما لا يدخل تحت حصر وكثيرًا ما يتفاوت الناس في الآراء والانظار والاقوال والافكار فيرى الواحد منهم بفضله وتجربتهِ ما يخفى على غيره لجهله وقلة خبرته ولولا ذلك لتساوى الفضلاء والجهلاء واتفقت الآراء والاهواء وقد يامر الرجل العاقل البصير ولده الصغير بشيء ينفعهُ ويعود عليهِ بعظيم الفائدة في حاله او استقباله فتكره ذلك الشي نفس الصبي وينفر منهُ طبعه ولا يعلم لهُ حكمة ولا فائدة لقصور عقله عن عقل والده هذا ولا شك ان نسبة عقل الصبي الصغير الى عقل الشيخ الكبير وعقل الغرّ الجاهل الى عقل الفطن البصير اعظم واجل من نسبة عقل العبد الذليل الى علم الرب الجليل بكثير فان الصبي الصغير والغِر الجاهل لم يخرجا عن كونهما من جنس الشيخ الكبير والفطن البصير ومن نوعهما وان قلاّ في درجة العقل عنهما بخلاف العبد وربه الذي ليس كمثله شيء فلا شبه ولا مناسبة بينهما فظهر ان العقل وان انكشف لهُ بعض الحكم الالهية واطلعهُ الله سبحانه على شيء من اسرارِها فلا سبيل لهُ الى الاحاطة بجميعها ولا باكثرها فلله عز شانه حِكَم مصونة واسرار مكنونة تتلاشى انظار البصائر دونها وتتفانى هم الاكابر عليها فلا يصلونها الاّ ان لهُ مع ذلك حكمًا ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار لا تخفى على احد من

ذوي الابصار فلا يجهلها غير صبي او من يقاربه منزلته من فاقد البصيرة غبي وبين ذلك حكم واسرار ليست كهذه في الظهور ولا كالاولى في الاستتار فمنها ما يعرف بيسير من التفكر ومنها ما يتوقف على كثير من النظر والتدبر ومنها ما ينكشف بالرياضة والمجاهدة والتقوى والعبادة ومنها ما يظهر لبعض الافهام دون بعض الافهام وما يظهر للخواص ويخفى على العوام يشهد لذلك المشاهدة والتجربة بما يغني عن اطالة الكلام في تفصيل المقام وكل ما ظهر لنا من ذلك فمن فيض الله وفضله وما طواه عنا فبحكمته وعدله فاذا كان ذلك كذلك فلا يحسن بنا اذا لم يظهر لنا السر في شيء من افعاله جل جلاله بادىء بدء ان نقطع الامل من معرفته ونيأس من روح الله في الوصول الى حكمته بل نطلب الحكمة على قدر الاستطاعة باشغال الفكر واعمال البصيرة والالتجاء اليه بحسن السيرة والسريرة حتى يعلمنا ما جهلنا خفاياه ويفيض علينا من بحار عطاياه فما افاض علينا علمه من ذلك شكرناه عليه وما لم يظهر لنا سره صبرنا على الطلب حتى نصل اليه فيحصل لنا بذلك مزيد الاجر والثواب من وجوه اما اولًا فباستعمال النظر والفكر في مصنوعات الله سبحانه وتعالى والتماس حكمته فقد امرنا بالنظر والتفكر في مصنوعاته كما نهينا عن التفكر في ذاته وقد تقرر ان اليسير من فكر الجنان افضل من كثير من عمل الاركان واما ثانيًا فبالشكر على ما نفيض علينا علمه والله

سبحانه يقول (ولئن شكرتم لازيدنكم) واما ثالثًا فبالصبر على الطلب وقد قال (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) ونستفيد مع حسن الاجر والمثوبة في الآجل ما ينكشف لنا من المعرفة والحكمة في العاجل وذلك نعيم الروح ولذة النفس ونزهة الخاطر ومسرة السرائر ولا ريب في ان معرفة الحكمة او شيء منها فيما يتأتى للعقول البشرية ان تصل الى سر حكمته الزاهرة من افعال الله وعجائب مصنوعاتهِ الباهرة ادعى الى تعظيم الله سبحانه ومحبته والخضوع لهُ والالتجاء اليهِ والتقرب من حضرتهِ والاعتراف بحسن حكمتهِ واجلب لسكون الخاطر واطمئنان القلب وراحة السر ومزيد التسليم وحسن الرضا بالقضا وكل ذلك لا يخفى ولم يكن ما ارتكبت من اطالة المقالة قصدًا الى تفهيمك فان كل ما عندي ليس الاَّ من ثمرات تعليمك ولكني لما سألت ذلك السؤال واوردت ما اوردت من الاشكال خفت ان يطرق اليك سوء الظن في اعتقادي فاردت ان اعرفك بحقيقة ما انطوى عليهِ فؤادي ولهذا اطنبت فيما قررت ورجع حاصل ما ذكرت الى خمسة امور الاول اني اعلم ان كل شيء بقضاء الله وقدره الثاني ان افعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وسر الثالث ان العقول البشرية لا يتأتى لها الاحاطة بجميع حِكَم الله سبحانه وانما يمكن لها الوصول الى بعضها الرابع ان حِكَم الله سبحانه كما ان منها ما لا تصل اليهِ عقولنا كذلك منها ما هو في غاية الظهور والوضوح

لا يحتاج الى طول نظر وتدبّر ومنها ما هو بين هذا وذاك الخامس انّا اذا لم يظهر لنا السر والحكمة في امر من اوّل وهلة فلا نقطع باليأس منهُ بل ننظر فيهِ ونلتمس الحكمة لهُ بقدر الاستطاعة وحينئذٍ فلا باس بنا في النظر فيما اخذنا بصدده من المقام الذي بسببه انساق هذا الكلام وهو البحث عن الحكمة في ضيق عيش الفضلاء وفقر حالهم ورغد عيشة الجهلاء وكثرة مالهم فان كان عندك في ذلك وجه حكمة فمنك نستفيد والاّ فلينظر كل منا بعقله حتى يفتح الله بما يريد فقال الشيخ احسنت فيما ابنت وتطولت بما طولت ولكن بقي عليك شيء كان يستدعيه استيفاء البيان واتمام الكلام ذلك انا اذا نظرنا في شي من الامور الواقعة بقضاء الله وقدرته والتمسنا لهُ وجه حكمة وسر استنبط بواسطة العقل على حسب ما يصل اليهِ الادراك وينفذ فيهِ الفكر فهذا لا يخلو من مزية بالنسبة الينا من سكون الخاطر وارتياح النفس كما قلتِ ولكن لا ينبغي لنا ان نقطع القول بهِ ونجزم بان ذلك الوجه الذي لاح لنا هو في الواقع ونفس الامر عين الحكمة التي ارادها الله تعالى بذلك الامر والسر الذي بنى عليهِ وقدّر بل يقول الانسان اظن الحكمة في هذا الامر كذا او لعل السر فيهِ كذا وكذا ويجوز ان يكون لهُ في هذا الامر اسرار وحكم اخر وربما كانت الحكمة غير ما ذهبنا اليهِ بالكلية اذ لسنا معصومين من الغلط والوهم والخطاء فقطع القول في ذلك والجزم بهِ ان لم

يرد بهِ دليل شرعي ونصّ قطعي اقدامٌ على الحكم على مرادات الله سبحانه بالتخمين وهذا ينافي ادب العبودية اما الاخبار بانّا نظن كذا فلا باس بهِ لانهُ اخبار بالواقع وهو صدق لا محذور فيهِ مع تفويض علم الحقيقة الى العليم الخبير واما ما سالت عنهُ فللناس فيهِ اقوال كثيرة منها ان الله لما رَزق العلماء ما رزقهم من كمال العقل والمعرفة والفضل جعل للجهلاء في مقابلة ذلك ما منحهم من رغد العيش وسعة المال وكثرة الغنى فكان الغنى للجاهل في مقابلة الفضل للفاضل لتعتدل القسمة ويتساوى الفريقان في الحكمة ولذلك قالوا . ذكاء المرء محسوب عليه . ومنها ان الله لما رَزق الجهال سعة المال تأتى للعلماء ان يتكسبوا من بعض اموالهم بواسطة علمهم وعقلهم واحتياج الجهال اليهم للانتفاع بعلومهم ولو في بعض الاحيان ولو كان الامر بالعكس وكان المال مع اهل العلم والفضل ما كان للجهال وجه ينالون بهِ من اموالهم فيختل الحال ويهلك الجهال ولله در ابي تمام حيث قال

ولو كانت الارزاق تاتي على الحجى
هلكنَ اذًا من جهلهنَّ البهائمُ

ومنها ما يحكي عن بزرجمهر انهُ قال وكّل الله الحرمان بالعقل والرزق بالجهل ليُعلم ان لو كان الرزق بالحيلة لكان العاقل اعلم بوجوه مطلبه والاحتيال بمكسبه فدل على ان الامور تجري بقضائهِ وقدرته لا بصنع ابن ادم وفكرته فكانت الحكمة في

هذيا الهداية الى الله والدلالة عليه وارشاد العقول الى ان الامر كله منه واليه

نكدُ اللبيب وطيب عيش الجاهلِ
قد ارشداك الى حكيم كاملِ

ومما ينسب للشافعي رضي الله عنه

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني
بنجوم اقطار السماء تعلقي

لكنّ من رزق الحجى حرم الغنى
ضدانِ مفترقانِ اي تفرقِ

ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمقِ

فقالت هذه وجوه خطابية ونكات ادبية يستانس بها في بعض المقال ولا تطرد في جميع الاحوال فكم راى الناس من عالم غني وفقير غني والذي يخطر بالبال ان العلم ليس من اسباب الفقر ولا الجهل من اسباب الغنى ولا ملازمة بين هذه الامور بل القضية على العكس والعلم احد موجبات الغنى والسعه والجهل احد اسباب الفقر والضعة لولا عوارض واسباب اخر غير العلم وغير الجهل وذلك ان الله سبحانه لما جعل هذه الدار موضع الكسب والسعي والاختبار ربط الامور فيها باسباب عادية تحصل عندها وتوجد معها كحصول الشبع والريّ بالاكل والشرب

وامثال ذلك مما اجرى به العادة في خلقه ومن ثم امرنا بالسعي والعمل لا بالبطالة والكسل كما قال تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وامثال هذا مما يطول بيانه ولا يخفى عليك تفصيله وبهذا يتضح ان الاخذ بالاسباب والتقلب في طلب الرزق والتشبث بوجوه تكسبه امتثال لامر الله تعالى واتباع لجاري سنته وطلبٌ منه بلسان الحال والافعال وهو اصدق من لسان المقال فهو اقرب الى القبول فكأن المتشبث بالأكل طالب من مولاه بلسان حاله وفعله افاضة الشبع والمتسبث بالشرب طالب كذلك للريّ والمصطلي طالب للدفء وهكذا الآخذ في اسباب الرزق طالبٌ للرزق والله سبحانه جواد كريم فياض مطلق لا بخل عنده ولا ضيق فيما لديه فهو يفيض على كل احد ما طلبه بلسان حاله وفعله الذي لا يدخله ما يدخل لسان القول من الكذب واذا تمهد هذا الكلام وتقرر الغرض في هذا التمهيد قلت لك ان اهل العلم ممن لا مال عندهم لما قصروا جل افكارهم وعلقوا منتهى انظارهم على العلم والتسبث بوجوه تحصيله وكان ذلك طلبًا له واستدعاء لافاضته كما ذكرناه افيض عليهم كما ان من لا علم عندهم من اهل الغنى لما سعوا في تحصيل المال واخذوا باسبابه وكدوا في طلبه افيض عليهم ذلك . نعم قد يرزق القاعد ويحرم الساعي المجد لاسباب اخر واسرار وحِكَمٍ قد تعلم وقد لا تعلم الا ان كلامنا في العموميات والكليات لا في الخصوصات والجزئيات فحق كل

فريق من هذين الفريقين اذا اسف على حرمانه مما عند الاخر الا يوجه اللوم الاَّ على نفسه ويرحم الله من يقول

وعاجز الراي مضياع لفرصته
حتى اذا فات امر عاتب القدرا

فقال الشيخ اراكِ قد سقت الكلام الى حد اردتِ بهِ توجيه الملامة عليَّ واتهامي بالتقصير في الطلب وان ما نحن فيه من قلة المال وضيق الحال انما هو من تقصيري في الاخذ بالاسباب قالت ينبغي ان لا يكون في هذا ارتياب وها انت قد حصلت من العلم ما تعلقت به امالك ووصلت فيه ما لم يصل اليه امثالك وانت الان بحمد الله في صحة من جسمك وقوة من عقلك فماذا عليك لو اخذت لنا فيما يكون فيه حسن الحال وراحة البال من الرزق الحلال ففي علمك ان للعبد ذنوبًا لا يكفرها صلاة ولا صيام يكفرها السعي على العيال فقال الشيخ ومتى قصرت في الطلب وكيف لنا تحصيل الارب فقالت طرق الوصول الى الرزق غير محصورة واسبابه غير محظورة فمنها ما يوصل الى قليله ومنها ما يوصل الى كثيره على حسب تفاوت الناس واختلاف درجاتهم وتباين حالاتهم وانما الصعوبة في معرفة احسن الطرق الموصلة اليه بالنسبة الى الشخص والاهتداء لسلوكها فان الانسان في حال صغره الذي هو وقت تعلمه لا يتأتى لهُ معرفة ذلك لضعف قوته العقلية كقوته الجسمية فهو اذ ذاك كلٌّ على اهله

مضطر للانقياد لهم واتباع ارآئهم فيوجهونه الى ما يوجهونه اليه مما يرونه نافعًا لهُ وهو لا يدري افي ذلك خير له ام شر وعاقبته نفع لهُ ام ضر فاذا ترعرع وكبر وبلغ اشده وملك زمام امره واخذ يحكم عقله في التميز بين ما هو نافع لهُ او انفع وضار او اضر والترجيح بين ذلك والاختيار لما يراه خيرًا لهُ فحينئذٍ اما ان يوافق رايه راي اهله فيما ارادوه لهُ واخذوه بسلوك سبيله او يخلف الراي فان خالف رايه راي اهله ولم يستحسن ما اختاروه من اجله كان يكون اهله قد اختاروا لهُ من صغره صنعة الكتابة والزموه الاشتغال بتعليمها فلما كبر لم يستحسنها طبعه وراى ان الاشتغال بصنعة الخياطة او الحياكة مثلاً خير لهُ من الكتابة لكونه راى بعض المشتغلين بها احسن حالاً وانعم بالاً من بعض المشتغلين بالكتابة فاذا كان كذلك ضاع عليه ما قضاه من عمره في تحصيل الكتابة وربما كان ما اختاره كالخياطة مثلاً وان كان انفع لهُ في نفس الامر فرضًا يحتاج الى تعلم ويحتاج التعلم الى وقت قد لا يساعده عليه حاله ثم هو في وقت تعلمه الصنعة التي مال اليهـا هواه لا يمكنهُ التكسب منها فان ذلك لا يكون الاَّ بعد اتقان معرفتها مع احتياجه في زمن التعلم الى النفقة وقد يشتغل بتعلمها مدة فيطول عليه زمن التعلم فيسأم ولا يجد فيها كسبًا عاجلاً فيندم والحاصل انهُ يختل حاله ويتذبذب امره ويحتار فيما يختار ويكون حالهُ كما يحكى عن الغراب في الامثال المضروبة انهُ لم تعجبهُ مشيتهُ

الموروثة عن ابائهِ فاراد تقليد بعض الطير في المشية فاخذ يمرّن نفسهُ على ذلك فنسي مشيتهُ الاصلية ولم تحصل له المشية التي ارادها وبقي يتجحل في مشيه كما نراه وهكذا حال من ذكرناه ممن خالف رايه راي اهله فيما علموه لهُ في صغره فلا هو حصل الغرض مما اراده ولا انتفع بما كان قد تعلمه بل ربما نسيه بالكلية وضاع عليه ما قضاه فيه من عمره وساء حاله وتحير في امره وربما كان من الاغرار فينضم اليهِ جماعة من الاشرار فيلعبون بعقله ويزيدونه ضلالاً الى ضلاله وخبالاً على خباله فان كان عنده بعض مال ورثه عن ابائهِ احتالوا على فناثهِ فذهبوا بهِ من مكان الى دكان وانقلبوا معهُ من خان الى حان الى ان يصبح فقيراً معدماً نادماً سادماً وان كان من اصله فقيراً حسنوا له اموراً قبيحة قل ان يحصل منها على الكفاية وربما آلت بهِ الى الفضيحة وعلى كل حال يندم حيث لا ينفعه الندم ويبقى على اسوء الحالات الى ان يدركه العدم واما ان وافق رايه راي اهله واختار ما الزموه بسلوك سبيله فانه تعود عليهِ منفعة ما تعلمه ويجني ثمرته ولا يضيع عليهِ ما قضاه فيهِ من عمره ولا يفصل فاصل بين العلم والعمل وبهذا يحسن حاله ويبلغ الامل واذا تقرر هذا على وجه العموم فلننتقل الى الكلام على وجه الخصوص فنقول لا شك ان اهلك حين ارسلوك الى الجامع الازهر لم يقصدوا لك الاّ الخير فان كنت راضياً بالطريق الذي رسموه لك فلماذا عرضت عن

مقصودهم وزهدت في مرغوبهم فقال لها وكيف ذلك فقالت انت اخبرتني ان والدك المرحوم كان فقيها واماما بمسجد قريته فبالضرورة اراد حين ارسلك الى الجامع الازهر ان تكون مثله لتقوم مقامه فلا يخلو حالك الان من احد امور ثلاثة اما ان تكون دونه او مثله اوفقت عليه فان كنت دونه كان لك في الاقامة وجه الاّ انك اذا قارنت ما مضى من العمر بما بقي منه وجدت الباقي ليس وقت تحصيل وان كنت مثل الوالد او اعظم فلا وجه للاقامة حينئذٍ بل الواجب عليك ان تقفو اثره فيما كان عليه وتتبع رأي والديك فتتخلص انت وعيالك من ضيق المعيشة واقامتك في الارياف على اي حالة احسن لان النفقة هناك اقل والمؤنة ايسر والهواء انقى واحسن والصحة اكمل ومع هذا ينتفع منك اهل البلد بتعليمك لهم أمر دينهم وتنتفع منهم انت بما تستعين به على امور المعيشة مما يقسمه الله ويجريه لك على ايديهم وتستفيد مع ذلك ثواب الله بتعليمهم ولا يخفى عليك مزيد ثواب التعليم وان الله سبحانه كما امر العباد ان يتعلموا امرهم ان يعلموا غيرهم (واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه) وقد قيل العلم كالشجرة فكما ان الشجرة زينتها ثمرها كذلك العلم زينته العمل به وتعليمه وهذا الذي ذكرته لك مبني على انك راض بما قصده لك اهلك فان كان الامر بخلاف ذلك وانك قصدت مقصداً لم يقصدوه ورغبت في امر لم يريدوه فقد ضيعت العمر في

الطلب ولم تدرك ثمرة التعب مع ان من واجب العلم تعليمه للغير والاّ كان صاحبه كمن لم يعمل بعلمه وقد علمت الوعيد لمن هذه صفته نعوذ بالله من ذلك ٠

فقال الشيخ انا بحمد الله لم اترك تعليم العلم من حين وجدت في نفسي القدرة على ذلك فاني مواظب على التدريس في الجامع الازهر لطلبة العلم مجتهد في تعليمهم على قدر الاستطاعة

قالت لا يخفى عليك ان احتياج اهل الريف للتعلم اكثر وليس فيهم مثلك يعلمهم واما طلبة العلم في الازهر فانهم يجدون كثيرًا من العلماء يعلمونهم ولعل فيهم بعض مشائخك الذين تعلمت منهم فاهل الريف احوج اليك واولى بك فاقامتك بينهم انسب وتعليمك لهم اصوب واعلم انه اذا كان في يدك مال تريد أن تتصدق به ووجدت رجلًا فقيرًا بين قوم اغنياء من اهل الخير يوالونه بنفقاتهم ويبرونه بصدقاتهم وعلمت برجل اخر مسكين بين قوم فقراء لا يجد من يتصدق عليه بما يمسك رمقه ويحفظ حياته من القوت الضروري فمن مقتضى الحكمة وحسن الراي ان تؤثر بصدقتك هذا المسكين الذي لا يجد من يتصدق عليه وترجحه على ذلك الفقير المقيم بين اظهر المحسنين اليه وهكذا ايضًا حال اهل الريف وطلبة العلم في الازهر من حيث الاحتياج الى التعلم وهب انك في مصر لا تفوتك هذه المزية من تعليم العلم الشريف فاين غيرها من باقي المزايا التي

ذكرناها للاقامة في الريف

فقال لها قد اطلت في المقام واكثرت عليّ الملام ولكن هناك اعذار واهوال واخطار. لولا مناقشتك ما سمحت نفسي باظهارها لك فقالت له هات ما عندك قال لو علمت حال اهل الارياف وما هم عليه من الظلم والاجحاف لما رغبت فيه ولا رضيت به فانهم لا يرحمون فقيرًا ولا يوقرون كبيرًا ولا يفهمون قيلا ولا يهتدون سبيلا فقهاؤهم دائمًا تحت رايهم وامرهم ونهيهم وان فهموا في انفسهم غير ذلك فلجهلهم وان وصل اليهم شيء من الدنيا فانما يكون بالالحاح واراقة ماء الحياء فهل يرضى بهذه الحالة والاقامة مع اهل الجهالة من كان ذا فضل وعفة فان اراقة ماء الوجه لا يرضى بها الاّ جاهل وكيف اعلم ذم ذلك واقع فيه وكل ما اكتسبه منهم لا يقوم مقام بعض ما يضيع مني بالاقامة معهم لان العلم يزيد بالممارسة وينقص بعدمها فمع من تكون الممارسة هناك ولا يوجد بقرى الارياف الاّ صاحب ارض فلا يتكلم الاّ في حرثها وبذرها وحصدها او نجار فلا يتكلم الاّ في انواع الاخشاب وما يصلح منها للسواقي والسقوف والابواب او صياد سمك فلا يتكلم الاّ في شبكته وفي انواع السمك وبركته وهكذا دأبهم من اول السنة الى اخرها فلا يقيم معهم الاّ من كان مثلهم فان اقام عندهم عالم ضاع علمه وتبدلت صفاته المحمودة باضدادها لان الطبع يسري كما قيل

طبع الفتى يُسرَق من طبع مَن * يصحبه فانظر لمن تصحب

فقالت له اما ما ذكرته من سوء حال اهل الريف فهو حجة لي عليك لا لك عليّ فان هذا ان كان كذلك فانما هو من شدة جهلهم فهم اذا احوج الى مثلك يقيم بينهم فيقوم بتعليمهم وتفهيمهم ما يجوز وما لا يجوز وتوقيفهم على ما ينفع وما يضر واما قولك ان من يكون عندهم يصيح عله فحسبك في هذا قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) واما ما ذكرت من ان مَن يقيم معهم تسري اليه طباعهم ومساوي اخلاقهم وقد خفت ذلك على نفسك فهذا ليس بالنسبة لك ولامثالك الذين كملت نفوسهم ورسخت في المعرفة اقدامهم واستنارت بنور اليقين بصائرهم وانطبعت على الحق والهدى قلوبهم وانما يخاف من ذلك على الاحداث والاغرار الذين لم يبلغوا من الفضل تلك الدرجة ولا وصلوا من الكمال الى تلك الغاية اما الكاملون المكملون فلا يؤثر في حسن طباعهم سوء طباع غيرهم بل يعلو حقهم على باطل سواهم ويسطو نور معرفتهم على ظلمات جهل غيرهم فان الريح العاصف اذا اقتلعت الشجرة والمدرة والصخرة فلا تقتلع الجبل الراسخ ولا تزحزحه عن مكانه وقد علمت ما علمت من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين كيف اقاموا بين قومهم من الكفار والمشركين الضالين المضلين يدعونهم الى الحق ويرشدونهم الى الهدى وياخذون بايديهم

الى سبيل النجاة ويرشدونهم الى مكارم الاخلاق وينفرونهم عن ذميم الاحوال وليس حال من احضك على تعليمهم واحثك على الاقامة بينهم كحال اولئك الذين كان يقاسي منهم الانبياء ما يقاسون وهم يدعونهم الى الله تعالى ويرشدونهم الى الخلاص من الهلاك فقال الشيخ او نحن كالانبياء والمرسلين قالت قال الله سبحانه (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) وقال جل شانه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني) وقال عز من قائل (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني) فكمال اتباعه صلى الله عليه وسلم بالدعاء الى الحق وارشاد الخلق كما كان دابه وديدنه طول حياتهِ وقد اتبعه في ذلك من بعده جماعة الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين فهدى الله كثيرًا من الخلق على يدهم فهم على الحقيقة ورثة الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وعلى الجملة والتفصيل فقد ظهر من قولك وفعلك مخالفة رايك لراي اهلك فانك لو اقتصرت على ما كان حصل عليه الوالد من حفظ القرآن الشريف وبعض خطب ومعرفة ما تدعو اليه الضرورة ويكثر مسيس الحاجة اليه من فروع الفقه لتبعت رايهم فيما قصدوهُ ولكنك علمت امورًا جهلوها فكرهت ما احبوهُ وعدلت عما ارادوهُ واذا لم ترَ ما راوهُ فاي طريق رضيت لنفسك وما هو المقصود الذي تروم الوصول اليه فان كان مرادك من العلم امر الدنيا فما

انت لم تحصل منه على الغرض وان كان مرادك الدين والتقرب الى الله سبحانه فقد قلنا ان تعليمك المحتاجين اشد الاحتياج للامور الضرورية من دينهم اولى واقرب الى الله واكثر ثوابًا مما اراك تقضي فيه عمرك وتشغل به اوقاتك من البحث والجدال والقيل والقال والجواب والسوال والحل والاشكال واعترض واجيب وفيه نظر ويرد عليه وقد يقال ولا يقال ونحو ذلك مما انت عاكف عليه ومنهمك فيه ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الازهر لا تجاوزه ولا تتخطاه الى غيره كانما جاء التنزيل والنص القاطع بان العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع

قال الشيخ قد يوفق الله سبحانه من اعلمهم العلم في ذلك الموضع فيتعلمون وينتشرون في الارض يعلمون الناس ويقومون بهذا المهم

قالت فما الذي يؤمنك ان الذين يتعلمون علمك يكونون مثلك ويسلكون سبيلك في الاقتصار على طائفة في ذلك المكان المخصوص فيبقى العلم منحصرًا فيه والمطلوب انتشاره وتعميم النفع به وهب انهم لا يكونون على طريقتك فاذا سلمت ان الذي اشرت به عليك افضل مما انت فيه فلم لا تختار الأفضل لنفسك أتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير

قال لا نسلم ان ما اشرت به افضل

قالت اسالك عن شيء واناشدك الله ان تقول الحق ولا تحاول في الجواب قال سلي عما شئت قالت اذا فرض رجل من العامة وقع بسبب جهله في عقيدة مكفرة لا يتم معها ايمانه فنبهته عليها حتى صحت عقيدته وتم ايمانه ورجل اخر منهم كان لا يحسن وضوءه مثلا فصلاته بالضرورة فاسدة فعلمته كيف يتوضاء فصار يحسن الوضوء الموقوف عليه صحة الصلاة ورجل من طلبة العلم كان يجهل مسئلة من الصرف او النحو او البيان او المنطق مثلاً فعلمته اياها حتى اتقنها غاية الاتقان فثوابك في اي واحد منهم اكثر وتعليم ايهم عند الله افضل

قال الشيخ الحق احق ان يتبع اللهم اني ارى ان تعليم الاول افضل من الثاني ثم الثاني افضل من الثالث

قالت فاذا لم يبق بيننا نزاع في ان الافضل تعليم هؤلاء المساكين المحتاجين لمعرفة الاوليات المهمة من دينهم وانت ترى التاجر في السوق اذا خيّر بين سلعتين من امور تجارته اختار ما يعلم انه اكثرها له ربحًا وفائدة اذا كان له ادنى عقل فان كنت انت من تجار الاخرة فلم لا تفعل مثل ذلك ولم تخالف المعقول فتترك الافضل وتقتصر على المفضول حتى انك ترى كثيرًا من جيراننا ومن حولنا من اهل هذه المحلة جهلاء بكثير من الامور الضرورية لهم في دينهم فمنهم من لا يحسن الصلاة ولا الوضوء ولا يفرق بين طهارة ونجاسة ومنهم من يعتقد بعض عقائد فاسدة مضرة ومنهم

من يقول كلامًا يكفر به وهو لا يشعر ولا نجد من يعلمهم او ينبههم
وتراهم على هذه الاحوال ولا تبالي بامرهم ولا تهتم بشانهم وهم جيرانك
واخوانك وانت تعلم انه لو قصد احدهم الازهر على الفرض
والتقدير ووقف على دروس العلّماء فيه فانه لا يعقل ما يقولون
ولا ينتفع بما يقررون فانهم يتكلمون بما لا يفهمه من الالفاظ
الاصطلاحية بل انت تعلم ان الواحد منهم لا يدري بفساد عقيدته
او عبادته حتى يسعى في تصحيحها فلو قصدت وجه الله سبحانه
بعلمك وعملت بمقتضى محبة الله ورسوله وملته وامته لكنت تشفق
عليهم وتنصح لهم وتواظب في وقت من اوقات الليل والنهار على
مسجد محلتنا القريب من دويرتنا هذه فتقعد فيه بين المغرب
والعشاء مثلا وتعقد لمن تراه هنـاك منهم درسا تعلمهم به كيف
يتوضأون ويصلون ويصومون وكيف يعبدون الله تعالى عبادة
صحيحة وكيف يكون البيع صحيحًا وكيف يكون فاسدًا ونحو ذلك
من الامور الضرورية لهم في دينهم ودنياهم فمنهم من تنصلح على يدك
عقيدته ومنهم من تصح بتعليمك عبادته ومعاملته وفي ذلك من
الاجر والثواب والمنزلة عند الله سبحـانه ما لا يقدر اللسان على
وصفه وانت اعلم مني بقدره مع انه لا يقطعك عما انت بصدده
فلم تعرض عنه وقد علمت ان الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة
المسلمين وعامتهم فاعراضك عنه لا يظهر له وجه الاَّ اذا قلت
معتمدة على حسن عفوك مغترة بفرط حلمك راجية عدم المواخذة

من جهتك ان قصدك بالعلم مجرد التباهي به والتظاهر بالتبحر فيه والقدرة على التعمق في مسائله الدقيقة والخوض في بحاره العميقة فتقول لك نفسك ان تعليم هؤلاء العوام لا يحتاج الى كثرة علم وجودة فهم فلا يظهر به فضل الانسان وسعة علمه وحدة ذهنه فما لك به وليس لك فيه فائدة وامثال ذلك مع ان فيه اعظم فائدة من ثواب الله ورضاه ورحمته والتقرب من حضرته فلا هذه المنزلة وصلتها ولا مقاصدك من امور الدنيا حصلتها ولو اخلصت لله سبحانه النية والعمل لأتتك الدنيا من حيث لا تحتسبها وانقادت اليك عفوا على ان الاشتغال بامور الدين وابتغاء مرضاة الله لا ينافي الاشتغال بامور الدنيا من وجوه الحلال فاعمل لاخرتك ودنياك معًا وابتغ فيما اتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك وقد تربيت في كفالة اهلك في صغرك فعليك ان تعول ذريتك وعيالك في كبرك وتسعى لهم بما يصلح حالهم وينعم بالهم من المعايش الطيبة بالكسب والسعي في طلب الرزق الحلال وابتغاء فضل الله سبحانه وقد قال جل جلاله (فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) وقال (واخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله) وقرأت في كتاب مرشد المؤمنين لمحمد بن عبد الكريم الحلبي بخطه نقلاً من مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الذنوب ذنوبًا

لا يكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ولا العمرة ولا الجهاد يكفرها الهم في طلب المعاش ومما نقله منه عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل الاعمال الكسب من الحلال ومنه عن انس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك دنياه لاخرته ولا اخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعًا فان احدهما بلغة الاخرى ومنه عن انس ايضًا من لم يهم في امر معيشته لم يهم بامر دينه والنفس لا تكون متفرغة للطاعة حتى يكون بكفها الكسرة التي تقوم بها فاذا استكملت امور قوتها صدقت عند ذلك وسكنت وتفرغت للعبادة فاغدوا وروحوا واطلبوا من فضل الله وامثال ذلك في الحديث الشريف كثير . وروي ان عيسى عليه السلام رأى رجلًا فقال ما تصنع قال اتعبد قال من يعولك قال اخي قال اخوك اعبد منك وقال لقمان لابنه يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما افتقر احد قط الاّ اصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في عقله وذهاب مروءته واعظم هذه الثلاث استخفاف الناس به وقال عمر رضى الله عنه لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة وكان زيد ابن مسلمة يغرس في ارضه فقال له عمر رضى الله عنه اصبت استغن عن الناس يكون أصون لدينك واكرم لك عليهم وكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويغرسون

ويعملون في تخيلهم وهم أئمة الهدى وبافعالهم يقتدى فما هذا التقاعد والتقاعس عن الكسب والسعي في طلب الرزق وما لك لا توسع على عيالك ومالي اراك تصرف جميع اوقاتك في المطالعة والبطالة وهلاَّ قسمت وقتك قسمين قسم تصرفه في العلم والعبادة والقسم الاخر في طلب الرزق واذا كنت لا تطيب نفسك بالاقامة في الريف معها ذكرت لك فلا باس عليك اذا تشبثت هنا بالسعي على العيال والكسب من الحلال مع الاشتغال بتعليم الطلبة وبعض العوام من الجهال

فقال وأي سعي تريدينهُ وما الذي ترينه

فقالت العاقل من اقتدى باهل حرفته وامثاله وخرقته وقد علمت ان كثيرًا من امثالك لهم مرتبات ووظائف واقطاعات ولا أرى احدا منهم الاَّ وهو ساعٍ في طلب الرزق ان كان فقيرًا وفي زيادته ان كان غنيًا فلو تصديت لهذا الامر وسعيت فيه فما اظن ان سعيك يضيع عليك فقد قيل من جد وجد ومن لج ولج فاقصد من تتوسم فيهم الخير من أرباب الكلمة وتودد اليهم وتعرف بهم فان عرفوا كنه قدرك ووقفوا على حقيقة امرك اعترفوا بفضلك وعظموك ووقروك ولا ارى في ذلك من محرم ولا مكروهٍ بل ربما كان واجبًا فانا مامورون بالسعي والناس جميعًا غنيهم وفقيرهم محتاجون لبعضهم وربما كان احتياج الغني الى الفقير اكثر من احتياج الفقير اليه لان الغني يطلب

عليه حب العظمة والترفع والترفه فلا يشتغل الاّ بالامور المهمة الكلية ويكل أموره الجزئية لحقارتها الى غيره فيحتاج للفقير ليقوم لهُ بها ثم ان كان ذلك الغني صاحب مروءة ومعروف انقطع الفقير اليه ولازمه وان كان بخلاف ذلك تركه ولاذ بغيره وهكذا حال الفقراء والاغنياء مع بعضهم

فقال لها هذا الكلام في ذاته لا شك فيه ولا ريب يعتريه ولكني قد امتحنت جميع الوظائف واصحابها واختبرت حالهم مع روسائها ونظارها فلم اجد وظيفة عارية عن الذل والاهانة ولو قام صاحبها فيها بالصدق والأمانة ولا يقيم فيها الاّ من عدل عن الحق واتبع أهواء الخلق فان كل صاحب وظيفة لا يخلو عن أحد أمرين أما ان يتبع هوى الخلق واما ان يتبع أمر الخالق فان اتبع الخلق فقد استوجب غضب الله عليه وان اتبع الخالق فقد تسبب في امتداد السنة الناس اليه فيكرهونه ويذمونه ويشنعون عليه ويتقولون عليه ما لم يقل وينسبون اليه فعل ما لم يفعل ولا يزالون بهِ حتى يعزل ولا يخفى ان الم العزل أضعاف لذة المناصب . قال الشاعر .

سكر الولاية طيب * وخمارها صعب شديد
كم تائهٍ بولايةٍ * وبعزله يغدو البريد

فبأي الحالتين ترضين واي الامرين تريدين وهل بعد هذا العمر وظهور الشيب يليق بي ان اذل نفسي واسعى فيما يوجب

لما غضب الله او اطلاق ألسنة الناس عليَّ فتضيع دنياي واخرتي واظن ان الحال الذي نحن فيه أحسن الاحوال لسلامتنا فيه من ألسنة الناس بالعزلة عنهم كما قيل

فان تجتنبها كنت سلمًا لاهلها . وان تجتذبها نازعتك كلابها

فانا وان كنا في ضيق من العيش فمثلنا كثير وربما كنا احسن من غيرنا وانا اعدّ نفسي من السعداء حيث زوجني الله بك فكنتِ موافقة لي في العلم والعمل ففي الخبر من سعادة المرء الزوجة الصالحة فهذه الحالة عندي أفضل من الرتب الموقعة في العنا والتعب واذا نظرنا الى غاية الأمر رأيناها في الحالتين واحدة فكما يموت الفقير يموت الغني ولو تأملنا حال كل منهما في الدنيا لرضينا بالفقر فان الغني في الدنيا دائمًا في معاناة رسوم كثيرة غير مربوطة وملاحظة عوائد غير مضبوطة وحركاته وسكناته مشهورة واقواله وافعاله مأثورة مذكورة يلتقطها الناس ويحرفونها عن مواضعها ويحملونها على غير ما اريد بها ويستنتجون منها شرًا وربما كان قد اراد بها خيرًا فتنطلق السنة العوام بسبّه وذمه وعيبه وتصير سيرته في الازقة شائعة وفي البلاد منتشرة ذائعة فلا يهنأ بمنام ولا يتم له نظام ولا يدخل منزله الا وفكره مشغول قد آلمه السقم والمّ بهِ النحول فيبيت سمير الارق نديم الوهم والقلق فاين هو مما نحن فيه الآن ومن ذا

الذي يرضى استبدال المه وعناه بلذة راحته وهناه

فقالت لهُ ان الذي قدرته بوهمك وتخيلته بفهمك مسلم من جهة واحدة تعارضها جهات متعددة منها ان الدنيا كما علمت دار تعب فكيف ترجو الراحة فيها ومنها ان الغنى نعمة من نعم الله يخص بهِ من يشآء من عباده فكيف يكون سبباً لذم صاحبه وصرف النظر عنه وذلك يؤدي الى البطالة المؤدية الى الفقر الموجب للذلة والمسكنة طول العمر واما قولك انا في سلامة من السنة الناس بالعزلة فنحن ان سلمنا السلامة بهذه الحالة من السنة الناس فلا سلامة فيها من أسنّة الفقر والافلاس واين السلامة وانت تنظر كل وقت الى حالنا وضيق عيش عيالنا فكيف يطمئن قلبك بالعزلة واولادك يشكون الم الجوع والقلة افلا يكون ذلك مشوشاً لفكرك مهيجاً لخاطرك فانك ان كنت منقطعاً عن الخلق في منزلك فامواهم واحوالهم في قلبك فليست العزلة مجرّد حبس الاجسام كما ان الصوم ليس مجرد الامتناع من الشراب والطعام والاّ لكانت متحققة في اهل السجن والجرائم العظام وسأذكرها هنا مقدمة أمهد بها للكلام ثم اخوض معك في حديث المرام فاقول ان كل انسان لا يرى الاشياء الاّ على حسب ما تظهر لهُ فان وقف على حقيقة امرها واطلع على ما كمن من سرها ظهرت لهُ من جميع جهاتها فحكم عليها بما تستحقه في ذاتها وبالنظر لعامة حالاتها والا ظهرت لهُ

المسئلة من جهة واحدة فيحكم فيها بما تقتضيه تلك الجهة دون سائر جهاتها وقد قالوا ليس العلم الاّ ما كشف الغطاء عن الأسرار الربانية واطلع صاحبه على الحكم الالهية ولذا قال أسد الله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً حتى انهم شبهوا صاحب العلم برئيس الجيش هذا يفتح القلاع بخيله ورجله وذاك يملك القلوب برأيه وقوله ورئيس الجيش وان كان يكشف عن مكنون القلاع فالعالم يكشف عن حقائق الطباع ويغوص بحار اسرار المخلوقات ويستخرج ما استتر من عجائب المصنوعات فكما يستولي رئيس الجيش على الممالك بقوته فكذلك العالم يجذب القلوب بنور بصيرته فالخلق مفتقرة الى العلم في سائر البلاد كافتقار الظمآن الى الماء والمسافر الى الزاد لانه لا دوام للملك الا بحسن التدبير ولا تدبير الا بالعلم فالقوة الحيوانيه محتاجة للقوة الروحانية والاولى مامورة وتابعة والثانية آمرة ومتبعة فامور الدنيا لا تنتظم الاّ بالعلم والعالم بالنسبة للعلم كاللسان بالنسبة لصاحبه فكما ان اللسان يترجم عما في القلب اذ لولاه ما علم احد ما في ضمير الاخر فكذلك العالم يفصح عن حقائق المعلومات وغرائبها ولا يحملها على غير ما اريد بها واظن ان غالب اختلاف الخلق من اختلاف نظرهم فمنهم من ينظر الى الشيء في اعم احواله فيحكم عليه بما يستحقه ومنهم من ينظر اليه من جهة فيحكم على كل جهاته بما

حكم بهِ على تلك الجهة ومن ذلك الوجه كان ذمك للغنى فانك
لم تنظر الا لما توهمته فيه من التعب والمشقة اما لكونك لم تنله فلم
تعلمه حق علمه واما لكونك لما حرمته كرهته فذممته وان كنت
قد علمته ولو انك عملت بمقتضى علمك وما اعلمه من سعة فهمك
لنظرت ايضاً لما فيه من الفوائد الجمة والمزايا المهمة كالتوسعة على
العيال والاقارب ومواساة الجار والصديق والصاحب واغاثة
الملهوف واعانة المحتاج وتنفيس كربة المكروب وايواء الغرباء
وكفالة الايتام واطعام الطعام والاعانة على نوائب الايام وغير
ذلك مما ينفع الانام ويوجب خلود الذكر ومزيد الاجر على
الدوام وانت ترى ما لكثير من الاغنياء الموفقين من الخيرات
والصدقات والمبرات والمكاتب والرواتب والمصاطب والمدارس
والمساجد والتكايا والمعابد ونحو ذلك مما يطول استقراؤه ولا
يمكن استقصاؤه فلو نظرت الى الغنى من هذه الجهات لحكمت
بتفضيله وسعيت في تحصيله ولكنك نظرت اليه من جهة واحدة
فعبته من اجلها وتحاميته بسببها ومن كان هذا حاله فمثله مثل
من يعلم ان النار من ضروريات المعيشة على الاطلاق ويمتنع من
ادخالها بيته خوفاً من الاحراق فلو تحفظ مما يوجب سريان
شررها لاستعملها وامن من شرها فكذلك الغنى فانه وان كان
قد يؤدي الى بعض مضرات لكن نفعه اكثر من ضرره ولا
ينكر ذلك الا متجاهل او جاهل وحاشاك وليس الغنى للعلماء

بدعاً ولا تحصيلهم له ممتنعاً فان العلم بانواعه يستعان بهِ على مصالح الدين والدنيا وان الملك لا يستغني عن العلم واهله وانما يلزم العالم اذا كان في وظيفة ان يكون مع الخلق كالطبيب الماهر مع المريض فكما ان الطبيب يعاين احوال المريض ويامر له بالدواء على حسب ما يراه حتى يحصل الشفاء له فيثني عليه ويشكر فضله كذلك العالم الموظف يكون بين الناس ناظراً الى ما تقتضيه طباعهم وامزجتهم وما يناسبها من الاحوال والاقوال فيعامل كلاً منهم على قدر عقله وعلى حسب حاله وما يليق بهِ من غير عدول عن الطريق القويم والصراط المستقيم فقد قيل

احمل الناس على اخلاقهم * فبهِ تملك اعنــاق البشر

فتميل عند ذلك قلوبهم اليه ويغدقون بالاحسان عليه ويقتدون بفعله وقوله ويخرج من مذمة من خالف علمه بعمله وهناك يغفر الله وزره ويضاعف أجره لان العامل بعلمه ينفع نفسه وينفع غيره وهو بين الناس كالغيث فكما ان الغيث ينتفع بهِ الحيوان والنبات كذلك العالم العامل تتغذى بهِ ارواح الخلق ويتعلمون منه ما ينجيهم من غضب الحق ومن كانت هذه حالته فالاحسان اليه مبذول ودعاؤه عند ربه مقبول

فقال الشيخ لا بأس بما تقولين ولا شك في كثرة فوائد الغنى للعاقل البصير الموفق ولكن لو تيسر لي سلوك سبيله ما

قصرت في تحصيله ولو لم يكن من فوائده الاّ رضاك وابتهاجك وحصول اغراضك لكان هذا لي كافياً في الرغبة فيه والاقبال عليه ولكن كيف السبيل اليه · واين الثريا من يد المتناول ·

قالت السبيل الى ذلك ان تعمل بعلمك وتنفع الناس بفضلك وفهمك

قال الشيخ سبحان الله واي عمل خالفت فيه مقتضى العلم من أعمالي وانت أعلم بجميع اقوالي وافعالي واما التعليم فليس لي اشتغال الا بهِ ولا تعلق الاّ بسببه وتعليمك انت اقوى دليل والله على ما نقول وكيل

قالت ما لهذا قصدت

قال وما الذي اردت

قالت من اخطأ الطريق ضل ومن عدل عن الصواب زل

اذا ما اتيت الامر من غير بابه

ضللت وان تدخل من الباب تهتدي

ومن عرف مقاصد العلم وصل الى مطلوبه وحصل على مرغوبه ومن لم يدر ما يراد من العلم وقع في عناء مستمر ولا يزال كذلك حتى ينقضي العمر فيلزم مريد اي علم ان يعرف قبل تعبه ثمرة علمه وطلبه والا كان كراكب البحر من غير دليل فان لم يغرق لا يصل الا بعد زمن طويل وقد علمت ان جميع المخلوقات تنقسم الى جوهر وعرض يقوم بهِ ويدخل في العرض

الالوان والاحوال والافعال ويدخل في الجوهر الحيوان والنبات والمعدن وتحت كل منها أنواع وتحت كل نوع افراد كثيرة بالغة في الكثرة الى حد يغلب العد ولها في وجودها وبقائها وفنائها قوانين عمومية وخصوصية وروابط كلية وجزئية اجراها عليها الخالق الحكيم القادر جلّ شانه ولكل منها في ذاته واحواله اللاحقة له والمتعاقبة عليه لفظ يعبر بهِ عنه وخاصية تقوم بهِ وحكم يحكم بهِ عليه ولا يحيط بهذه الاشياء بجميع افرادها وأحوالها كما هي عليه في نفس الامر الا العليم الخبير الذي خلقها وصوّرها ودبرها وقدرها وأودع فيها ما أودع من اسرار حكمته وغرائب صنعته وعجائب قدرته فعلمه هو العلم الحقيقي على الاطلاق لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهذا الحد لا يمكن للعقول البشرية ان تناله ولا تقرب منه بل تتلاشى وتضمحل دونه واما علمنا بها فهو قسمان القسم الاول علم حقيقي بالنسبة للانسان وهو معرفة ما يتأتى للعقول البشرية ادراكه ومعرفته من افرادها واحوالها الاصلية والطارئة عليها بالصناعة والتركيب والتحليل وطريق تحصيلها وكيفية استعمالها والانتفاع بها وخواصها واحكامها وحلالها وحرامها ويدخل تحت هذا القسم علوم التاريخ والرياضيات والكيميا والطبيعة والطب والشريعة وفروعها . القسم الثاني علم ملحق بالحقيقي ووسيلة له ويسمى علم الالات وهو علم اللسان

فيدخل فيه الصرف والنحو والبيان والعروض واللغات بأسرها فمن أقتصر على العلم المحق بالحقيقي لم يكن عالمًا حقيقيًا بل يكون كمن اكتفى باسم الخبز عن ذات الخبز ومن علم العلم الحقيقي كان له ان يجني الثمرة وينال البغية وانت بحمد الله قد اخذت من كلا العلمين بنصيب وافر وبلغت الى درجة شريفة فمن ذلك انك فقيه عارف بالمذاهب الاربعة مستحضر لاصولها وفروعها وهذا علمك وفنك الذي كنت اكثر اشتغالاً بهِ فلا اقول لك اترك الفقه وانقطع الى الطب أو الهندسة او الفلاحة مثلاً بل اقول يلزم ان تكون موظفًا بوظيفة تعمل فيها بعلمك وتنفع وتنتفع فيها بجودة فهمك وشدة حزمك فهذا الذي أشرت اليه وعولت عليه فتوكل على الله واجتهد في تحصيل وظيفة من الوظائف من غير ان تلتفت الى مربوطها ومرتباتها فقد قالوا

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه

وأوّل الغيث قطر ثم ينهمل

فان اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم ان الذى تعلمته غير ما كان يلزم ان تتعلمه او ان هذا البلد غير البلد الذي ينبغي لك ان تقيم فيه فاما ان تغير الفن او تغير البلد وغير ذلك لا اقول وفيما جرى بيننا من المناقشة كفاية قال الشاعر

على المرء أن يسعى الى الخير جهدهُ
وليس عليهِ ان تتم المطالبُ

وقال اخر

لا تيأسنَّ اذا ما كنت ذا ادب
على خمولك ان ترقى الى الفلكِ
فبينما الذهب الابريز مختلط
بالترب اذ صار آكليلاً على الملكِ

فقال لها دعيني اتفكر في اي الامرين اولى وهل ينشرح خاطري لموافقتك ام لا .

المسامرة السادسة
السائح الانكليزي

وقام من عندها وتوجه الى الجامع كعادته وهو متفكر فيما جرى بينه وبين زوجه وكان قلبه يميل لمرغوبها لادخال السرور عليها وعلى اولاده لكن لا يدري كيف يصنع وكان يقارن في نفسه احوال احد الامرين باحوال الاخر ويقدر ما في كليهما من منفعة ترجى او مضرة تحذر ثم ترجح عنده الرحيل عن البلد وكتم هذا الامر ولم يفشه لاحد واخذ في أسباب معرفة احوال

البلاد والاقطار تارةً بالسوال من اهلها وتارةً بمطالعة كتب السياحات والاخبار واقام ينتظر الفرصة فلم تمضِ الا ايام قليلة حتى اتفق ان رجلاً من مشاهير الانجليز المشتغلين في بلادهم بتعلّم اللسان العربي وقراءة علومه حضر الى مصر القاهرة ولقي حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر واطلعه على بعض رسائل معه من الامراء والكبراء تتضمن التنويه بهِ وطلب رعايته وانهى اليه انه من عشاق اللغة العربية وطلابها والمتعلقين باهدابها وان عنده نسخة من كتاب لسان العرب في اللغة للعلامة محمد بن المكرم ابن ابي الحسن الخزرجي الانصاري رحمه الله وانه لما رآه في هذا الكتاب من كثرة فوائده وغزارة مادته وعظم نفعه وجمعه من متفرقات اللغة ما لم يجتمع في غيره من كتبها المتداولة يريد طبعه للتجارة فيه وتسهيل تناوله لطالبيه فان تحصيله بخط القلم لا يتيسر الاّ للاغنياء واهل الثروة بسبب كبره وضخامته مع قلة نسخه وندرة وجوده وانه حضر الى مصر بقصد تصحيح النسخة التي معه من هذا الكتاب لاجل الطبع منها والتمس من حضرة الشيخ ان يدله على استاذ من افاضل العلماء المتبحرين في تصحيح الكتب ويقرأ عليه بعض العلوم العربية ويجعل لهُ في نظير ذلك راتباً كافياً يرضيه ويعوض تعبه فان اقتضى الحال في اثناء ذلك سفره من مصر الى بلاد الانكليز او غيرها استصحبه معه بشرط ان يضاعف لهُ مرتبه ويتكفل مع ذلك بمؤنته ونفقته

ولولزم سفره حتى يرجع الى مصر فذكر له الشيخ جماعة من افاضل العلماء المتفننين المعروفين بجدة الذهن وجودة الفهم والتمكن في الدين والعلم ودله عليهم وقال له اجتمع بهم وتكلم معهم واسترضهم بما امكن فمن رضي منهم ففيه الكفاية وزيادة فاجتمع الانجليزي ببعضهم وتكلم الشيخ ايضاً مع بعضهم فما سمع ذلك احد منهم الاّ امتنع واعتذر خصوصاً حين يسمع بالسفر فمنهم من اعتذر بكبر سنه وضعف بدنه ومنهم من قال انه لا يطيق مفارقة اهله ووطنه ومنهم من رأى ذلك لا يجوز في الدين بظنه وكان الشيخ علم الدين في جملة من ذكرهم الاستاذ شيخ الجامع الازهر للرجل الانكليزي فسأل عنه واجتمع بهِ في مجالس متعددة فرأى منه ما اعجبه وجذب قلبه من سعة اطلاعه وحضور ذهنه وجودة قريحته وحسن اخلاقه وكرم طبعه فشغف بمحبته ورغب كل الرغبة في صحبته وكلمه ذات يوم في ذلك ورغبه في موافقته على قصده وكان علم الدين في اجتماعاته مع الرجل قد رآه مهذب الاخلاق حسن الصحبة سخيّ الطبع يتودد للمسلمين ويظهر ميله اليهم وتمنيه الخير لهم ومحبة العرب ولسانهم وعلومهم فانس بهِ ولم ينفر من صحبته فلما كلمه في ذلك قال اني اجد نفسي لا تأبى ما ذكرته ولكن امهلني الى الغد حتى اتفكر في نفسي فان الراي اذا لم يبيّت ويتثبت فيه كان كالجنين المولود لغير وقت ولادته واريد ان استشير اهلي وبعض اصدقائي فاننا

مأمورون في ديننا بالاستشارة في امورنا

فقال له الانكليزي لك ذلك وسترى مني ان رغبت في صحبتي كل ما يسرك ويرضيك ويحييك وموعدنا الغد في هذا المكان وفي مثل هذا الآن ثم قام وتركه فجلس الشيخ علم الدين يفكر في نفسه ويضرب اخماساً لأسداس ويشاور من يثق برأيه ومحبته له من الناس فترجح عنده موافقة الرجل على طلبته ووافقه على ذلك من استشاره من احبته وفي خلال ذلك أحس برغبته بعض طلبته وكانوا يحبون ان لا يفارقهم لكثرة افادته لهم وترددهم عليه ورجوعهم في حل ما اشكل عليهم من المسائل اليه فارادوا ان يحولوا رأيه ويصرفوا عن هذا الامر نظره واجمعوا رايهم على ان يبذل كل منهم غاية جهده في منعه وصده عما هو بصدده فاجتمعوا اليه وجلسوا حواليه وقالوا أدام الله ايها الاستاذ تمكينك وحرس دنياك ودينك قد سمعنا من بعض الناس ان هذا الرجل الانكليزي قد استمالك الى موافقته على مراده ومرافقته الى بلاده وغير بلاده فاعظما ذلك وأكبرناه ورددناه وانكرناه وقلنا حاشا لله ان يخطر لسيدنا الشيخ ببال او يتصور له في خيال ان يرضى بخدمة رجل على غير دينه يعلمه علوم الشريعة طمعاً في المال او في حال من الاحوال لما نعلمه من زهدك وورعك، واستقامة رأيك وسلامة طبعك وقد علمت قول الله سبحانه في التنزيل (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم

اولياء تلقون اليهم بالمودة) الى قوله (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) ثم لا يخفى عليك ما في مفارقة الاهل والاوطان وما جاء من ان حب الوطن من الايمان ولا ينكر ما في ركوب البحر من الخوف والخطر وما جاء من ان السفر قطعة من العذاب او العذاب قطعة من السفر ويقال الغربة كربة والقلة مثلة لا سيما الذي قلة

ان الغريب الطويل الذيل ممتهن

فكيف حال غريب ماله مال

وقالوا عسرك في بلدتك خير من يسرك في غربتك

لقرب الدار في الاقتار خير * من العيش الموسع في اغتراب

فقال الشيخ علم الدين اما الخدمة فليس مراد هذا الرجل ان اخدمه وانما هو تصحيح كتاب يعم المسلمين نفعه اذا كان يتم طبعه فان كثيراً من الناس انا من جملتهم يتمنون ان يحصلوه ولا يتيسر لهم ان ينالوه بسبب كبره واحتياج استكتابه الى مدة كثيرة ونفقة غير يسيرة فاذا طبع كثر تداوله وتيسر تناوله فانا انما اخدم العلم والعلماء بذلك والاعمال بالنيات والله سبحانه مطلع على السرائر واذا علمت الرجل شيئاً من العلم فليس المعلم كالخادم فان من شأن المعلمين التكريم والتوقير ومن شان الخادمين الاهانة والتحقير وليسوا سواء وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على ديننا فائدة فقد يقف على حقائق ديننا فيحبه ويميل اليه ويرجحه

على غيره فيسلم . فان لم يسلم وبقي على دينه كان في بلاده وابناء وطنه كالوكيل عنا يدافع عن ديننا برد الاقاويل التي يلقيها بعض علمائهم في حقنا وانا قد احسست في هذا الرجل رغبة النظر في الادلة والاصغاء الى الحجة والطلب للعلم فلا ارى في تعليم مثله بأسا وقد قال الله سبحانه في سورة التوبة (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون) وقد نزلت في المشركين الذين نقضوا العهد فنبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم عهدهم وامر بقتالهم فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وارجفوا بالاراجيف جعل المشركون ينقضون العهد فنبذ اليهم عهدهم وهذا الرجل الذي نتكلم فيه من جملة المعاهدين لنا الذين لم نعهد نقضهم لعهدنا فليس بمثابة اولئك المحاربين من المشركين ومع ذلك فقد جاز بمقتضى هذه الاية الشريفة اسماعهم كلام الله عز وجل وهو منبع العلم والدين قال الامام فخر الدين الرازي على هذه الاية في تفسيره الكبير نقل عن ابن عباس رضي الله عنه ان رجلا من المشركين قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه اذا اردنا ان نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الاجل لسماع كلام الله او لحاجة اخرى فهل نقتل فقال علي لا ان الله تعالى قال (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) قال

والمقصود من هذا الكلام بيان ان الكافر اذا جاء طالبًا للحجة والدليل او جاء طالبًا لاستماع القرآن فانه يجب امهاله ويحرم قتله ويجب ايصاله الى مأمنه ودل هذا على ان النظر في دين الله اعلى المقامات واعلى الدرجات فان الكافر المحارب الذي صار دمه مهدرًا لما اظهر من نفسه كونه طالبًا للنظر والاستدلال زال ذلك الاهدار ووجب على الرسول ان يبلغه مأمنه ثم قال المذكور في هذه الاية كونه طالبًا لسماع القرآن فنقول ويلحق به كونه طالبًا لسماع الدلائل وكونه طالبًا للجواب عن الشبهات والدليل عليه ان الله تعالى علل وجوب تلك الاجارة بكونه غير عالم لانه قال (ذلك بانهم قوم لا يعلمون) وكان المعنى فأجره لكونه طالبًا للعلم مسترشدًا للحق وكل من حصلت فيه هذه العلة وجبت اجارته (انتهى) وهذا كاف في جواب ما عرضتم به من الاعتراض على تعليمه واما الطمع في المال فالله سبحانه العليم بحقايق الاحوال المطلع على نيات القلوب وخفيات الغيوب على ان الحالة محرجة والعيشة محوجة وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الاّ ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم واما قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء الى اخر الاية فقد نزلت في حاطب ابن ابي بلتعة لما كتب الى اهل مكة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح فخذوا حذركم ثم ارسل ذلك الكتاب مع امراة مولاةٍ لبني هاشم يقال لها سارة كانت قد جاءت

الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها عليه السلام امسلمة جئت قالت لا قال امهاجرة قالت لا قال فما جاء بك قالت قد ذهب الموالي يوم بدر اي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فاتاها حاطب واعطاها عشرة دنانير وكساها برداء واستحملها ذلك الكتاب الى مكة فخرجت سائرة فاطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك فبعث عليًا وعمر وعمارا وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان فادركوها وسالوا عن ذلك فانكرت وحلفت فقال علي رضي الله عنه والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه فاخرجت الكتاب من عقاص شعرها فجاؤا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرضهُ على حاطب فاعترف وقال ان لي بمكة اهلاً ومالاً فاردت ان اتقرب منهم وقد علمت ان الله تعالى ينزل بأسه عليهم فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله اضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على اهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم فنزلت ويؤخذ من هذا دليل لما نحن فيه وهو ان سارة هذه لما جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم ولم تكن مسلمة ولا مهاجرة امر باكرامها وحث عليها من كسوها وحملوها وزودوها ويعلم من سياق الحكاية ان المنهي عنهم في الاية المحاربون للمسلمين لا كل من خالف دينهم كما يدل عليه

ما بعد هذه الاية من قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون) وهذا الرجل وقومه لم يقاتلونا في الدين ولا اخرجونا من ديارنا ولا ظاهروا على اخراجنا بل حالفونا وعاهدونا ونصرونا على اعدائنا كما هو معلوم مشهور وسبب نزول قوله تعالى لا ينهاكم الله . الخ . كما روي عن عبد الله ابن الزبير ان اسماء بنت ابي بكر قدمت امها قتيلة عليها وهي مشركة فلم تقبلها ولم تاذن لها بالدخول فامرها النبي ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن اليها وفي تفسير الرازي قال اهل التأويل هذه الاية تدل على جواز البرّ بين المسلمين والمشركين وان كانت الموالاة منقطعة (انتهى) وقد سئل الحافظ جلال الدين السيوطي في جملة اسئلة وردت عليه من بلاد التكرور هل يجوز صحبة الكفار وقبول هديتهم فاجاب بجواز ذلك وقد استوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث ابن كلدة طبيب العرب دواء فوصفه له وكان الحارث كافرًا ومات على كفره كما نقل عن الاستيعاب لابن عبد البر واذا تقرر هذا قلت انكم لا وجه لكم في توجيه الملامة اليّ على الاجتماع بهذا الرجل وتعليمه بل اقول فضلاً عن ذلك لا باس بتعلم لسان هولاء القوم وغيرهم وان كانوا على غير ديننا ففي الحديث

الشريف من علم لسان قوم أمن من مكرهم وقد جاء ان النبي صلى الله عليه وسلم امر كاتبه زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية فتعلم قراءتها وكتابتها وجاء (الحكمة ضالة المؤمن فليأخذها حيث وجدها) وجاء (اطلبوا العلم ولو بالصين) ومعلوم ان اهل الصين كفار وامثال ذلك كثيرة وفوائد تعلمنا للغة هولاء القوم لا تنكر فانا بذلك يتيسر لنا الوصول الى ما وصلوا اليه من الفنون والصنائع الكثيرة المنافع وذلك لاننا بواسطة معرفة لغتهم يتأتى لنا التكلم معهم واستطلاع ما عندهم والوقوف على ما لهم في تلك الفنون والصنائع من الكتب والرسائل العديدة ثم نختار منها ما نراه نافعاً لبلادنا ولازماً لنا ولا بأس علينا في ذلك فقد جاء ان رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما اخبره سلمان الفارسي بان قومه وقد كانوا مجوساً يصطنعون الخنادق في بلادهم امر بعمل الخندق في الغزوة المعروفة بهِ وعمل فيه بنفسه صلّى الله عليه وسلم فلا يحسن بنا اذا رأينا عندهم امراً نافعاً ان نتركه لمخالفتهم لنا في الدين بل ننتفع بهِ وما علينا من دينهم فلنا ديننا ولهم دينهم واما ما يترتب على السفر من مفارقة الاهل والوطن ومكابدة الاهوال والمشقات فلا يعد مانعاً منه بالنسبة لما فيه من الفوائد التي ذكرها العلماء والبلغاء في كل عصر مما لا يدخل تحت حصر . قال الشاعر

سافر تجد عوضاً ممن تفارقه

وانصب فان اكتساب المجد في النصب

فالاسد لولا فراق الغاب ما افترست

والسهم لولا فراق القوس لم يصب

لا سيما اذا كان اكتساب الانسان في اقامته غير كافٍ للوازم معيشته فانه يترجح في حقه السفر على الاقامة اذا كان فيه رجاء الغني والكرامة فالسفر مع العز والغنى حضر والحضر مع القلة والذلة سفر قال الزبيدي

الفقر في اوطاننا غربة * والمال في الغربة اوطان

والارض شيء كلها واحد * والناس اخوان وجيران

ولا ينال المنى الا بالعنى ولا الراحة الاّ بالتعب ولا تدرك معاني الاحوال بمجرد الاماني والامال بل باقتحام الاخطار وركوب الاهوال ويرحم الله ابا الطيب حيث قال

تريدين ادراك المعالي رخيصة

ولا بدّ دون الشهد من أبر النحل

وأيضاً المسافر في حفظ الله وكنفه اذا كان متوكلاً عليه ومفوضاً اموره اليه طارحاً نفسه بين يدي قدرته فهو ارأف بهِ من نفسه

ألله اكبر من ان نستعدّ لهُ * بعُدّة او نرجي دونهُ سببا

اذا اصطفاك لامر هيئتكَ لهُ * يدُ العناية حتى تبلغ الاربا

وكما يكون التعب او المرض في السفر يكون في الاقامة والحضر ومن يموت بعيداً عن بلده كمن يموت بين أهله وولده فجميع ارض الله جعلت لخلقه ورحمته وسعت كل شيء لا تخص بلداً دون بلد ولا بقعة دون اخرى بل ينبغي لكلّ عاقل ان يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لاهلها من الاحوال والعادات وما يترتب على كل حالة وعادة من المضارّ والفوائد ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين اهل وطنه وينبههم على ما رأى نفعه وما علم ضرره فاذا رأى اهل جهة من الجهات اعظم ثروة وقوة وراحة نظر بعين التامل في منابع ثروتهم وموارد راحتهم وقوتهم فعرف بها اهل وطنه واذا رأى اهل صقع من الارض بعكس ذلك اجتهد في معرفة اسبابه بالنظر والتامل والمقارنة بين احوال ذلك الصقع وغيره حتى اذا علمها وتحققها حذر منها اهل بلاده بقدر اجتهاده ويكون اذا اخبر بشيء من ذلك مخبراً عن عيان ويقين لا عن سماع وتخمين فيحصل بذلك على فوائد جليلة منها زيادة علمه ومنها انتفاع غيره بما يعلمه ومنها ما يكتسبه من المال ومنها وهو اعظمها رضا ربه ومزيد ثوابه بنفعه لعباده وأحب عباد الله الى الله انفعهم لعباده وكذلك باتعاظه باحوال الناس واعتباره بامورهم واطلاعه في سياحته على الاسرار المكنونة والقوانين المدبرة المصونة التي دبر الله بها امر المخلوقات واحكم بها صنع الكائنات فمن وقف على

سر صنع الخالق زاد في تعظيمه وتقرّب اليه بالطاعة والامتثال لاوامره ونواهيه واستمسك بحبال حبه ومراضيه اذ كلما انكشف الغطآء وزالت ظلمة الجهل انكشفت الأسرار المودعة في الاشياء فيزيد تعظيم مودعها والاجتهاد في التقرب الى مبدعها فمن سافر واطلع على احوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمره لانه يعلم بالاسفار اضعاف ما يعلمه بالاقامة او بمطالعة الاخبار كما قالوا مثل ذلك فيمن طالع كتب اخبار البلاد واحوال اهلها فهذا أولى لان علمه بالمشاهدة والنظر وذلك علمه بالسماع والخبر واما ما ذكرتم من حبّ الوطن فليس حبه خاصاً بملازمته وعدم مفارقته وليس المقام بهِ دليلاً على حبه ولا الرحيل عنه دليلاً على بغضه فكم من مقيم ببلدة وهو لها كاره وراحل عنها وهو لها محب ومن احب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع اهله بما امكنه سفرا او حضرا وقد شرحت لكم بعض ما اراه في السفر من الفوائد الجميلة والمزايا الجليلة وفي علمكم كثير مما وقع للانبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصالحين من التنقلات والاسفار في القرى والامصار وما جاء في القرآن والاخبار من الحث على السير في الارض للنظر والاعتبار فكفوا عن الملامة ولله الامر في السفر والاقامة فلما سمعوا كلامه وعلموا مرامه قطعوا أملهم من تحويله عن قصده وانصرفوا من عنده فقام من وقته ومضى الى بيته فدخل على زوجته وحكى لها ما صار من امره وما

دار في سره وسألها عما تراه

فقالت اذا عزمت فتوكل على الله

ليس ارتحالك في كسب الغنى سفرا

لكن مقامك في ضرٍّ هو السفر

فقال لها اذا قبلت ما اشترطه هذا الرجل من السفر معه الى بلده والى اي بلد اراد فقد تطول مدّة السفر ويمتد امد الفراق فهل يلزم تعيين المدة ام لا

فقالت ارى ان تعيينها وعدمه على حد سوا وربما كان عدم تحديدها اولى لانه متى حصل على ما يرغبه منك كانت اقامتك معه في بلده او في غيرها موكولة لرأيك وارادتك فان كنتما مدة الاجتماع على طبع حسن وخلق جميل مستحسن وفعلت ما يجذب قلبه اليك ازداد حبه لك ورغب في طول عشرتك واجتهد في نفعك فطول المدة وقصرها يتبع ما يقع بينكما في مدة العمل من القول والفعل فان وجدت في الاقامة معه خيرًا فافعل ما تطول بهِ المدة من تشويقه للعلم والاجتهاد في تعليمه والصفح عن زلاته والاغضاء عما عساه ان يقع من هفواته

اذا كنت في كل الامور معاتبًا

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فمن ذا الذي ترضي سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً ان تعد معائبه

فبحسن الخلق تدوم المودة وبسوء الخلق تكون المباغضة والمباعدة فقل ما يرجح زنتك وافعل ما يجمل قيمتك فمن قوّم لسانه زان عقله ومن سدّد كلامه ابان فضله كما هو معلوم لديك ولا يخفى عليك فاغتنم صفو الزمان وانتهز فرصة الامكان وان وجدت الخيرة في قصرها فافعل ما يوصلك الى الخلوص من ضررها لكن يكون ذلك باللطف والمعروف والظرف لا بالشدة والعسف فقد يدرك باللطف ما لا يدرك بالعنف وكل ذلك لا يعلم الاّ عند الاجتماع ولا عبرة بما يؤخذ بالظن والسماع لان الحب كما علمت حالة للنفس تنبعث عند مشاهدة المطلوب وتضعف عند فوات الامر المرغوب لا سيما اذا وقع بين المتحابين ما يخل بمقام المحبة من قول او فعل ولو من احد الجانبين وربما أدّى الى بغض وعداوة واما ما يكون من امر الفراق فهذا علينا جميعاً شيء شاق لكن كما يقال الضرورات تبيح المحظورات واذا نظرنا لما يترتب عليه من المنافع فلا محظور فيه ولا مانع اذ ركوب الاهوال افضل من ذل السؤال والصبر درج يفضي بمن درج الى الفرج ومتى كانت مكاتبتنا متصلة والاخبار بيننا متواصلة دامت المحادثة واستمرت وحلت عيشتنا بعد ما مرّت واطلع كل منا على ما في ضمير صاحبه وبذلك يحصل الاطمئنان ويستريح الخاطر وينشرح الجنان فقد قالوا ان المراسلة نصف المواصلة ولا يخفى عليك ان البعد حالة تجدد في نفس المتحابين زيادة

شوق تؤدي الى انتشار الافكار وكثرة التذكار فيكون بين المتحابين حبل ودّ متصل لا يقطعه بعد وعنوان ذلك هو المكاتبة فعلامة القطيعة من الصديق ان يؤخر الجواب ولا يبتدئ بكتاب واودّ ان لا ترى في هذا كله غير ما ارى فافضل الرأي ما لم يفوّت فرصة ولم يورث غصة فاختلس الدهر اختلاساً فطالما سرّ ثم اسا الى غير ذلك من المرغبات ثم قالت له اني ارى ان تستصحب اكبر اولادك لتكون تربيته على يدك ويشاهد البلاد التي تقصدونها وتمرون بها ويكون تحت نظرك فتحسن ادبه فقد قيل من ادّب ولده صغيرًا سرّ بهِ كبيرًا وربما تحتاج اليه في بعض امورك ولكن هذا انما يكون برأي صاحبك ورضاه فاعرضه عليه وانظر ما يراه فسمع ذلك منها وقبله وباتا ليلتهما يتجاذبان أهداب الحادثة والنظر في اطراف هذه الحادثة الى ان ادبر الليل واقبل النهار فقام ومضى لموعد الانكليزي فوجده في الانتظار فاخبره بانه رضي بملازمته وصحبته فسرّ بذلك لما كان اشرب قلبه من محبته ثم مضيا الى حضرة شيخ الجامع ليعرضا الأمر عليه ويبرما الشروط بينهما على يديه فمثلا عنده وقبلا يده واخبراه بما دار بينهما اولاً وآخراً من الكلام وانهما يريدان اتمام الشروط على يديه لهذا المرام

فقال لا بأس ولا ضير والله يقضي بكل خير ثم اثنى على الشيخ علم الدين بمحاسن فضائله وعرفه بانه من اكابر علماء الزمان

وافاضله وان اللطف أخص خصائله والبراعة بعض شمائله والبلاغة طوع لسانه وانامله والعلوم العربية نصب ناظره والفنون الادبية رهن خاطره وانه بين العلماء مرفوع المكانة معروف بالصدق والاستقامة والامانة لم يسمع فيهِ قدح قادح ولا يبلغ ما فيه مدح مادح وقال للانكليزي استوصِ بهِ لاجل خاطري ولما يستحقه وكل ما وصفته بهِ سيظهر ان شآء الله صدقه وهلم ما تريد ليقرر ويضبط بالكتابة ويحرر

فقال الانكليزي اما اكرام حضرة الشيخ فعلى العين والرأس ولهُ عندي كل ما يسرّه ويرضيه ويحمله على الرغبة في دوام صحبتي واما ما وصفتم بهِ حضرته فهو اهله ومحلّه فاني قبل ان اجتمع بهِ ما ذكرته لاحد الاَّ اثنى عليه غاية الثناء ومدحه باحسن انواع المدح فلما اجتمعت بهِ بعض مرات يسيرة ظهر لي فضله وبراعته وجلالة قدره وان كانت معرفتي بالعلوم العربية قليلة فان القليل يدل على الكثير والقدم يدل على المسير وانا كنت قد اقمت في بعض بلاد المغرب نحو اربع سنين تعلمت فيها طرفاً من العلوم العربية ثم حضرت الى هذه الديار المصرية والان اكثر اقامتي في القاهرة والاسكندرية الاَّ اني في كل سنة اتوجه الى بلادي او غيرها من البلاد الاوروبية اقضي فيها زمن الصيف بسبب شدّة الحرارة فيه في ارض مصر وارغب ان يصحبني الشيخ في السفر والاقامة ففي مدة اقامتي بمصر يتردد عليَّ كل

يوم في وقت معين فاذا سافرت كان معي فان شآء تردد عليَّ في اوقات معينة كحالنا بمصر وإن شآء لازمني ولازمته ليلاً ونهاراً حيث كان لا يعرف هناك احداً غيري وفي اوقات اجتماعنا يصحح كتاب لسان العرب معي واقرأ عليه شيئاً من العلوم العربية ولهُ عليَّ في نظير ذلك مدة اقامتنا بمصر عشرون جنيها انكليزيا وفي مدة السفر اجعل لهُ ضعف ذلك وهذا ما عدا مصاريف التنقلات والسكنى والمؤنة فكلها عليَّ لا يلزمه منها شيء وقد قرب وقت سفرنا فان الصيف قد حان اوانه فليتهيأ لهُ فارتضى الشيخ بذلك وطابت نفسه بهِ غير انه طلب ان يكون معه ابنه في السفر فرضي الانكليزي وقال لا بأس بذلك وعليَّ مؤنته ايضاً ففرح الشيخ علم الدين وقرّ ناظره وسرَّ الانكليزي ايضاً وطاب خاطره واتفقا على ذلك وكتبا بينهما المكاتبة اللازمة وشكر الشيخ علم الدين حضرة شيخ الجامع وقبل يده واطنب في الثنآء عليه وانشده

واحييت لي ذكري وما كان خاملا
ولكنَّ بعض الذكر أنبه من بعض

ثم قام مع الانكليزي وتوجه به الى داره ليعرفها واتفقا على تعيين الوقت فصار الشيخ يتردد عليه كل يوم في الوقت المعين يقيم معه مدة من النهار في تصحيح الكتاب وقرآءة بعض العلوم العربية والمحادثة فيما تستدعيه المناسبة وما ينساق اليه الكلام مع

اللطف والادب والكمال فطابت الصحبة وزادت المحبة وتمكنت الالفة وارتفعت الكلفة وصار كل منهما يكثر التردد على الاخر ويسال عنه اذا غاب ويأنس به اذا حضر وفي اثناء ذلك كان الشيخ يستعد للسفر ويتدارك ما يلزم له ولولده ليسافر معه حسبما اتفقا عليه الى ان قال له الانكليزي قد عزمنا على السفر في اليوم الفلاني فارجوك ان تشرف داري صبح ذلك اليوم في الساعة الفلانية وليكن معك ولدك الذي تريد ان يكون معك حسبما اتفقنا عليه تجدني في انتظاركما لنسير معًا فوعده الشيخ بذلك وعاد بالخبر الى زوجته

فقالت له على بركة الله تعالى وفي حفظه ورعايته ودعت له بالسلامة والعز والكرامة والعود اليها بالصحة والعافية والراحة والرفاهية واكدت عليه في عدم انقطاع مكاتباته عنها ومكاتبات ولده فوعدها بذلك ولما كان اليوم الموعود ودّعها وودع بقية اولاده واخواته ووصاهم بتقوى الله والاعتماد عليه في كل امر وقرأ (والعصر ان الانسان لفي خسر الاّ الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ثم اخذ ولده الاكبر معه وكان اسمه برهان الدين فمضى به في الساعة المعينة الى دار الانكليزي فوجده في انتظارهما فسلّم هو وولده عليه ثم توجهوا جميعًا الى محطة سكة الحديد

المسامرة السابعة
سكة الحديد

فلما وصلوا المحطة جلسوا برهة ثم ان الانكليزي اخذ الورق المعتاد بعد ان دفع الاجرة المقررة للسفر من مصر الى الاسكندرية في سكة الحديد ولم يكن سبق للشيخ ولا لابنه فيها سفر فلما دق الجرس اول مرة قال الشيخ ما هذا وما المراد به . قال الانكليزي هذا يدق ثلاث مرات للتنبيه على قرب وقت المسير ليستعد كل من اراد وياخذ محله حيث يريد ان يجلس وبعد الثالثة بيسير يكون المسير ثم استصحب الشيخ وابنه ونزل بهما في عربة من عربات الدرجة الاولى فجلسوا فيها ينظرون من طاقاتها الى ان سارت فلما اشتد السير وزادت السرعة اضطرب قلب الشيخ بعض اضطراب وداخله شيء من الخوف لكونه لم يسبق له بذلك عادة كما قدمنا الاّ انهُ كان قد سمع بها ورأى معهُ غيره من الناس غير منزعجين فعلم انها حالة معتادة فزال روعه وسكن قلبه وجلس مطمئنًا معتمدًا على خالق الورى واشار للعربة يقول

سيري على اسم الله واسم الذي

علامة الايمان ان يذكرا

وكذلك برهان الدين ابن علم الدين في اول الامر كاد

يزعجه الحال لعدم اعتياده الاَّ انه تاسى بوالده وغيره وتفرس فيه ابوه الخوف فازال رعبه وسكن قلبه وقعدا ينظران فيما يليهما من الشبابيك الى ما يمران بهِ من الجهات متفكرين في عجائب الكائنات والانكليزي ينظر اليهما فاراد ان يعلم ما لديهما وقد عرف انهما اول مرة فيها ركبا سكة الحديد ورايا هذا الاثر الباهر والاختراع الجديد فقال للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى . قال وماذا ارى ارى ان الارض تطوى كطي السجل للكتاب وهذه العربات بما عليها كما قال الله وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وهذا الدخان قد انتشر في الجو كالسماء اذا انفطرت وتطاير الشرر في الهواء كالنجوم اذا انتثرت وكثر الزحام كالخلائق اذا حشرت وقد فُتشت اوراق المسافرين كالصحف اذا نشرت فتذكرت بهذه الاحوال أهوال القيامة فنسأل الله في الدنيا والآخرة حسن السلامة قال ففيما تفكر .

قال الشيخ اتفكر في هذه الباخرة الجارة لهذه العربات واتامل فيما لها من الحركة العجيبة وشدّة السرعة الغريبة التي حملت الأغرار من بعض العامة على ان يقولوا انها انما تسير بقوة جماعة من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم وامثال ذلك مما حملهم عليه غرابة الامر وعدم علمهم بحقيقة السر وقد عرفت انها تسير بواسطة النار التي ارى كثرة دخانها وافواج شررها المتطايرة ورأيت قبيل ركوبنا رجلاً مشتغلاً باضرامها

وتقعد لمرها في تلك الباخرة ولكني لم اعرف صورة استعمالها في هذه الحالة وكيفية الانتفاع بها في تحريك تلك الآلة فانا اجيل في هذا الامر العظيم قداح التخمين واراني لا اصل في علم حقيقته الى محجة اليقين فاني ما رايته ولا اشتغلت بهِ قبل هذه المرة بسبب اشتغالي بعلوم اللغة العربية واحكام الشريعة المطهرة وكان قد خطر لي ان اوجه السؤال في ذلك اليك لعلي اجد علمه لديك ولكن خشيت ان اتعب خاطرك وما اريد ان اشق عليك

فقال الانكليزي اخبرك اولاً ايها الاستاذ ان لطفك وكرم اخلاقك وحسن معاملتك لي مع عظم فضلك ورفعة قدرك قد جعل في قلبي لك منزلة عالية ومحبة عظيمة تجعلني ابتهج بقضاء ما تريده والقيام بما تأمر بهِ من غير ان اجد بنفسي ادنى حرج حتى لو كلفتني بما فيه مشقة في نفس الامر فارجوك الاَّ تكتم عني امراً تريده ولا تحتشم من شيءٍ تسأل عنه لانك على سفر قد كلفتك بهِ الى بلاد لا تعرفها ولا تعرف اهلها فانا اريد راحتك وانشراح خاطرك ففي ذلك سروري وراحتي وهذا الذي سألت عنه ليس في بيانه مشقة عليَّ ولا كلفة وانا وان كنت لم اشتغل بهذا صناعة الا اني عاشرت المشتغلين بهِ وقرات بعض الكتب المصنفة فيه وصار لي بهِ معرفة كافية لامثالي وهو فن واسع وفيه كتب كثيرة مطولة ولكني احكي لك منه على سبيل الاجمال والتلخيص ما لا يمل سماعه لنقطع بهِ مسافة الطريق

وبعد هذا اذا عرفت لغتنا وتعلقت رغبتك بالتبحر فيه والتوسع في معرفته فالامر اليك

قال الشيخ قد سررتني سرك الله بما يجعل فيه أسعادك وكافاك على ما وجهت اليه فوادك فارشدني عما سالت عنه تولى الله ارشادك

قال الانكليزي انما تحرك تلك الآلة بالنار بواسطة قوة بخار تحلله حرارة النار من ماء موضوع في اناء محكم ينفذ منه البخار في منافذ معلومة الى الات مخصوصة فيحركها

قال الشيخ نعم اعلم ان الحرارة اذا سخنت الماء حللت منه اجزاء تكون بخارًا فترتفع منه وتخلط بالهواء وينقص بقدرها من الماء كما يشاهد عند غليان القدر وكما يعلم من تجفيف الثوب في الشمس فان حرارة الشمس تحلل منه الاجزاء المائية فترتفع في الهواء ويبقى الثوب جافًا ولكني اريد زيادة الشرح والايضاح

قال الانكليزي من المعلوم ايضًا انه اذا وضع مقدار من الماء في اناء محكم الغطاء من كل طرف بحيث لا يكون فيه منفذ وكان فيه جزء فارغ من الماء واوقد تحته النار تصاعد البخار المتحلل من الماء بحرارة النار الى ذلك الفراغ الذي في اعلى الاناء سواء كان فراغًا محضًا اي ليس فيه شيء من الهواء الجوي او كان فيه مقدار من الهواء المذكور فاذا استمرت النار تحت ذلك الاناء فلا يزال يتجدد بخار يتحلل من الماء ويختلط بالموجود منه من

قبل وبازدياد البخار تزداد قوة تمدّده حتى تصل الى حد معين بينه وبين درجة حرارة الماء نسبة معلومة فعند ذلك تثبت قوة البخار على ذلك الحد ولا تجاوزه وينقطع تولد بخار جديد من الماء وهذا الحد الذي ذكرناه يسمى القوة النهائية للبخار عند اهل الفن ويقال حينئذٍ للفراغ المنحبس فيه البخار انه تشبع

قال الشيخ قد قلت في كلامك ان البخار يصعد الى ذلك المحل الفارغ من الماء سواء كان فراغًا محضًا او كان فيه شيء من الهواء الجوي وقد قيل في وجود الخلاء المحض وعدمه كلام كثير وخلاف طويل مذكور في المواقف وغيرها ليس هذا محله ولكن اريد ان اعرف هل وجود هذا الهواء لهُ فعل واثر في القوة النهائية المذكورة ام لا

قال الانكليزي ليس لذلك الهواء اثر في القوة المذكورة وانما يضعف سرعة تحلل البخار ويجعله بطيئًا فاذا كان ذلك المحل الخالي من الماء فارغًا من الهواء الجوّي فلا يجد البخار ما يزاحمه ويصادمه فيتحلل بسرعة شديدة حتى يصل الى قوته النهائية في مدة قليلة بخلاف ما اذا كان بهِ شيء من الهواء فان سرعة تحلل البخار تكون اقل من الحالة الاولى لان الهواء المذكور يضغط على وجه الماء فاذا تحلل البخار وطلب الارتفاع الى الاعلى وجد الهواء المذكور معارضًا لهُ فيدافعه ويعالجه حتى يتخلله ويدخل بين اجزائه فيتأخر بهذا السبب

وفي هذه الحالة يكون الضغط على الماء حاصلاً من البخار والهواء المذكورين معاً فاذا كان الاناء الذي فيه الماء وتحته النار مكشوفاً لا يصل البخار الى قوته النهائية اصلاً فانه كلما تولد منه مقدار انتشر في الجو واختلط بالهواء الموجود فيه فلا يبقى مقدار منه مجتمعاً في محل واحد محفوظاً به حتى يصل الى القوة المذكورة ثم كلما تحلل من الماء بخار وانتشر في الجو نقص بقدره من الماء الى ان لا يبقى في الاناء شيء ويشاهد في اثناء ذلك ان سرعة تولد البخار تزداد على حسب ازدياد الحرارة فمتى وصلت الحرارة المذكورة الى حد تكون فيه قوة البخار الحاصل عنها قدر ضغط الجو اي بقدر ضغط الهواء الجوّي كانت سرعة تحلل البخار اعظم ما يكون لان البخار حينئذٍ لا يعارضه ممانعة من جهة الجوّ فينفذ فيه بغير عسر ويشاهد في الماء فقافيع تعلو على وجهه وهذه الحالة هي ما يعرف بحالة الفوران او الغليان ومن هذا يفهم ان حالة الفوران للماء تحصل اذا كانت القوة النهائية للبخار المقابلة لدرجة الحرارة ليست اقل من قوة الضغط الواقع على سطح الماء سواء كان هذا الضغط من الهواء او من البخار او منهما معاً وقد علم ايضاً ان البخار كلما انتشر وتفرقت اجزاؤه وتخلخل بسبب اتساع المحل الموجود فيه ضعفت قوته وكلما انكبس وانضم الى بعضه لضيق محله زادت قوته الى ان تصل الى القوة النهائية فاذا وضعنا مقداراً من البخار في اناء ليس به ماء ورأينا قوته اقل من القوة

النهائية فصغرنا حجمه بان كبسناه وحبسناه في محل اضيق مما كان فيه زادت قوته ولا تزال تزداد قوته من تنقيص حجمه بتضييق محله الى ان يصل الى القوة النهائية فان كبرنا حجمه بتوسيع محله ضعفت قوته وهكذا فالحاصل ان قوته تكون بالنسبة العكسية للمحل المحبوس فيه فكلما زاد كبر المحل نقصت القوة وكلما نقص كبره زادت القوة الى ان تصل الى الدرجة النهائية وهكذا الغازات

قال الشيخ فاذا وصل البخار الى هذه القوة النهائية فصغرنا حجمه بتضييق محله بعد ذلك فهل تزيد تلك القوة

قال الانكليزي متى وصلت القوة الى تلك الدرجة فلا تجاوزها بل تثبت عليها ولا تزيد عنها وانما اذا صغرنا الحجم بعد ذلك استحال جزء من البخار الموجود الى ماء فلو كبرنا الحجم بعد ذلك عاد ثانياً ذلك الماء بخاراً كما كان

قال الشيخ قد بنيت ما ذكرته على كون المحل المحبوس فيه البخار ليس فيه ماء فهل تتغير تلك الحالة اذا كان فيه ماء

قال الانكليزي لا تتغير القوة النهائية بوجود الماء وانما اذا استحال جميع الماء الموجود بخاراً فعند ذلك تزيد القوة بنقل الحجم وتنقص بزيادة كالغازات

وقد وقف اهل الفن بتجاريب عديدة على تعيين القوة النهائية لبخار الماء المقابل لدرجات الحرارة من الصفر الى مائتين

وثلاثين درجة وجعلوا لها جداول ترجع اليها اربابها المشتغلون بالالات البخارية وعادتهم ان ينسبوا قوة البخار الى الجو فيقال قوة البخار الفلاني جوّ واحد واثنان او ثلاثة مثلاً وهكذا

قال الشيخ وكيف ذلك

قال الانكليزي من المعلوم ان هذا الهواء الجوي الذي نعيش فيه ونستنشقه معدود من الغازات وهو موجود في جميع المحلات كبيرة وصغيرة مرتفعة ومنخفضة ومحيط بكرة الارض من جميع جهاتها ممتد فوق روٴسنا الى بعد عظيم الاَّ انه محدود لا يزيد عن ستة وثلاثين الف متر وليست كثافة طبقاته وثقلها في درجة واحدة بل هي متفاوتة بحسب قربها من الارض وبعدها عنها فكل ما كان منها الى الارض اقرب كان اثقل واكثف بسبب ثقلها وثقل ما فوقها من الطبقات عليها وكلما كان منها عن الارض ابعد كان اخف والطف

وجميع الاجسام الموجودة في الهواء عليها ضغط من الهواء بحسب جرمها وقد قدر ذلك بالحساب وحرر فعلم ان كل مقدار سانتيمتر من سطح اي جسم عليه ضغط من الهواء الجوي بقدر ثقل كيلوجرام وثلاثة وثلاثين جرامًا

قال الشيخ ما معنى سانتيمتر وكيلو جرام وجرام فهذه الفاظ لا اعرفها لانها ليست عربية

قال الانكليزي سانتيمتر هو جزء واحد من مائة جزء من

المتر اي عشر عشر المتر والمتر هو ذراع وثلث بالذراع المعماري المستعمل في مصر في مقاييس الابنية وكيلو جرام معناه الف جرام والجرام يقرب من ثلث درهم فكل مقدار سانتيمتر اي عشر عشر المتر من سطح اي جسم من الاجسام عليه ثقل ٢٤٤ درهم مصري من ضغط الجو وهو ثقل عمود من الزئبق قاعدته سانتيمتر واحد وطوله ستة وسبعون سانتيمترا او قدر عمود من الماء قاعدته سانتيمتر وطوله عشرة امتار وثلث لان الزئبق اثقل من الماء ثلاثة عشر مرة وستة اعشار مرة فلو ضربنا طول عمود الزئبق المذكور وهو ستة وسبعون من مائة في ثلاثة عشر وستة اعشار لحصل عشرة امتار وثلث

فاذا كان الضغط الواقع من البخار او الغاز على قدر سانتيمتر من سطح اناء مثلاً مساويًا للضغط الواقع من الجو على القدر المذكور يقال ان قوة هذا البخار او الغاز تساوي جوًا واحدًا واذا كان بقدر ضغط الجو مرتين قيل ان قوته جوان وهكذا

ولسهولة الاعمال حرر اهل الفن جداول يعلم منها درجة الحرارة المقابلة للقوة النهائية المقدرة بقدر معلوم من الجو فالجو الواحد يقابله مائة درجة والجوان (١٢٠) درجة وستة اعشار وهكذا الى ثمانمائة وعشرين جوًا يقابلها (٣٢٠) درجة وتسعة اعشار

قال الشيخ قد يوجد في كتب القدماء بعض مسائل تتعلق بفعل الحرارة في الماء والاجسام وبعض احوال البخار لكننا لم نجد

فيها كيفية استعماله بهذه الصورة الجارية الان وانما كان يستعمل قديمًا قوة الانسان والحيوان في نقل الاثقال وادارة بعض الالات كالسواقي والطواحين وكذلك استعملت قوة تيار الماء في ادارة بعض الالات واستخدمت قوة الريح في سير السفن في الابحر والانهر وادارة الطواحين الهوائية ونحو ذلك اما استعمال قوة البخار فيما ذكر بهذه الصورة فلا نعهد له ذكرًا فيما وصل الينا من الكتب القديمة فهل تذكر تاريخ الاهتداء لاستعماله

فقال الانكليزي غاية ما امكن الوصول الى معرفته مما كان جاريًا في ذلك بالاعصار القديمة ان اول من تنبه لاستعمال قوة البخار هارون الاسكندري المصري وذلك انه صنع كرة مجوفة تدور على محور افقي دورة رحوية وجعل فيها انابيب على خط واحد حولها وجعل اطراف هذه الانابيب معوجة الى جهة واحدة فحتى قوي البخار في جوف تلك الكرة يخرج من تلك المعوجات فاوجب حركتها فتدور على محورها كما تدور الرحا وهذا ايضًا يحصل بالماء لو وضع في تلك الكرة بدل البخار هذا غاية ما امكن الاستدلال عليه مما حصل في الازمان القديمة

ثم في سنة ١٦١٥ من الميلاد اعني سنة ١٠٢٤ من الهجرة استعمل رجل من الفرنسوية قوة البخار في رفع الماء الى الاعلى وذلك بان صنع وعاء كرويًا يعبر عنه بالدست والقزان وجعل له انبوبتين لكل منهما حنفية تفتح وتقفل على حسب الارادة واحدى هاتين

الانبوبتين في اعلى الوعاء ليصب منهما الماء وهي قصيرة والثانية طويلة متصلة باسفله صاعدة الى فوق متصلة بحوض مرتفع حيث يراد ايصال الماء . فيوضع الماء في ذلك الوعاء الكروي من الانبوبة المعدة لصبه ولا يملأ كله بل يبقى اعلاه فارغًا لاجل تجمع البخار فيه وتوقد النار تحت الوعاء فيتحلل منه بخار يرتفع الى ذلك الموضع الفارغ فاذا اشتدت قوة البخار ضغط على الماء فيندفع الى الانبوبة الطويلة المتصلة بالحوض ويرتفع فيها بسبب شدة ضغط البخار عليه حتى يصل الى الحوض العالي وينزل فيه وكلما نقص الماء في ذلك الوعاء الذي تحته النار وضع فيه ماء جديد وهكذا حتى يمتلىء الحوض

ثم في سنة ١٠٣٩ من الهجرة جعل احد الطليانيين للدست الذي توقد تحته النار انبوبة ممتدة الى قرب طارة راسيّة لها كفات وإن شئت قلت ريشات او الواح مثلاً كما في الطارة التي تشاهد في مراكب النار اعني الطارة التي يسير بها مركب النار ويقال لها جرخ وعجلة وتلك الانبوبة متوجهة الى الكفات المذكورة ولها حنفية تفتح وتقفل بالاختيار فتوقد النار على الدست وفيه الماء فيتحلل منه البخار فاذا اشتدت قوته تفتح حنفية الانبوبة فيمشي فيها البخار ويخرج منها بقوته متوجهًا الى الكفة التي تقابله من كفات الطارة فيدفعها بقوته فتنازل وتاتي الكفة التي بعدها فيدفعها كذلك وهكذا فتدور الطارة بسبب ذلك . وتلك الطارة متصلة

بقضيب طلومبة موضوعة في بئر فيتحرك قضيب الطلومبة بواسطة دوران الطارة فيخرج الماء بواسطة الطلومبة من البئر الى اعلاه وذلك كان المقصود من هذه الالة

وفي سنة ١٠٧٤ من الهجرة كتب بعض الناس نبذة ذكر فيها انه اخترع آلة يتيسر بها رفع الماء من اسفل الى اعلى بواسطة النار وهي عبارة عن دستين كرويين مركبين على فرن وفي كل منها انبوبة واصلة الى قرب اسفله نافذة منه وكل من الانبوبتين يتصل بانبوبة افقية وكل من الدستين في اعلاه انبوبة قصيرة غير ما ذكر يصب منها الماء في الدست ولها حنفية فاذا وضع الماء في احد الدستين الى قرب نصفه مثلاً واوقدت تحته النار يتولد منه البخار ويضغط على الماء فيمشي في الانبوبة المتصلة باسفل الدست ويرتفع فيها الى اعلا وهذه الآلة مثل الاولى التي استحدثت سنة ١٠٢٤ وانما هذه فيها دستان يستعملان بالتعاقب وفي كل منها يستحيل جزء من الماء الى بخار يضغط على باقي الماء فيرفعه الى الأعلا

وفي سنة ١١٠٢ من الهجرة استحدث رجل من الفرنسوية يسمى (پاپن) آلة ذات مكبس يضغط عليه البخار فيرفعه وذلك ان هنالك وعاء على شكل الاسطوانة مفتوحاً من اعلاه مسدوداً من اسفله وفيه مكبس محكم مالئ للوعاء المذكور قابل للحركة من اسفل هذا الوعا الى اعلاه وعكسه وفي اعلى المكبس قضيب تعبر

عنه بالساق فيوضع في الوعا الاسطواني المذكور مقدار من الماء قبل وضع المكبس ثم يوضع المكبس ويتكأ عليه باليد فينزل الى ان يمس الماء الموجود في الوعاء فيخرج الهواء الموجود من ثقب في سطح المكبس يسد بعد ذلك وتوقد النار تحت الوعاء المذكور فيتولد البخار ويضغط على المكبس فيرتفع الى اعلى الوعاء ويرتفع معه ساقه السابق ذكره وفي راس هذا الساق حبل ربط به طرفه وهذا الحبل يمر فوق بكرتين وطرفه الثاني طويل بحيث يمكن ان يربط به شي ثقيل يراد رفعه وغير ذلك فاذا ارتفع ساق المكبس كما ذكر يضبط في محله بمسمار يثبت به ثم تبطل النار من تحت الوعاء الاسطواني المذكور فتحصل البرودة وينقطع البخار الدافع للمكبس فاذا رفع حينئذٍ المسمار الممسك للساق سقط المكبس الى اسفل الوعاء بسبب ضغط الهواء عليه وبسقوطه يسحب معه طرف الحبل المربوط به فيرتفع الثقل المربوط في الطرف الثاني من الحبل ونحو ذلك

ثم اشتغل الناس بتحسين هذه الآلة وغيرها من الآلات السابقة حتى صارت تستعمل في اعمال جسيمة كثيرة النفع واستحدثت الات جديدة لرفع الماء احسن من الاولى بحيث صار الماء الذي يراد رفعه الى الاعلى يوضع في آنية غير التي تحتها النار فتميزت الآلات الجديدة على القديمة بهذه المزية ولكن مع هذا كان يضيع جزء كثير من البخار يذهب سدى وذلك انه عند توجيه البخار الى

الماء ليضغط عليه كان يذوب في الماء جزء كبير من البخار فكان لا يرتفع الماء الاّ اذا تشبع بالحرارة بحيث لا يقبل ذوبان بخار جديد فيه وحينئذٍ يضغط عليه البخار الوارد ويفعل فيه بكل قوته فيرتفع وبهذا السبب كان يضيع جزء كبير من البخار كما ذكر واستمر هذا المحذور الى ان اجتهد (بابن) المذكور في ازالته حتى ظفر بالغرض سنة ١١١٩ من الهجرة بان جعل البخار الوارد من الدست يضغط على مكبس كالسابق ذكره موضوع فوق الماء المراد رفعه فمتى ضغط البخار على المكبس ضغط المكبس على الماء فيخرج في انبوبة مخصوصة يرتفع فيها الى حيث يراد رفعه

ولم يقتصر المذكور على ذلك بل احدث آلة تسمى آلة الامن تكون فوق الدست لمنع البخار من ان يصل الى شدة يتمزق بها الدست الذي هو فيه وسيجيء ذكرها

وزاد في تحسين الآلة المعدة لرفع الماء حتى جعلها تصلح للاستعمال في اعمال كثيرة وذلك انه بعد رفع الماء الى حوض موضوع على ارتفاع مخصوص جعل لذلك الحوض انبوبة ينصب منها الماء على طارة ذات كفات كالطارة السابق ذكرها في الآلة المستحدثة سنة ١٠٣٩ فتدور تلك الآلة بقوة وقع الماء الساقط على كفاتها وانتفع بدوران هذه الطارة في ادارة غيرها

ومن ذلك الوقت اخذت تلك الآلات في الاشتهار واشتغل خلق كثير في بلاد فرنسا والانكليز بتحسين امرها والزيادة فيها

واكثار مزاياها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من الحسن والجودة وكثرة المنافع ودخلت في كثير من الصنائع والمعامل والمصانع واسقاء المزارع والحرث وطحن الحبوب والسفر بمراكب النار في البحر وعلى سكك الحديد في البر حتى صار البخار اكبر مساعد للنوع الانساني فزادت به قوته وسرعته حتى عمل به ما كان يعد من الممتنع عمله بالوسائط الاولى

فقال الشيخ نعم قد عُمل بواسطة هذا البخار اعمال كانت تعد من الممتنعات في العادة ولا يتصورها احد من الناس فمن ذا الذي كان يتصور قبل ان يظهر هذا الامر انه يذهب من القاهرة الى الاسكندرية ثم يعود الى محله في يوم واحد . ولكن اريد من لطفك ان تخبرني عن اول وقت استعملت فيه هذه السكك الحديدية ان كان على ذكر منك ثم تمم معروفك بان تشرح لي صفة الآلات البخارية المستعملة الان في سكة الحديد وغيرها مع بيان كيفية استعمالها على سبيل الاجمال والتقريب تتميمًا للاكرام

فاتمم ما مننت به واحسن * فما المعروف الّا بالتمام

قال الانكليزي حبًا وكرامة اما استعمال السكك الحديدية اعني السفر بواسطة الات البخار فوق قضبان من الحديد توضع على الارض كما تشاهده فلم يكن الّا منذ عهد قريب فان اول تجربة عملت في ذلك ونجحت كانت في سنة ١٨٣٠ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٤٦ من الهجرة في بلاد الانكليز وقبل ذلك كانت جرت

آلة بخارية في سنة ١٢١٦ بقصد استعمالها في السير على الارض المعتادة فلم تنجح وظهرت صعوبات كبرى من حصول الاحتكاكات الكثيرة فتركت وبعد ذلك اشتغل الفكر بوضعها فوق قضبان من حديد واستعمالها في محاجر الفحم الحجري فظهر منها فوائد وثمرات كثيرة ولكن كانت سرعتها قليلة لقلة كفاية المقدار المتحصل من البخار فان كل دورة كاملة من دورات العجل تحتاج الى كمية من البخار تساوي ضعف حجم الاسطوانة الجاري فيها تأثير القوة الفعالة فلهذا بقيت سكك الحديد مدة لا تستعمل الا في نقل الفحم الحجري وبعض بضايع قليلة

وفي اثناء ذلك كان كثير من ارباب الفن يجتهدون ويتفكرون في استنباط طريقة يتيسر بها زيادة مقدار البخار لما يترتب عليه من الثمرات الكبيرة والفوائد العامة فكان الفخر في ذلك لرجل من الفرنسوية استنبط بفكره طريقة حسنة موصلة الى هذا الغرض وذلك بوضع جملة انابيب في الدست متصلة ببيت النار تنفذ فيها النار والحرارة فيكثر بسببها تسخن الماء ويزداد بذلك مقدار البخار الى الحد المطلوب وعند ذلك عملت هذه الطريقة في الة انشاها (ستيفنسون) الانكليزي في معمل له وجربت فنجحت . ومن وقتئذٍ اشتهرت وكثرت السكك الحديدية وصارت تزيد وتمتد في كل مملكة من الممالك الى ان صارت مستعملة في اكثر بقاع الارض المعمورة وقد كانت الآلات التي

عملت من قبل لاتزيد سرعتها عن ثلاثة آلاف متر في الساعة الواحدة وكان ما ينقل من البضاعة في المرة الواحدة لا يزيد عن ثمانين طنًا ونعني بالطن ويقال له طونيلاته ايضًا ما يساوي مقدار اثنين وعشرين قنطارًا مصريًا وبعض كسر قليل من قنطار فثمانون طنًا تساوي الفًا وسبعمائة وعشرين قنطارًا فهذا غاية ما كان يمكن نقله بواسطة الآلات القديمة مرة واحدة واما الان فلما دخل هذه الالات من الاتقان والتحسين صار يمكن ان ينقل بها في المرة الواحدة لغاية ثمانمائة طن بسرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة هذا في قطارات البضايع واما قطارات المسافرين فيمكن لها لخفتها عن هذا المقدار ان تسير في الساعة الواحدة ستين الف متر فاكثر الى ثمانين الف متر فان سرعة الالات البخارية تزيد وتنقص على حسب الاثقال مثل الحيوانات فان كانت الالة تجر ثمانمائة طن في سرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة فلا تجر في سرعة ثمانين الف متر مثلًا الا عشر هذا المقدار فاذا وصلت السرعة الى مائة وستين الف متر مثلًا فانما تسير بنفسها ولا تجرّ حينئذٍ شيئًا مطلقًا

واما صفة الآلة البخارية في سكة الحديد وغيرها وكيفية استعمالها فاشرحها لحضرتكم على وجه التلخيص والاختصار والتقريب فاقول الغالب فيما عدا باخرة سكة الحديد من الآلات البخارية ان يكون الاناء المتولد فيه البخار منفصلًا عن الآلة واما باخرة

سكة الحديد فيكون فيها اناء البخار مع الآلة ويرى الجميع كشيء واحد ويقال له هنا وابور البر وهو الذي تشاهده امام القطار يجر هذه العربات على قضبان الحديد الموضوعة فوق الجسر على مقتضى قواعد معلومة تختص بتحديد سعتها وميلها واختلاف اتجاه سيرها على جسر واحد او جسور متعددة متصلة ببعضها موصلة الى بلاد مختلفة ولنتكلم على باخرة سكة الحديد وغيرها

فاما غيرها من الآلات المستعملة لسير السفن وريّ المزارع وادارة المعامل المعروفة بالورش ونحو ذلك فمحل البخار فيها (وهو المعروف بالدست والقزان) يكون موضوعًا فوق الفرن بحيث يكون اكثر سطحه ماسًّا للنار حتى يحصل مقدار كثير من البخار من غير اتلاف واسراف في الوقود المستعمل وهو الفحم الحجري في الغالب ولا يكون شكل الدست والفرن كما اتفق بل يكون بمقتضى قواعد وقوانين هندسية لا بد من رعايتها والاجراء بموجبها لحصول النجاح فاذا اوقدت النار في الفرن تحت القزان غلى الماء الموجود فيه فيتولد منه البخار ويدخل في انابيب من المعدن مخصوصة يخرج منها الى اوعية اسطوانية من اجزاء الالة تسمى الاسطوانات لكل منها غطاء محكم وفي باطنها مكابس محكمة على قدرها كالتي تقدم ذكرها ولكل مكبس ساق ممتدة نافذة من غطا الاسطوانة الى خارجها فاذا دخل البخار في تلك الاسطوانات حرك ما فيها من المكابس الى جهة اتجاهه فاذا ورد من الاسفل اي من جهة

قاعدة الاسطوانة دفع المكبس الى اعلاها واذا جاء من الاعلى اي
من جهة غطاء الاسطوانة دفع المكبس الى أسفلها ففي الحالة الاولى
يصعد المكبس من جهة قاعدة الاسطوانة الى قرب غطائها وفي
الحالة الثانية يهبط الى قرب قاعدتها وهكذا تستمر المكابس صاعدة
وهابطة بتكرار ورود البخار عليها ودفعه لها من الاسفل الى الاعلى
ومن الاعلى الى الاسفل وفي حركاتها هذه تعلو وتسفل معها سيقانها
الخارجة من اغطية الاسطوانات كما مر ذكره انفاً وهناك قطعة
مستطيلة ذات شكل مخصوص نسميها القبّ تشبيهاً لها بقب
الميزان موضوعة بحيث يمكن ان تتحرك حول مركز وسطها كحركة
قب الميزان يعلو احد طرفيها ويسفل الاخر ثم يعلو السافل
ويسفل العالي وساق كل مكبس من المكابس المذكورة متصل راسها
باحد طرفي هذا القب وقد رتب البخار الوارد على هذه المكابس
بحيث يجعلها تتحرك على التعاكس بمعنى انه اذا كان احدها صاعداً
كان الاخر هابطاً ثم يهبط الصاعد ويصعد الهابط وهكذا . وبحركة
المكابس هذه الحركة التعاكسية يتحرك القب المذكور بالتبعية لحركة
سيقانها المتصلة رؤوسها بطرفيه كما ذكر فيصعد طرف القب مع
الساق الصاعدة ويهبط مع الهابطة وهكذا . وبحركة طرفيه تتحرك
معها قضبان ثابتة فيها متصلة بمحاور موضوعة على الارض اوغيرها
فتوصل تلك القضبان حركة القب المذكور الى هذه المحاور
فتجعلها تتحرك حركة دورية كحركة سهم الساقية فتدور بهذه الدورة

باقي العدد الموجودة لما بينها من الاتصال ولكل آلة تركيب مخصوص موافق للغرض المطلوب منها ولها اشكال مختلفة وانواع كثيرة بحسب ما يطلب منها فليس ما يطلب لاجل الغزل والحياكة او صناعة الحديد مثلاً كالذي يطلب لسير السفن ولا ما يراد به ادارة عدد كثيرة وكبيرة كالذي يراد به ادارة عدد قليلة وصغيرة بل كل على حسب ما يلزم له

واما بواخر سكة الحديد فيكون فيها الآلة والقزان والفرن جميعها مجتمعة مع بعضها في هذا الدست المستطيل الاسطواني الذي تراه امام القطار موضوعاً على فرش من المعدن فوق العجل بكيفية معلومة ليس هنا محل شرحها

فجهة المؤخر من الدست حيث يقف سائق الوابور فيها بيت النار وهو الفرن وهناك جميع الآلات التي تدل على قوة تمدد البخار والتي يوقف بها الوابور حالة سيره وعكسه وفي جهة مقدم الدست اي اوله من الجهة التي يسير اليها يوجد بيت الدخان وفوقه تلك المدخنة القائمة التي تراها ينبعث منها الدخان الى الجو وبين بيت النار وبيت الدخان المذكورين بيت الماء وفيه انابيب من النحاس كثيرة يبلغ عددها مائة فاكثر الى مائتين وثمانين وهي متصلة ببيت النار وبيت الدخان مارة من بيت الماء الموجود بينهما كما ذكر

وهذه الانابيب موضوعة بقرب بعضها وبينها اخلية صغيرة

يملأها الماء فتصير الانابيب المذكورة مغمورة فيه

ثم فوق الدست مما يلي جهة النـــار بيت البخار وهو الذي تراه ناتئًا فوقه كالحدبة على ظهره ويقال له طنبوشه

فيوضع الماء في القزان اي في بيت الماء السابق ذكره ولا يملا جميعه بل يترك جزء في اعلاه فارغًا من الماء ليتولد فيه البخار ومنه يصعد الى الطنبوشة المذكورة وتوقد النار في الفرن فيسخن بيت الماء المتصل به وتدخل الحرارة مع الدخان في تلك الانابيب فتسخن ايضًا وتشتد بها سخونة الماء لكونها مغمورة فيه فيتولد البخار بسرعة ويحصل منه مقدار كثير يكفي للمطلوب يجتمع في الطنبوشة كما مر ذكره فتشتد قوته وفي اعلى هذه الطنبوشة من داخلها فم انبوبة طويلة تمتد منها الى بيت الدخان مارة من بيت الماء من اعلاه في الجزء الذي يكون فارغًا من الماء وضعت كذلك لئلا تكون في الماء فتبرد وتضعف قوة ما يكون فيها من البخار وجعل فمها في اعلى الطنبوشة لئلا يدخل فيه بعض الماء عند غليانه فاذا اجتمع البخار واشتدت قوته كما ذكر يدخل في تلك الانبوبة من فمها الذي في اعلى الطنبوشة فيسير فيها الى بيت الدخان وهناك ينفصل في انبوبتين يصل منها الى اسطوانتين في جانبي بيت الدخان احداهما جهة اليمين والاخرى جهة اليسار وفي كل منهما مكبس فاذا دخل البخار في كل اسطوانة دفع المكبس الذي فيها فحركه الى جهة اتجاه قوته وبحركة المكبسين تتحرك عدد متصلة بهما

واصلة الى محور العجل الكبير الذي في وسط الفرش فتحركها حركة مستديرة على الحديد الموضوع فوق الارض فتسير الالة كلها عليه وتجر خلفها العربات المرتبطة بها وبعد ان يتم البخار فعله المطلوب منه ينصرف من تلك الأسطوانات بواسطة انابيب توصله منها الى المدخنة فيخرج منها بقوة وصوت تسمعه مدة سير الوابور فتساعد تلك القوة على اشتعال النار لانها تجلب اليها الهواء وفوق القزان آلة تسمى آلة الامن تبين تغير مقدار الماء الموجود فيه للاحتراز من زيادة قوة البخار عن المقدار اللازم فان قوة تمدد البخار تزيد وتنقص بحسب زيادة الحرارة ونقصها والقزانات انما تعمل لتحمل قوة محددة اذا زادت عنها قوة البخار يتمزق القزان وينكسر ويحصل خطر كبير وضرر عظيم ففائدة آلة الأمن الاحتراز من ذلك الخطر والضرر وبالقرب من سائق الوابور آلة اخرى ينظر اليها في كل وقت يعرف بها مقدار تلك القوة التي هي الاساس في سرعة السير فان كانت زائدة عن الحد خففها وان كانت ناقصة فعل ما يقويها . ثم آلة اخرى يسد بها الانبوبة الموصلة للبخار الى الاسطوانات حين يريد توقيفها ويفتحها حين يريد تحريكها وجميع تلك الآلات لها مقادير محددة وابعاد معينة بحسابات طويلة ولها اشكال موافقة لما يراد منها وتتركب مع بعضها على مقتضى اصول وقواعد مقررة طويلة الشرح يوجد بيانها في كتبها الخاصة بها يطلبها من يريد التبحر في معرفتها وانما هذا بيان

اجمالي لصفتها على قدر الكفاية لتصورها لمن لا يريد الاشتغال بها واتخاذها حرفة

وقد كان استعمال سكك الحديد وانتشارها في مبداء ظهورها قليلاً لجهل الناس امرها فكان الموجود منها سنة ١٨٣٩ من الميلاد اي سنة ١٢٥٥ من الهجرة في بلاد الانكليز (٢٣٣٣) كيلومتر وكل كيلومتر الف متر وفي فرنسا (٥٧٢) كيلومتر وفي باقي اوروبا (٨٣٤) كيلومتر وكان اكثر هذه السكك مستعملاً في نقل الفحم ثم اخذت في الاشتهار والانتشار بالتدريج ورغبت فيها اصحاب الاموال لما علم من كثرة فوائدها وثمراتها فانعقدت شركات بين كثير من الناس اجتمعت فيها اموال عظيمة واشتغلوا بها فكثرت واشتهرت فلما مضى عشرون سنة من ابتداء ظهورها كان الموجود منها في اوروبا وفي باقي الجهات (٧٠٫٠٠٠) كيلومتر وفي سنة ١٢٧٣ من الهجرة احصي وقدّر ما حصلت المقاولة على انشائه وعقدت مشارطاته الى ذلك التاريخ فبلغت (١١٠٫٣٩٥) كيلومتر منها في ايازوينا من بلاد امريكا (٣٣٫٧١٠) كيلومترات وفي بلاد الانكليز (٢١٫٥٥٥) كيلومتر وفي بلاد فرنسا (١١٫٦١٥) كيلومتر وفي المانيا (١٨٫٠٨٤) كيلومتر وفي باقي الجهات (٣٠٫٤٣١) كيلومتر وكان الذي تم من ذلك واستعمل الى التاريخ المذكور (٧٧٫٣٣١) كيلومتر منها في بلاد الانكليز (١٤٫٠٣٥) كيلومتر وفي امريكا (٣٩٫١٩٨) كيلومتر وفي المانيا (١١٫٩٧٥)

كيلو متر وفي فرنسا (١١٦١٥) كيلو متر والباقي في سائر جهات اوروبا وغيرها ومن ذلك في القطر المصري (٥١٨) كيلو متر ثم تم بعد ذلك باقي ما عملت مشارطاته وزاد عليه كثير غيره واذا قايسنا بين هذه المقادير وبين اهل الجهات المذكورة نرى ان كل مليون من الاهلين اي الف الف يقابله ٢٠٠٠ كيلو متر من سكك الحديد في بلاد ايتازوينا والف كيلو متر في بلاد الانكليز وخمسمائة كيلو متر في فرنسا والمانيا وما من يوم الاّ ويحدث فيه انشاء سكك جديدة توصل بعض البلاد لبعضها فهي كل يوم في تجديد وكل وقت في مزيد

فقال الشيخ ان السكك الحديدية في مصر عملت على نفقة الحكومة وهي تقوم بما يلزم من مصروفها وتاخذ ما يتحصل من ايرادها فهل الجاري في سائر الجهات مثل ذلك

فقال الانكليزي الجاري في البلاد الاوروبية على خلاف ذلك فان انشاء سكك الحديد فيها يكون على نفقة شركات تتالف من شركاء قليلين او كثيرين على حسب حالة السكة المطلوب انشاؤها والنقود اللازم صرفها عليها فهم يصرفون عليها وياخذون اجرة ما يحمل فيها من المسافرين والبضايع التجارية وغيرها بمقتضى قوانين موضوعة فيها حدود مقررة لا يقدرون على تعديها وذلك لاجل راحة الناس وعدم تمكن ارباب تلك الشركات من اطلاق التصرف بما يخل بالغرض الاصلي وهو تسهيل امر

النقل والسفر لجميع الناس مع الراحة والامن باجرة اقل مما كانوا يصرفونه على ذلك في غير سكة الحديد

وقد قدر عدد المستخدمين في سكك الحديد في كل ميريا متر اي عشرة من الكيلو متر فوجد ٧٥ شخصاً في بلاد الانكليز و ٧٣ شخصاً في بلاد المانيا و ٧١ في فرنسا فكل شركة من الشركات المشتغلة بهذه الاعمال تستعمل في الاقل نحو (٢٧٫٠٠٠) شخص وذلك عبارة عن جيش كل افراده مستعملة في توسعة دائرة الثروة البشرية ومتعيشة في ساحة الشركات المذكورة فلو حسبنا مقدار جميع المشتغلين بخدمة سكك الحديد التي ذكرناها لوجدناه يقرب من مليون اي الف الف من الناس

ولو نظرنا الى ما يصرف في هذه السكك لوجدناه يبلغ مبالغ تجاوز حد المعهود فقد وجد متوسط ما يصرف في انشاء كل كيلو متر في بلاد الانكليز نحو (٣٢٫٧٣٠) جنيه انكليزي وفي بلاد المانيا (١١٫١٢٠) وفي امريكا (٥٫٠٤٠) جنيه وفي فرنسا (٣٠٫١٢٠) جنيه من هذا (٢٫٤٠٠) جنيه ثمن الارض و (٥٫٦٠٠) جنيه ثمن القضيب من الحديد و (٢٫٤٠٠) جنيه ثمن الادوات ومصاريف الجسر والتركيب والباقي في المباني ويختلف المصروف كثرة وقلة بحسب الجهات فيكون في قرب المدن كثيراً جداً فقد لزم صرف قدر مليون جنيه انكليزي في المرور من مدينة ليون وصرف على محطة باريس نحو (١٫٢٠٠٫٠٠٠) جنيه

انكليزي وغالب المحطات النهائية يلزم لها مصاريف هائلة فان بعضها يحتاج من الارض الى ما يقرب من مائة فدان مصري

فلو قدرنا متوسط هذه المقادير وجعلناه قيمة كل كيلو متر واحد في جميع الجهات وحسبنا به الجميع نجد ان ما صرف في انشاء ما سبق ذكره من السكك يبلغ تقريباً نحو ١٬٧٣٠٬٠٠٠٬٠٠٠ جنيه انكليزي فما بالك لو حسبنا مصروف المعامل الجاري فيها اعمال الات هذه السكك وادواتها

قال الشيخ فهل جميع السكك في جميع الجهات على نسق واحد ام هي مختلفة

قال الانكليزي ليست على نسق واحد في جميع الجهات ففي بلاد امريكا تجد غالب السكك على خط واحد فيه ميول اي انحدارات كبيرة وغالب المحطات فيها من الخشب والاصل في ذلك رعاية قلة المصرف وعدم الاسراف وفي بلاد الانكليز وفرنسا جميع السكك على خطين والمحطات واسعة مشيدة صرف عليها مصروف كثير والاصل في ذلك رعاية كثرة رغبة الناس . وفي بلاد الالمانيين بعض السكك خط واحد وبعضها على خطين ولكن منذ قريب راوا لزوم جعلها كلها على خطين وبالجملة فاختلاف السكك تابع لدرجة تمدن البلاد ودرجة عمارتها وثروة اهلها

قال الشيخ ارى هذه السكك قد صرف عليها اموال هائلة

علي ما ذكرت ولكن رجحها بالضرورة اعظم فان ارباب الشركات التي ذكرتها انما اشتغلوا بها طلبًا للربح والمكسب فهل حسب ذلك او قدر

قال الانكليزي قد حسب مقدار المتحصل من اجرة السكك المذكورة سنة ١١٧٣ فكان في بلاد الانكليز اجرة المسافرين (١١،٣٦٠،٠٠٠) جنيه واجرة البضاعة (١١،٠٠٠،٠٠٠) جنيه ايضًا فيكون مجموع المتحصل من الاثنين (٢٢،٣٦٠،٠٠٠) جنيه وفي بلاد فرنسا اجرة المسافرين (٥،٥٢٠،٠٠٠) جنيه واجرة البضايع (٦،٠٤٠،٠٠٠) جنيه فيكون مجموعها (١١،٥٦٠،٠٠٠) جنيه وفي المانيا كانت اجرة البضايع ثلثي المتحصل كله فاذا قايسنا بين طول السكك والاجرة الحاصلة منها نجد انه يحصل على كل كيلو متر واحد في بلاد الانكليز ١٦٤٨ جنيه وفي فرنسا ١٩٤٠ جنيه وفي المانيا ١١٦٨ جنيه كل ذلك باعتبار الجنيه الانكليزي "

وما يصرف سنويًا على سكك الحديد يختلف باختلاف البلاد والاشغال المرتبة لكل سكة بها والقائمين بادائها فهو في بلاد فرنسا اربعة واربعون من كل مائة من اصل المتحصل وفي بلاد الانكليز خمسة واربعون في المائة وفي المانيا اربعون

وسكك الحديد في بلاد الفلمنك جارية على طرف الحكومة كما في مصر ويصرف عليها سنويًا خمسة وعشرون من المائة من اصل المتحصل وذلك في السكك الموجودة في جهاتها الشمالية

واربعة وخمسون من المائة في سكك جهاتها الجنوبية وخمسة وستون في جهاتها الشرقية واربعة وتسعون في جهاتها الغربية

قال الشيخ اظن ان ربح سكة الحديد هنا كثير جداً بسبب كثرة ما ينقل بها من المسافرين والبضاعة فقد سمعت انه يسافر في اليوم الواحد من مصر نحو ستة قطارات ومثلها من اسكندرية بعضها مشحون بالناس المسافرين وبعضها بالبضاعة وهذا غير جهات الفروع وجهة الصعيد

قال الانكليزي لا ادري حاصل ايراد السكة بمصر ومصروفها فان هذا انما يعلم من نتائج تعمل عنه في كل سنة وما رأيت شيئاً من ذلك يتعلق بمصر وقد كان خطر ببالي ان اسال من حضرتكم عنه

قال الشيخ ومن اين لي علم ذلك وهذه المرة اول مرة ركبت فيها هذه السكة فاني بحسب احوالي المعاشية واشغالي اليومية ما كنت اجد موجباً للسفر ولا خرجت من مصر منذ دخلتها الا مرة واحدة لامر مهم وذلك ان والدي توفي وترك ايتاماً فذهبت واحضرتهم ولم احتج الى السفر قبلها ولا بعدها فلما لم يكن لي حاجة الى السفر في كل وقت لم يكن لي تفكر في مثل هذه الامور التي هي من لوازمه على انا في بلادنا ليس لنا عادة بالبحث عن مثل هذه الاحوال حتى ان من يضطر منا الى كثرة السفر لا تجد له عناية بمعرفة ذلك وانما يعرف مقدار الاجرة التي يدفعها في السكة

وفي غيرها كالدابة والمركب مثلاً ويختار ما هو الارجح له من غير ان يبحث عن ربح صاحب السكة او الدابة او المركب مثلاً فهذه عادتنا وطريقتنا وان كان هذا الامر ربما عابه علينا غيرنا بالنظر لعاداتهم وعلى الجملة فليس عندي شيء من معرفة ربح هذه السكة او خسارتها فان كان عندك علم بمقدار ارباح سكك الحديد في غير هذه البلاد فارجوك ان تبين لي منه نبذة فربما يمكن لنا ان نقيس احوالها في هذه البلاد على غيرها

قال الانكليزي ليس الحال في جميع الجهات واحداً فعندنا في بلاد الانكليز كان الربح في بعض السنين اربعة في المائة تقريباً وكان مرة سبعة ومرة تسعة في بعض الجهات بعد طرح جميع المنصرف من اصل المتحصل وفي فرانسا بلغ مرة خمسة ومرة ستة ومرة تسعة كذلك وفي المانيا بلغ الربح زهاء عشرة في المائة وفي بعض جهاتها نحو اثنين وعشرين في المائة وفي اتازونيا بلغ الربح في بعض جهاتها عشرة وفي اخرى اثنى عشر وخمسة عشر في المائة وليست تدوم هذه الارباح على قدر واحد وحد معين بل تزيد وتنقص بحسب الاسباب ومقتضيات الاحوال وكذلك المصاريف

قال الشيخ اني ارى محلات جلوس الناس في هذه السكة مختلفة متفاوتة في الفرش والزينة والرونق فما وجه ذلك هل هو بحسب اقدار الناس ومراتبهم ام كيف يكون

قال الانكليزي ذلك بحسبما يدفعونه من الاجرة فان

العربات المعدة لركوب المسافرين في سكة الحديد تكون على ثلاث درجات احداها وهي اعظمها واكثرها اجرة الدرجة الاولى وهي التي نحن فيها · ثانيتها الدرجة الثانية وهي دونها واقل منها اجرة · ثالثتها الدرجة الثالثة وهي دون الثانية واقل منها اجرة فكل من رغب في واحدة من هذه الدرجات يدفع ما قدّر لها من الاجرة وينزل فيها وثم عربات من غير هذه الدرجات الثلاث معدة لنقل الدواب والبضايع وغيرها

قال الشيخ الظاهر مما رايت ان الذين ينزلون في الدرجة الثالثة اكثر

قال الانكليزي نعم هذا هو الواقع وقد قرأت منذ قريب كتابًا الفه بعض الفرنسوية حديثًا في احوال السكة الحديد يقول فيه قد دلّت التجاريب على ان كل مائة من المسافرين في سكة الحديد يكون منهم ٩ فاكثر الى ١٣ في الدرجة الاولى ومن ١٦ الى ٢١ في الثانية ومن ٦١ الى ٧٣ في الثالثة ومحصل اجرة الدرجات الثلاث يكون فيه نحو ثلاثين في المائة من الدرجة الاولى ونحو اربعة وعشرين في المائة من الدرجة الثانية والباقي من الدرجة الثالثة وهذا في فرانسا واما في المانيا فللدرجة الاولى خمسة في المائة وللثانية ٣٢ وللثالثة الباقي وقد قسم متوسط الاجرة على مقدار طول السكة فوجد انه يقع منه لكل كيلو متر من اجرة كل انسان ستة سنتيمات وثلث سنتيم في فرانسا و ٨ وثلث في

بلاد الانكليز والسنتيم عشر عشر الفرنك والفرنك ثلاثة قروش واربعة وثلاثون نصفًا فضة بالمعاملة الديوانية الجارية بمصر وكل عشرين فرنكًا بنتو واحد وما يتحصل من اجرة البضاعة أكثر مما يتحصل من اجرة المسافرين فاذا نسبنا احدهما للاخر وجدنا اجرة المسافرين في بلاد الانكليز نحو ٤٧ من المائة وفي بلاد فرانسا نحو ٤٤ وفي المانيا نحو ٣٨ تقريبًا وليست هذه المقادير ثابتة على الدوام بل تتغير باسباب كثيرة وعلى الجملة فحاصل البضاعة آخذ في الزيادة دائمًا وعليه مدار سكك الحديد فانها لا تحتاج الى ما يحتاجه المسافرون من كثرة السرعة وزيادة المصرف وقد احصي ما نقل من البضاعة بواسطة سكك الحديد في جهات فرانسا سنة ١٢٥٩ من الهجرة فبلغ ٣٥٫٠٠٠ طونيلاته وبلغ في سنة ١٢٦٧ من الهجرة ١٢٣٫٠٠٠ وبلغ في سنة ١٢٧٣ للهجرة ٢٢٧٠٠٠ طونيلاته والان يبلغ ما ينقل في السنة الواحدة في فرانسة نحو (١٢٫٠٠٠٫٠٠٠) وفي انكلترة نحو (٦٢٫٠٠٠٫٠٠٠) طونيلاته

وهذا نتيجة احداث فروع جديدة وتقليل شيء من مقدار الاجرة فقد كان يوخذ اولاً على كل طونيلاته ستة عشر سنتيمًا في كل كيلو متر من السكة والان لا يوخذ الاّ سبعة سنتيمات وذلك في بلاد فرنسا كما حققه صاحب الكتاب المذكور

والذي دعا اصحاب الشركات الى تقليل الاجرة انهم راوا ان ما صرف في انشاء سكك الحديد من الاموال مع ما يحسب عليها

من الفائدة يدخل في المصروف السنوي بقدر ١٢٠٠ جنيه في كل كيلو متر ولا ينقص هذا القدر الا بزيادة ما ينقل من البضائع وغيرها اذ لو كان المنقول من البضاعة مائة الف طونيلاته مثلاً وكان المصروف على كل طونيلاته ثلاثين سنتيماً في كل كيلو متر فلا يزيد مصروفها عن ثلاثة سنتيمات اذا كان المنقول قدر الاول عشر مرات فعلموا ان تقليل الاجرة يستوجب كثرة ورود البضاعة وزيادة الربح ثم رأوا ان كل طرد من طرود البضاعة يحتاج الى بعض اعمال كالوزن والتخزين والكتابة ونحو ذلك وهذه الاعمال لا يحتاج اليها الا في المحطة التي يشحن منها والتي يرسل اليها ولا دخل لطول المسافة وقصرها في ذلك ومصاريف هذه الاعمال وان كانت تختلف باختلاف المحطات الا انها يمكن تقديرها ١٢٠ سنتيماً لكل طونيلاته فان كان طول المسافة عشرة كيلومترات فلا تكون الا اثنى عشر سنتيماً لكل كيلو متر فان كانت مائة كيلو متر فلا يكون لكل كيلو متر الاّ سنتيم وخمس فان بلغت المسافة ٢٠٠ كيلو متر كانت قليلة جداً فلهذا رأوا ان يمنحوا اصحاب البضائع المرسلة الى مسافات بعيدة بعض امتياز على غيرهم في خفة الاجرة استجلاباً لازدياد رغبتهم ووجدوا في ذلك زيادة الربح والمكسب وكذلك التجار الذين لهم ارساليات منتظمة اعطوهم من الامتياز ما منحوه لاصحاب البضائع المرسلة الى المسافات البعيدة فرأوا في ذلك ربحاً

كثيراً وثمرة عظيمة

ثم انهم رأوا ان كثيراً من العربات تكون في معظم المسافة فارغة ويذهب مصروف نقلها سدى ووجدوا مصروف القطار يبلغ ١٥٠ سنتيماً في كل كيلو متر فاذا كانت البضاعة المحمولة ٢٥ طونيلاته مثلاً كانت الاجرة الحقيقية على حسب ذلك ستة سنتيات لكل كيلو متر فان كانت البضاعة ١٥٠ طونيلاته كانت الاجرة في كل كيلو متر سنتيماً واحداً فكلما كان المنقول اكثر كانت قيمة الاجرة اقل فمن ثم رأوا ان المسألة التي يلزم التنبه لها هي منع الفوارغ ما امكن فتوصلوا الى هذا الغرض بنقص اجرة اللوازم الأولية كالحجر والجير مثلاً لتنقل الى البلاد البعيدة والقريبة والكيفية التي استعملوها في تقدير الاجرة لمثل ذلك هي انهم عرفوا فرق ثمن الصنف بين الجهة التي يرسل اليها وجعلوه هو الاجرة للصنف

فحصل لهذه التدبيرات وامثالها ثمرات عظيمة وفوائد جمة فزاد ربح اصحاب الشركات وزاد ايضاً انتفاع الناس بسكك الحديد زيادةً تذكر

وبينما هما يتحادثان في هذا الكلام وكانا قد وصلا الى قريب محطة بركة السبع اذ وقف القطار في غير موضع وقوفه وسمع في اخريات القطـار جلبة وبعض اصوات مختلطة ونظر الشيخ فاذا بعض الناس ينزلون من محلاتهم وهو لا يدري السبب في ذلك

فسأل بعضهم فاخبروه ان احدى العربيات وجدت فيها نار والناس من خدم السكة مشتغلون باطفائها فخاف الشيخ وقال لولده وللانكليزي قوما بنا ننزل .

فقال الانكليزي لاتخف يا مولانا ولا تجزع فهذا امر يكثر حصوله في سكك الحديد ولا ضرر فيه ولا خطر وسترى هذه النار انطفأت في بعض دقائق من الزمن وفي الواقع لم تمض برهة قليلة حتى انطفأت النار وسار القطار كما كان فاطمأن خاطر الشيخ ولكنه اخذ يلوم على من يستعمل الدخان حيث ظن ان ذلك منه وينسب التقصير الى خدم السكة لعدم التفاتهم لمنعه

فقال الانكليزي ليس هذا يا مولانا من استعمال الدخان وانما هو من شدة احتكاك الدناجل واللثم وليس من احد وهذا اصغر خطر يحصل في السكة ولها اخطار كثيرة غير هذه نعوذ بالله منها ولكنها الآن اقل مما كان يحصل في السابق بكثير فلا يحصل الا في النادر وذلك بسبب ما تجدد لسكك الحديد والآتها من التحسين رعاية لسلامة المسافرين

قال الشيخ كان فيما سلف من الزمن قد حصل هنا في سكة الحديد عند كفر الزيات امر هائل شاع ذكره وانتشر خبره وعظم خطره ومات به خلق كثير فاكثر الناس وتشدد بسببه من ذم سكة الحديد وتهويل امرها والتحريض على تركها

وتفضيل المراكب عليها ثم تنوسي ذلك

قال الانكليزي من دأب الخلق ان يشتغلوا بالامور عند وقوعها ويتركوها اذا تقادم عهدها ولو تأملوا في الامور حق التامل وقارنوا بين الحوادث الواقعة وبعضها لحكموا بالصواب ولكنهم يخبطون فيها خبط عشواء فيحكمون من غير رَوِيَّة ولا تدبر فمن ذلك حكمهم على سكة الحديد بحادثة مضرّة حصلت او بعض حوادث وتفضيلهم غيرها عليها بسبب ذلك من غير حصر ولا نظر لما وقع من الاخطار والحوادث فيما ذهبوا لتفضيله ولو نظروا بعين الحقيقة لرجحوا سكة الحديد على غيرها فانها اقل خطراً واكثر مزية واخف ضرراً

قال الشيخ وما آية ذلك

قال الانكليزي قد علم من دفاتر الاحصاء انه في مدة ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٣ من الهجرة ركب سكة الحديد في امريكا من المسافرين ١،٠٧٠،٣٢٤،٣٧٨ شخصاً مات منهم بحوادث السكة ١٨٧ وانجرح ٢١٥٥ ومن سنة ١٢٥١ الى سنة ١٢٧٣ من الهجرة سافر بسكك الحديد في فرانسا ٣٢٤،٣٤٥،٧٦٩ من الناس مات منهم ١١١ وانجرح ٤٠٢ ومن سنة ١٢٦٨ الى سنة ١٢٧٣ للهجرة نقل بسكة الحديد في بروسيا ٥٥٥٥٢،٨١٣ شخصاً مات منهم اثنان وانجرح اربعة فيكون جميع من ذكر من المسافرين في تلك الجهات ١،٣٥٠،١٢٢،٩٦٠ مات منهم ٣٠٠

وانجرح ٢٥٤١ فيكون قد مات من كل ٤٥٠٠٠٠٠ من المسافرين شخص واحد وانجرح من كل ٣٨١٠٠٠ منهم شخص واحد وهذا قليل جدًا بالنسبة لما حصل في غيرها فقد علم انهُ مات في ارض فرانسة بسبب العربات المعتادة التي تجرها الخيل ١٠٢٣٤ شخصاً في ظرف ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٣ هجرية وما حصل من الحوادث في شركة السفن الفرنساوية المسماة مساجري ايمبريال يدل على ان السكة اقل خطرًا من غيرها بكثير فان جملة ما نقلتهُ سفن الشركة من المسافرين في ظرف تلك المدة اعني ستة عشر سنة قد بلغ ٧١٠٣٩٨ شخصاً بلغ عدد من مات منهم ٣٠ وعدد من جرح ٢٢٨ فيكون قد مات واحد من كل ٢٥٥٤٦٣ من المسافرين وجرح واحد من كل ٢٩٨٧٣ منهم وهو أكثر من الحاصل في سكك الحديد بقدر ١٢ مرة

فمن هذه المقارنة يظهر ما ذكرناه من قلة اخطار سكة الحديد عن اخطار غيرها من الطرق المستعملة في النقل والسفر ونسبة هذه الاخطار الى ما حصل من الفوائد كنسبة المعدوم الى الموجود

مثلاً كان المستعمل في بلاد اوروبا للنقل والسفر قبل ظهور سكة الحديد المراكب والعربات المعتادة وكانت لا تقطع في اليوم الا مسافة قليلة فكان يحصل بسبب ذلك للمسافرين تعب كثير

ومشقات عظيمة لا سيما اذا كان السفر الى جهات بعيدة يلزم قطعها ايام عديدة واكثر ما كانت تقطعه هذه العربات في اليوم ٤٠ كيلومتراً وهو ما يقطع بسكة الحديد في ثلاثة ارباع ساعة ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة والراحة التامة ومن ثم كثرت حركة الناس منذ وجدت سكة الحديد وزادت عن الاول بكثير فصارت في بعض البلاد ثلاثة امثال ما كان قبل وفي اخرى مثليه وفي جهات امريقا كانما احدثتها سكة الحديد وكانت قبلها غير موجودة

وقرأت في الكتاب الذي سبق ذكره ان الذي كان يتحصل من نقل الناس بالعربات المعتادة في الجهة الشرقية من فرانسة في السنة الواحدة ٢٤٠ جنيه وبلغ بوجود سكة الحديد ١٠٨٠ جنيه فلما رتبت قطارات مخصوصة للنزهة والتفسح اقل اجرة من القطارات المعتادة زاد ذلك حتى بلغ ١٦٫٣٦٠ جنيه

فاذا فرضنا ان المسافرين في السنة في سكك الحديد في جميع مملكة فرانسة مثلاً وهم ٧٥٫٠٠٠٫٠٠٠ من الناس يسافرون مسافة ٤٠ كيلو متر قلنا ان كل واحد منهم توفر له ثلاث ساعات كانت تمضي في السفر والحركة فان هذه المسافة يقطعها الوابور في ساعة وتقطعها العربة المعتادة في اربع ساعات فجملة ما توفر لجميعهم ٢٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠ ساعة فاذا فرضنا ان الساعة لكل منهم قيمتها نصف فرنك كان المتوفر لهم في السنة

١١٢٥٠٠٠٠٠ فرنك اي ٤،٥٠٠،٠٠٠ جنيه وقبل حدوث سكة الحديد كانت نفقة المسافر الواحد من زاد وغيره في كل كيلو متر واحد تقرب من ١٢ سنتيما وهي الآن لا تزيد عن سبعة سنتيمات ونصف فتوفر لهم بهذا السبب ايضاً ٥،٤٠٠،٠٠٠ جنيه فيكون جملة ما توفر لهم من هذا وذاك ٩،٩٠٠،٠٠٠ جنيه

فتبسم الشيخ وقال لو كان السفر على الدابة كالحمار والجمل مثلاً لكان مقدار الوفر بالضرورة اكثر لان سير هذه الدواب اقل سرعة من العربات المعتادة فانها لا تسير في الساعة اكثر من ملقة فاذا كانت المسافة بعيدة لم يكن اللازم للمسافر في مونة نفسه وحده بل يلزمه ايضاً موءنة دابته واجرة حرسها اذا بات في احدى المدن

فقال الانكليزي اذا كان المسافرون على الدواب بالعدد الذي قدرناه لارض فرانسة كان الوفر قدر ما مر ذكره سبع مرات واكثر وما حصل بواسطة هذه السكك من السهولة والسرعة في النقل قد زادت حركة التجارة وكثر نقل البضاعة وحصل منها ربح عظيم وبعد ان كان الحاصل من اجرتها لا يبلغ ثلث المتحصل من جميع المنقولات وصل بواسطة السكك الى ثلثيه والى ثلاثة ارباعه في بعض الجهات ثم صار المتحصل من البضاعة قدر المتحصل من المسافرين ثم زاد عنه وما زال يزداد

حتى صار قدره مرتين وثلاث مرات

وقد علم من نتائج الحساب في سنة ١٢٨١ هجرية أن مقدار البضايع المنقولة في ارض فرنسا الى مسافة الف متر كان يقرب من اربع مليارات طونيلاته اي اربعة الاف الف الف فلو قدرنا ان هذا القدر كان ينقل بالكيفيات التي كانت مالوفة في السابق وكانت ثلاثة مليارات منه تنقل بالعربات العادية ومليار واحد ينقل بالسفن في البحر قلنا ان نقل ذلك بواسطة سكة الحديد بدل الوسائط السابقة قد حصل منه وفر عظيم وذلك لان اجرة النقل بالوسائط المذكورة على كل طونيلاته مسافة الف متر تكون من اربعة عشر سنتيما الى ستة عشر فاذا حسب سبعة فقط كان الوفر في كل طونولاته اربعة سنتيمات ونصفا فان سكة الحديد يؤخذ فيها سنتيمان ونصف فقط فيتوفر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة من المنقول بالعربات المعتادة (٤٨٠٠٠٠٠) جنيه ومن المنقول في البحر ايضا يتوفر على كل طونولاته اربعة سنتيمات فينتج من ذلك (١٦٠٠٠٠٠) جنيه فيكون مجموع ما توفر مما ذكر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة (٦٤٠٠٠٠٠) جنيه ويلزم ان يضاف الى هذا ايضا مقدار النقص الذي حصل في اجرة المنقول بالمراكب بعد حدوث السكة غير ما ذكر لانها كانت السبب فيه فاذا حسبنا ذلك باعتبار ما نقل في البحر سنة ١٢٨١ هجرية يبلغ (٣٦٨٠٠٠٠) جنيه فيكون مجموع ما وفرته السكة على اهل

المملكة المذكورة في سنة واحدة نحو (٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠) جنيه

وقد علم بالاستقراء والاستقصاء ان حال الطرق الاولى لم تتغير وحركة المراكب لم تنقص كما يزعم بعض الناس بل زادت فقد كان الموجود سنة ١٢٥٧ هجرية في ارض فرنسا من سكك الحديد (٨٨٤) كيلو متر وكان متوسط عدد العربات العادية الموجودة (٢٤٣) ولما بلغ طول سكة الحديد (٤٩٥٣) كيلومتر في سنة ١٢٦٩ هجرية كان عدد العربات العادية (٢٤٤) فلما وصل طول السكة الى (٨٦٧٩) كيلو متر سنة ١٢٧٥ هجرية كان عدد العربات (٢٤٦) ولما بلغ طولها (١٢٫٠١٨) كيلو متر سنة ١٢٨٠ هجرية كانت العربات (٢٢٧) فمن هذا ظهر ان سكة الحديد لم يحصل منها ادنى ضرر لمن كانوا متخذين النقل بالعربة العادية صناعة بل حصل منها منفعة عظيمة لخلق كثير استخدموا في اشغالها واعمالها وربحت اصحاب الاموال منها ربحًا عظيمًا فانهم بعد ان كانوا لا ينالون في السنة الا اثنين في المائة ربحًا صاروا بوضع اموالهم في سكك الحديد يحصل لهم ربح عشرين في المائة

وجملة ما يتحصل من سكك الحديد في بلاد الانكليز لاربابها المشاركين فيها على جميع ما ينقل بها يبلغ (٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠) جنيه فلو فرض ابطالها بالمرة والرجوع الى الطرق الاولى لزم ان يصرف حينئذٍ على ما كان ينقل بها اذا نقل بالوسائط الاخرى

(٦٠،٠٠٠،٠٠٠) جنيه فقد وفرت سكك الحديد على اصحاب المنقولات (٤٠،٠٠٠،٠٠٠) جنيه فضلاً عن ان الذي ينقل بها لا يمكن ان ينقل بغيرها

فقال الشيخ الحق ان فوائد سكة الحديد عظيمة وثمراتها كثيرة وليست منافعها خاصة بالتجارة بل تعم غيرها من الصناعة والزراعة والعلوم والفنون والعادات والاخلاق والسياسة والعمران والمدنيّة ففائدتها للصناعة مثلاً انها يسهل بواسطتها نقل المصنوعات من بلد الى بلد ومن مملكة الى مملكة فيكثر استعمالها وتداولها فيزداد صانعوها وتعظم رغبتهم فيها فيحسن حالها وهكذا فائدتها في الزراعة تسهيل نقل حاصلاتها من الحبوب والثمار وغيرها فيزيد نفعها وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعتناؤهم بها وهلم جرا

فقال الانكليزي نعم ذلك كما ذكرتم ولكن ليست منفعتها في الزراعة خاصة بنقل حاصلاتها فقط بل تنفعها كثيراً بنقل ادواتها ولوازمها ايضاً كالسماد (السباخ) مثلاً فقد نقل منه بواسطتها الى المزارع باجرة واهية مقادير كبيرة نشرت على الارض القوية والضعيفة فقويت الثانية وزادت قوة الاولى وكثر محصولها وقد كانت القاذورات والفضلات في المدن الخالية عن الزراع تطرح خارجها فتتراكم حولها وتكثر فيها العفونة فتفسد هواءها فيضر بصحة اهلها فلما نشأت سكة الحديد وخففت الاجرة في نقل امثال هذه الاشيا صارت توخذ من المدن فتنقل الى بلاد الريف ومحلات الزراعة

فصارت نافعة بعد ان كانت مضرة وصلحت بها بقاع كثيرة من الارض كانت قفرة مهجورة غير منزرعة ولا مسكونة فعمرت وتزينت بالنبات والاشجار بعد ان كانت لا يرى فيها الاّ ارض يابسة كالحة خالية مما يروق العين ويشرح الصدر

وقد كان ما نقل من هذه المادة بسكة الحديد الى الجهة الشرقية من ارض فرانسة في سنة واحدة فقط وهي سنة ١٢٨١ ١٥٥٫٠٠٠ طونولاته ونقل من طين الزراعة المعروف بالطين الحلو ٢٠٠٫٠٠٠ طونولاته

فقال الشيخ لو تنبه لهذا الامر اهل بلادي لحصل منه فوائد جليلة وثمرات عظيمة لاهل القرى المصرية فان احتياج ارضهم الى السماد امر غير خفي ولا منكر حتى انهم لقلته وكثرة حاجتهم اليه تراهم يهدمون بيوتهم القديمة ويسمدون بها ارضهم ويصرفون مصاريف كثيرة لجلب السماد من محلات بعيدة بمشقات عظيمة ومن المعلوم ان مدينة القاهرة المحروسة بسبب كثرة سكانها وما بها من الدواب واصناف الحيوان يحصل فيها كل سنة من هذه المادة مقدار كثير وكذلك المدن الكبيرة مثل اسكندرية وغيرها من المدن القريبة لسكك الحديد يحصل فيها من ذلك مقادير عظيمة ليس ينتفع بها في شيء فضلاً عن ضررها فلو اتخذت طرق مستحسنة في نقله باجرة قليلة لانتفعت السكة باجرته واهل القرى باستعماله في مزارعهم وسلم اهل المدن من ضرره الحاصل من

افساده للهواء بتراكمه على بعضه

فقال الانكليزي لكل شيء وقت ولكل وقت حكم ولا بد ان يأتي زمان يحصل فيه ذلك فان الامور لا تقع دفعة بل تجري على التدريج وكم لسكة الحديد من فائدة غير ذلك ومهما نسينا من شيء فلا ننسى فائدتها في مساواة اسعار الاشياء في الجهات المتصلة بينهما وقد كانت جهات كثيرة لا يتأتى لها ارسال محصولاتها الى بعض البلاد البعيدة لبيعها بأثمان مناسبة فتيسر لها الآن ذلك بواسطة سكك الحديد واستفادت مما حصل لغيرها من اليسار والثروة وانقطع بورود محصولات الجهات الى بعضها ما كان يكثر حصوله في الازمان السالفة من القحط مما كان يتبعه من المرض

وقد كان محصول ارض فرنسا من سنة ١٢٣٦ الى سنة ١٢٥٦ هجرية ٨٠،٠٠٠،٠٠٠ هيكتولتر من الحبوب ثم صار يزيد بوجود سكك الحديد حتى بلغ في سنة ١٢٥٨ هجرية الى ٩٧،٠٠٠،٠٠٠ هيكتولتر ثم زاد حتى بلغ ١١٦،٠٠٠،٠٠٠ فظهر من هذا انه حصل منها فائدة عظيمة لمحصول الحبوب وزراعتها وزرع بعض اشياء كانت من قبل لا تزرع او كانت محصولاتها قليلة جدًا

وقبل سكك الحديد كان سفر الحيوانات التي تحتاج للاكل والزراعة صعبًا شاقًا محتاجًا الى مصروف كثير فسهل ذلك

بوجودها وعمرت بلاد وقرى كثيرة بما جلب اليهما من هذه الحيوانات واتسعت دائرة زراعتها وكثرت محصولاتها بكثرة السماد وزاد عدد الناس فيهما بزيادة مقدار المحصولات فنمت الثروة في كثير من البقاع كانت خرابًا منذ قرون عديدة وقد بلغ عدد الحيوانات المنقولة في ارض فرانسة بسكة الحديد في سنة واحدة ٤٫٢٤٥٫٣٨٧ من جميع الاصناف

وهناك بعض جهات معيشة اهلها من الصيد والقنص وكانوا قبل سكك الحديد لا يمكن لهم نقل شيء مما يحصل لهم الى بلاد ينتفعون فيها ببيعه فكانوا لذلك في فقر مدقع وبؤس شديد فلما ظهرت سكك الحديد امكن لهم نقل ذلك الى المدن العامرة والحواضر البعيدة وبيعه بثمن مناسب انتفعوا بهِ فتخلصوا من شدة الفاقة وحسنت احوالهم

وكان في جهات كثيرة من الارض بقاع غير صالحة للزرع فيها السبخ والرمال ومناقع الماء فكانت غير مسكونة فلما مرت بها سكك الحديد استحوذ كثير من الناس على كثير منها فحرثوها وفعلوا ما يلزم لاصلاحها من التسميد والردم ونحو ذلك حتى صلحت فزرعوها وانتفعوا بها فخرجت من الخراب الى العمارة

وقد تيسر بواسطة هذه السكك للعلماء واصحاب الحرف والصنائع التنقل الى البلاد البعيدة والاطلاع على امور كثيرة امكنهم بها تطبيق القواعد العلمية على العمل ورسوخها في اذهانهم

واستنتاج نتائج علمية جديدة كثرت بها الفنون واتسعت العلوم وهذا فضلاً عن اختلاطهم ببعضهم والمذاكرة بينهم في امور مهمة من العلم الى غير ذلك من المزايا العظيمة التي يطول تعدادها ولا ينتهي نفعها

فلما انتهى الكلام بهما الى هذا الموضع كانا قد وصلا الى طنطا وعرف الشيخ وابنه برهان الدين فقرآ ما تيسر من القرآن الكريم واهديا ثوابه الى صاحب المقام بها سيدي احمد البدوي رضي الله تعالى عنه

المسامرة الثامنة
طنطا

فقال الانكليزي هذا البلد يسمى عند بعض الناس طنطا وبعضهم يسميه طندتا ولم اعلم اصل ذلك

فقال الشيخ سمعت ممن لهم مزيد الشهرة في عصرنا بالمعرفة والخبرة باللسان المصري القديم واتقانه قرأة وكتابة وفهماً ان اصل اسمها في اللسان المذكور طنطا بطائين مفتوحتين بينهما نون مفتوحة ايضاً ومعناه في ذلك اللسان بلدة الحمد قال ثم حرفه القبط

وقالوا طندتا بفتح الطاء وسكون النون وكسر الدال وتشديد التاء فمن قال طنطا بسكون النون فهو تخفيف طنطا بفتحها واما طندتا فهو كما تصرف القبط فيه.

فقال الانكليزي اني ارى لهذا السيد عند الناس اعتقادًا عظيمًا ومحبة شديدة وتعظيمًا كثيرًا واقبالاً على موالده فهل بينه وبين نبيكم نسب معلوم او قرابة متصلة ام لا فان كان على ذكر منك شيء من علم ذلك فمن عليَّ ببيانه

فقال الشيخ نعم اذكر لك ما علق ببالي وبقي في حافظتي من ترجمته وبعض خبره مما قرأته في كتب كثيرة ككتاب المقريزي وحسن المحاضرة للسيوطي والطبقات للشعراني وهذا غير الكتب المختصة بترجمته وحكاية مناقبه ككتاب الجواهر السنية لعبد الصمد وكتاب يونس المعروف بأزبك الصوفي وغير ذلك وهذه نبذة من ترجمة امره على سبيل الاجمال

هو ابو الفتيان الملثم الشريف العلوي سيدي السيد احمد البدوي ابن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابي بكر بن اسماعيل بن عمر بن علي بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيي بن عيسى بن علي الهادي ابن محمد الجواد بن حسن العسكري بن جعفر بن علي الرضا ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بن الامام علي بن ابي طالب بن عبد

المطلب جد رسول الله صلّى الله عليه وسلم فهو يلتقي نسبه معه صلّى الله عليه وسلم في جده الاقرب عبد المطلب بن هاشم

نسب كأن عليه من شمس الضحى
نوراً ومن فلق الصباح عمودا

وكان سلفه كما قيل قد خرجوا من مكة حين قدم اليها الحجاج بعساكر الشام من طرف عبد الملك بن مروان الاموي لقتال عبد الله ابن الزبير فغلب الحجاج على بن الزبير وصلبه وجعل يتسلط على الاشراف فرحل منهم خلق كثير فكان ممن رحل الشريف محمد الجواد ابن حسن العسكري احد اجداد السيد البدوي جمع بني عمه ومن يعز عليه من قومه وخرج بهم من مكة فساروا وصاروا يتنقلون من بلد الى بلد حتى دخلوا بلاد المغرب سنة ٧٣ من الهجرة فاستوطنوا مدينة فاس واحبهم اهلها وتزوجوا منها واقاموا بها ما شاء الله تعالى وفيها ولد ابراهيم بن محمد الجد الادنى للسيد وتزوج بابنة اخي السلطان بها وقتئذٍ فأولدها عليًا والد السيد وغيره فلما كبر الشريف علي بن ابراهيم تزوج من اكابر الناس واهل الحسب فاطمة بنت محمد بن احمد بن عبد الله بن مدين ابن شعيب ام السيد فاولدها ثلاثة اولاد وثلاث بنات وكان اخر اولادها سيدي احمد البدوي رضي الله عنه ولد في زقاق الحجر بمدينة فاس سنة ٥٩٦ من الهجرة ثم رحل به ابوه علي بن ابراهم مع سائر اولاده واهله سنة ٦٠٣ هجرية

مريد الحجاز للحج فمر في طريقه بمصر واقام معهم بها مدة ثم سافر بهم الى الحجاز فحجوا سنة ٦٠٧ واقاموا بمكة وكان عمر سيدي احمد البدوي احدى عشر سنة وعرف من بين اخوانه بالبدوي من كثرة ما كان يتلثم ولبس لثامين لا يفارقهما وكان يعرف في صغره باحمد الزاهد واخذه تحت كنفه اكبر اخوته حسن بن علي واقرأه القرآن العظيم فحفظه وجوّده وتفقه على مذهب الامام الشافعي محمد بن ادريس رضي الله عنه واشتهر في مكة بالشجاعة والفروسية ثم انه حدثت له حال في نفسه فتغيرت احواله ولزم الصمت والعبادة واستمر مقيمًا بمكة الى ان مات ابوه سنة ٦٢٧ هجرية ثم سار منها مع اخيه حسن في شهر ربيع الاول سنة ٦٣٣ راحلاً الى العراق ودخل بغداد وجال في البلاد ولقي اكابر الاقطاب والعلماء العارفين ثم عاد اخوه المذكور الى مكة ولحق به هو فقدم مكة ثانيًا ولزم الصيام والقيام بها الى ان رحل منها الى مصر ونزل ناحية طنطا في رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٣٧ فدخل دار شخص من مشايخها يعرف بابن شحيط فصعد الى سطح داره فاقام به لا يفارقه لا صيفًا ولا شتاء مدة طويلة واعوامًا كثيرة وكان له امامان يصليان به وكان اذا جن الليل يقرأ القرآن الى الصباح ولم يزل هناك الى ان توفي رضي الله عنه يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاول سنة ٦٧٥ وعمره ٧٩ سنة عَدَدُ جمَّلْ قولِنا (المَدَد) وكان طويلاً غليظ الساقين عبل الذراعين اكحل العينين كبير

الوجه عظيم الوجنتين ولونه بين البياض والسمرة وكان في وجهه ثلاث نقط من اثر الجدري واحدة في خده الايمن واثنتان في الأيسر اقنى الانف على انفه شامتان من كل ناحية شامة اصغر من العدسة وكان بين عينيه جرح موسى جرحه به ولد اخيه الحسين في الأبطح حين كان بمكة في صغره وكان في حياته معظمًا معتقدًا عند الناس محبوبًا فيهم مشهورًا في الافاق تعلوه هيبة ووقار وكان الملك الظاهر ابو الفتوحات بيبرس البندقدار يعتقده ويبالغ في تعظيمه وكان السيد قد اخذ طريق الصوفية عن الشيخ عبد الجليل بن الشيخ عبد الرحمن النيسابوري وكان هذا الشيخ يجتمع على اخيه الشريف حسن فلما كبر سيدي احمد جمعه عليه فالبسه خرقة التصوف واخذ عليه العهد كما تلقاه عن مشايخه واحدًا عن واحد الى انس بن مالك الصحابي رضي الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان ياخذ الشيخ على مريده العهد والبيعة على الطاعة والمتابعة لكتاب الله وسنة رسوله والمحبة لله ولرسوله ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويكون له عونًا على العلم مرشدًا له في الاعمال والاخلاق وسائر الاحوال فيكون الشيخ للمريد كالمربي للطفل والوالد الناصح الشفيق للولد المطيع وقد اتخذ سيدي احمد الخرقة الحمراء شعاره وشعار اتباعه وقال لخليفته سيدي عبد المتعال أعلم اني اخترت هذه الراية الحمراء لنفسي في حياتي وبعد مماتي وهي علامة لمن

يمشي على طريقتنا من بعدي فقال له سيدي عبد العال فما شروط من يحملها قال شرطه ان لا يكذب ولا يأتي بفاحشة وان يكون غاض البصر عن محارم الله طاهر الذيل عفيف النفس خائفاً من الله تعالى عاملاً بكتابه ملازماً للذكر دائم الفكر وقد ورد في صحيح الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس حلة حمراء وورد ايضاً انه قدم لواء بني سليم يوم فتح مكة على الالوية وكان احمر واما خلفاؤه وتلامذته واصحابه الذين اجتمعوا به على السطح فسموا السطوحية فكثير جداً أكبرهم خليفته الشيخ عبد العال وهو صاحب الثوب الأحمر الذي يلبسه الخليفة في المولد في كل سنة وهو الذي بنى بمقام سيدي احمد البدوي المنارة ورتب السماط وتخلف بعد السيد فشيد اركان البيت وقصده النــاس للزيارة من الاقطار البعيدة الى ان توفي يوم السبت الموافق لعشرين خلت من شهر ذي الحجة سنة ٧٣٣ هجرية ودفن قريباً من قبة السيد ومنهم الشيخ علي البريدي وهو من أجل تلامذته ويقال انه كان قد ارسل اليه بهدية من طرف سلطان وقته فمال قلبه الى الشيخ واحبه ولزم مجلسه وانقطع اليه فلما مات دفن تجاهه وكان يقول لما اجتمعت بسيدي احمد رأيته في عيني اعظم حرمة من السلطان ولما نزل السلطان لسيدي احمد يزوره وجدني في خدمته فقال لي هنيئاً لك يا علي وتلامذته كثير جداً يطول تعدادهم واجتمع به من العلماء خلق

كثير منهم العلامة الشهير قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد سمع بشهرته وكثرة اعتقاد الناس فيه فمضى اليه وصعد اليه السطح فوجد رجلاً مغطى بثوب كالمغشي عليه فلما رآه قال في نفسه سبحان الله ما هذا الاعتقاد من الناس في هذا الرجل وما هذه الشهرة وليس فيه ما يوجب ذلك وما هو الاّ مجنون من المجانين فرفع اليه السيد رأسه وكشف وجهه وانشد

مجانين الا ان سر جنونهم
عزيز على ابوابه يسجد العقلُ

فلما كلمه عرف الشيخ قدره وعظمه واعتذر اليه وقبل يده

ويحكى ان ابن دقيق العيد قبل ان يجتمع به ارسل الى الشيخ عبد العزيز الديريني يقول له امتحن لي هذا الرجل الذي اشتغل الناس بامره واسأله فان وجدته من اهل العلم والفضل فاطلب لي منه الدعاء وارسل عرفني باحواله فمضى سيدي عبد العزيز الى طنطا وكان المتولي بها القاضي علاء الدين وكان خليفة الحكم العزيز فمضى اليه الشيخ عبد العزيز واخبره وسأل عن محل السيد فوصف له فمشى اليه واستأذن الشيخ عبد المتعال فاذن له فصعد الى السيد وسلم عليه فرد عليه السلام وساله ما شاء الله من المسائل فاجاب عنها باحسن جواب وقال سلني عما شئت فاني اجيبك فعظم في عينه واعتذر له وارسل الى قاضي القضاة يعلمه وكان الشيخ عبد العزيز بعد ذلك اذا سئل عن السيد يقول

هو بحر لا يدرك له قرار ومما نقل عن السيد البدوي يرويه عن الحسن البصري قال ست مسائل من جواهر الحكمة اولها من لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة الثانية من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علمه الثالثة من لم يكن عنده سخاء لم يكن له في ماله نصيب الرابعة من لم يكن عنده شفقة على عباد الله لم يكن له شفاعة عند الله تعالى الخامسة من لم يكن عنده صبر ليس له في الامور سلامة السادسة من لم يكن عنده تقوى ليس له منزلة عند الله تعالى قال في الجواهر السنيه ولما توفي السيد رضي الله عنه عظموا قبره وبنوا عليه وسموه وقام بامر تلامذته من بعده صاحبه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة السيد وعمر بعده طويلاً نحو سنة ٥٨ واشتهر اتباعه بالسطوحية وحدث لهم بعد مدة عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوداً يقصد من النواحي البعيدة (انتهى)

المسامرة التاسعة

الموالد والاعياد والمواسم

ويؤخذ من تعبيره بالمولد النبوي ان اصل المولد المعتاد عمله للسيد البدوي مولد للنبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل عنده وقد

كانت وفاة السيد رضي الله عنه في ١٢ ربيع الاول كما مر وهو وقت عمل المولد الشريف مولد النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت من بعض المشايخ في اصل عمل الموالد للسيد ان السيد لما توفي كان كثير من تلامذته متفرقين في البلاد لانه كان في حياته اذا جاءه المريد بواسطة الشيخ عبد المتعال نظر اليه وامره ان يقيم في بلدة من البلاد يعينها له فلما سمعوا بوفاته حضروا باتباعهم ومن معهم الى طنطا ليعزوا فيه خليفته الشيخ عبد المتعال وكانت طنطا وقتئذٍ قرية صغيرة فلم تكن تسع هذه الجموع فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير واقاموا في تلك الخيام ثلاثة ايام فلما ارادوا الرحيل شيعهم الشيخ عبد المتعال وودعهم فقالوا له هذه عادة مستمرة ان شاء الله تعالى نحضرها هنا كل عام في هذا الميعاد الى ما شاء الله فلما جاء العام القابل حضروا للميعاد ثم حضروا في الذي بعده واستمرت هذه العادة فنشاء من ذالك المولد الكبير وكان في الاصل ثلاثة ايام وزاد بعد ذلك الى ان وصل الى ما هو عليه الان كما ان منشاء ركب الخليفة الذي يكون في اخر المولد هو ركوب الخليفة الشيخ عبد المتعال مع جماعته لتوديع هولاء المشايخ ثم صار يزاد فيه الى ان وصل الى ما وصل ثم ان احد المشائخ المتميزين الى السيد وهو الشيخ الشرنبلالي حضر مرة في غير وقت المولد الى طنطا لزيارة السيد مع تلامذته وجماعته فاقام بها بعض ليال كان يشغلها هو وجماعته بالاذكار والعبادات ومن عادة

الفقراء واصحاب الطرق انهم متى وقع لهم الشيء مرة اتخذوه عادة وواظبوا عليه فاتخذ الشيخ الشرنبلالي المذكور ذلك عادة عاودها بعد ذلك سنة بعد سنة فاستمرت ونشاء عنها المولد الصغير وكان يعرف بالمولد الشرنبلالي باسم هذا الشيخ وكذلك كان منشاء المولد الرجبي فان بعض المشائخ وهو الشيخ الرجبي بدا له ان يجدد العمامة الموضوعة على مقام السيـد البدوي فاتخذ لها مقداراً كافياً من الشاش المصبوغ باللون الاخضر وحضر به مع جماعته ومريديه الى طنطا ودخلوا به في ركب وموكب من المشائخ والمريدين والفقراء الى مقام السيد فلفوا الشاش الجديد في محل القديم واتخذوا ذلك عادة استمرت كذلك فنشاء عنها المولد المعروف بالرجبي باسم الشيخ المذكور ويعرف ايضاً بمولد لف العمامة تجدد فيـه العمامة المذكورة في كل عام ويوتى بالشاش الذي يتخذ لها في ركب عظيم يوصل به الى المقام فهكذا كان منشاء هذه الموالد فكانت تكرر كل سنة في الميعاد الذي ابتدئت فيه وقررت مواعيدها باعتبار الشهور القبطية لا العربية لكي لا يتغير ميعاد كل منها عن وقته من فصول السنة رعاية لاوقات النيل والري حتى لا يقع المولد في وقت قلة الماء بتلك الجهة او كثرته وانغمار الارض به للري ولمثل هذه الاسباب قدمت واخرت مواعيدها في بعض الاوقات بتنبيهات واوامر من الحكومة رعاية لمقتضيات المصالح والاحوال والجاري عليه الان ان يكون المولد الكبير في اول شهر مسري

والمولد الصغير في اول شهر برمودة والمولد الرجبي قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم ولا يكون في هذا المولد ما يكون في غيره من البيع والشراء فهو مولد مختصر بالنسبة لغيره كما يعرفه من رأى هذه الموالد ولا اريد ان اطيل عليك بصفتها ووصف ما يكون فيها فلعلك رايتها او بعضها في اثناء اقامتك بهذه البلاد

فقال الانكليزي نعم حضرت مولد السيد غير مرة وشاهدت ما يكون فيه من كثرة البيع والشراء وفرط الزحام واجتماع الناس وتواردهم من الافاق فرايت امرًا عظيمًا وموسمًا جسيمًا فكنت اتذكر به ما كان لقدماء المصريين مثل ذلك من عوائدهم في اعيادهم وموالدهم لاسيما ركبة الخليفة التي تكون في اخر المولد فانه بتلك العوائد اشبه منه بالعادات الشرعية والامور الدينية الاسلامية وقد كان لقدماء المصريين مثل هذه الموالد اعياد ومواسم كثيرة متنوعة لهم فيها عوائد مختلفة لم يذكرها احد من قدماء المؤرخين الاَّ هيردوط الشهير الذي ورد على مصر في قديم الايام فتكلم في مؤلفاته على بعض احوالها وعادات اهلها وتكلم في ضمن ذلك على بعض هذه المواسم وما كان يعمل فيها واما غيره من المؤرخين السابقين فلم يتكلموا على شيء من ذلك ولهذا لم يصلنا من علم احوالها الاَّ القليل والمواسم التي تكلم عليها المؤرخ المذكور كانت تعمل في مدن متفرقة في جهات مصر من

البلاد البحرية والقبلية وكانت تلك المواسم دينية وسياسية وكان يحضر في كل منها الملك او من ينوب عنه من عائلته وكذا الملكة وخلق كثير من الناس فهي اشبه بالاسواق التي كانت للرومانيين اخذوها عن اليونان واخذها اليونان عن المصريين فالى المصريين ينسب احداثها كما ينسب اليهم احداث كثير من الامور النافعة للامم كما افاده المؤرخ المذكور ومن المدن التي كان يحتفل فيها لهذه المواسم مدينة بوباست التي اثرها الان تل بسطة قرب مدينة الزقازيق من اقليم الشرقية ومدينة سايس وهي الان صا الحجر باقليم الغربية ومدينة هيليوبوليس التي تسمى الان عين شمس (وهي المطرية) ومدينة بوتو واثرها الان تلال موجودة في ساحل البحر الملح مما يلي بحيرة البرلس ومدينة كان اسمها بابرميس والان لا يعلم محلهـا ولا اين كانت من الجهات البحرية او القبلية

وكان يجتمع في كل من هذه المواسم خلق كثير ربما كان اكثر مما يجتمع الان في مولد السيد وكان لهم غير هذه مواسم اخرى كبيرة تعمل على راس كل ثلاثين سنة مرة وكان يحصل لمن تقع في زمنه من الفراعنة فخر عظيم وصيت كبير بسببها وكان يصدر عنهم في هذه المواسم كثير من الفحش والفجور والمنكرات

وجميع هذه المواسم كانت مرتبطة باوقات الزراعة وحركة الشمس في منطقة البروج وبها تتعين ثلاثة فصول الزراعة في كل

واول اعيادهم كان عند شروق كوكب الشعرى في اشعة الشمس ووقته في اول شهر توت وهو اول شهورهم وفيه كانت تذبح سمانة قرباناً الى (ايزيس) المقدسة عندهم ويخرج القسيس من معبد مدينة ابو هيا كل مقدسيهم محمولة في هوادج على اعناق جماعة من القسس يختلف عددهم من اثنى عشر الى ستة عشر بالنسبة لثقل الهيكل وهكذا كان يحصل في جميع المواسم

وفي هذا الشهر بعينه بعد ان يصير القمر بدراً ببعض ايام كان يعمل موسم طوط ويقال انه ادريس عليه السلام وان هذا الشهر شهره واسمه ماخوذ من اسمه

وكان من العادة في هذا الموسم اكل التين وشرب العسل ويقال بعد اكله ما احلى الحق

قال الشيخ التيء بالشيء يذكر قد كان لقبط مصر بعد قدماء المصريين في هذا الشهر عيد عظيم وموسم كبير من مواسم لهوهم ومواقيت انسهم وهو عيد النوروز كانوا يشعلون فيه النيران ويرش بعضهم بعضاً بالماء واستمر ذلك جارياً في مدد الملوك الاسلاميين ايضاً وكان يمنع احياناً ويرخص فيه احياناً وكان للخلفاء الفاطميين اعتناء به ورسوم جارية فيه . قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٨٤ يوم الثلاثا رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت وتوت اول سنتهم وقد كان بمصر في الايام الماضيه والدولة الخالية (يعني دولة الفاطميين) من مواسم بطالاتهم

ومواقيت صلاتهم فكانت المنكرات ظاهرة به والفواحش صريحة فيه ويركب فيه امير موسوم باميرالنوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبه ويرسم على دور الاكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج التفاؤل ويقنع باليسور من الهبات ويجتمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة (احد قصور الخليفة) بحيث يشاهدهم الخليفة وبايديهم الملاهي وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزر شربًا ظاهرًا بينهم وفي الطرقات ويتراش الناس بالماء . وبالماء والخمر . وبالماء ممزوجًا بالاقذار . وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته فاما ان يفدي نفسه واما ان يفضح ولم يجرِ الحال على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات وقد احيا المنكرات في الدور ارباب الخسارات وقال في متجددات سنة ٥٩٢ وجرى الامر في النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالانطاع وانقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به (اه) كلامه

وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها الى ان كانت اعوام بضع وثمانين وسبعمائة وامر الدولة بديار مصر وتدبيرها الى الامير الكبير برقوق قبل ان يجلس على سرير الملك ويتسمى بالسلطان فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة فانكف الناس عن اللعب في القاهرة

وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعد ما كانت اسواق القاهرة تتعطل في يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور وقلما انقضى يوم نوروز الاّ وقتل فيه قتيل او اكثر ثم بطل ذلك وقال بعضهم يذكر ما كان يحصل في النوروز من اشعال النار ورش الماء

كيف ابتهـاجك بالنوروز يا املي
وكل ما فيـه يحكيني واحكيه
فتارة كلهيب النـار في كبدي
وتارة كتوالي دمعتي فيـه

وكان للقبط في هذا الشهر عيد اخر وهو عيد الصليب يعمل في سابع عشره وسبب حدوثه عندهم ان هيلانة ام قسطنطين كانت قد سارت الى بيت المقدس في طلب اثار المسيح عليه السلام وبناء الكنايس واقامة شعائر النصرانية فيقال ان الاسقف مقاريوس دلها على خشبة زعم ان المسيح صلب عليها وكان ذلك في اليوم المذكور فاتخذوه عيداً وسموه عيد الصليب وكان لهذا العيد بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بني وائل بظاهر فسطاط مصر ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من انواع المحرمات ويمرلم فيه ما يتجاوز الحد فلما قدمت الدولة الفاطمية الى

ديار مصر وبنوا القاهرة واستوطنوها وكانت خلافة العزيز بالله امر في يوم عيد الصليب سنة ٣٨١ فمنع الناس من عادة الخروج الى بني وائل ثم بطلت تلك العادة وكان للخلفاء الفاطميين مزيد عناية باول ليالي السنة ليلة اول المحرم في كل عام وكان لهم باول يوم من السنة ايضاً عناية كبيرة فيه يركب الخليفة بزيه المفخم وهيئته العظيمة وتفرق فيه الدنانير ويفرق من السماط الذي يعمل بالقصر لاعيان ارباب الخدم من ارباب السيوف والاقلام بتقرير مرتب خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلواء وخبز وقطع منفوخة من سكر وارز بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يجل وصفه وينبسطون بما يصل اليهم فمن تامل في هذه الاعياد وجدها اشبه شيء باعياد قدماء المصريين

قال الانكليزي نعم وربما كان بعضها مأخوذاً منها ومن جملة اعياد قدماء المصريين عيد كان يعمل في سادس يوم من شهر بابه وهو عيد حمل ايزيس بولدها هاربوكرات يشيرون بذلك الى وضع بذور الزرع في الارض بعد نزول ماء النيل عنها

وفي هذا الموسم كان يوضع في عنق صورة ايزيس طلسم يسمونه الصوت الصحيح على قول وكلمة الحق على قول اخر

وبعد هذا الموسم كان يعمل في الثامن والعشرين من شهر بابه المذكور موسم عصا الشمس وكانوا يعنون بذلك تقدم الشمس

سيف العمر ونقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كانها احتاجت الى عصا تتوكأ عليها وكان يعمل في هذا الموسم موكب تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يدورون بها حول المعبد سبع مرات وكانوا يعنون بذلك ان ايزيس تبحث على جثة اوزريس زوجها واعظم بمواسم هذا الشهر موسم (امون را) وكان يعمل في مدينة بابرميس في ثامن عشر الشهر وكان من عادتهم فيه ان القسس في الليلة المتقدمة عليه تاخذ هيكل قديسهم وتضعه في برزخ مذهب في موضع مقدس لم قريب من المعبد وفي الغد يقربون القرابين وبعد الفراغ منها قرب زوال الشمس يقيم بعض القسس عند الهيكل وباقيهم يقفون عند باب المعبد وبأيديهم العصي والمساوق لقصد منع ادخال الهيكل المذكور في المعبد فاذا جاء الوقت المحدود حمل القسس الهيكل واحضروه الى الباب ومعهم خلق كثير بالعصي والمساوق لادخاله المعبد برغم الواقفين به لمنعهم فاذا جاؤا وجدوا باب المعبد مقفلاً فيقع بينهم وبين من به من القسس وغيرهم مضاربة وقتال كثير ويجرح فيه كثير من الناس ويسيل دمهم ولا ينقطع القتال من بينهم الا بدخول الهيكل في المعبد واستقراره به سيف مكانه وزعمت القسس انه لم يكن يحصل لاحد ضرر من تلك الجروح كما نقله هيردوط المؤرخ

وكان المصريون يتبهون بهذه الاحوال فيما يزعمونه الى ان

هوروس بن ايزيس اراد الدخول على امه ليزني بها فمنعه حراسها عن مرامه فجمع احبابه واصحابه حتى يغلبهم ويصل الى غرضه وسرّ ذلك هو ان حرارة الشمس المعبر عنها بهوروس تريد ان تدخل الارض المزروعة وهي المعبر عنها بايزيس لتخصبها وفي سابع عشر شهر هاتور كان يعمل عيد وقوع اوزريس في قبضة تيفون عدوه والقائه في النهر ولذا كان هذا اليوم عندهم معدودًا من ايام النحس وفيه يكون ماء النيل قد انخفض وانحسر عن ارض الزراعة وانحصر في مجراه بين حافتيه وكانت مدة هذا الموسم اربعة ايام كان فيها المصريون يدورون بثور قرونه مذهبة وعلى ظهره قطعة قماش من القطن او الكتان مصبوغة باللون الاسود

فكانوا يشيرون بالثور الى اوزريس وبقطعة القماش المذكورة الى ارض مصر لان لونها بعد انحسار النيل عنها يكون اسود

وكان المصريون في هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر اولاً لنقص النيل وثانيًا لغلبة الريح الجنوبية وهي المكنى عنها بتيفون عندهم على الريح الشمالية في ذلك الوقت وثالثًا لتغير طول النهار بطول الليل ورابعًا لتجرد الارض من الخضرة

وكان الموسم المذكور يعمل في المدن المعروفة الان باسم بوصير فانها كان فيها معابد اوزريس ومن اسمه اخذ اسم هذه المدن ببعض تحريف وتغيير

وكان الحزن في هذا الموسم عمومياً عند النساء والرجال لحزن ايزيس على زوجها اوزريس وكانوا يكثرون فيه الصلاة والصيام والقربان فيه من فحول البقر ومن عادتهم ان لا يؤخذ من القربان بعد ذبحه الا الجلد والامعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل واما ما عدا ذلك من الجثة فيملا من الدقيق والعسل مع الزيت والتين والافاويه والعقاقير الطيبة الرائحة وتحرق بالنار ويزيدونها اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليها

وفي ذلك الوقت تكثر النساء من الصياح والنواح والبكاء والعويل ويلطمن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد ذلك ياكل الناس ما اخذوا من لحوم القرابين كما مر ذكره ويتفرقون

وكان يحضر هذا الموسم بعض من بمصر من اليونان ويعملون اعمالاً فظيعة وعادة شنيعة وهي ان يجرح الرجال بعضهم بعضاً جروحاً كبيرة وتشق النساء افخاذهن بحجارة حادة حتى يخرج الدم اظهاراً لشدة الحزن والجزع ثم ابطل المصريون هذه العادة قبيل خروج العبرانيين فان موسى عليه السلام كان قد منع ذلك وحرمه على قومه والظاهر ان هذه العادة قديمة فانها وجدت عند اهل امريكا والهند ايضاً

وفي الثالث والعشرين من الشهر المذكور كان موسم دفن اوزريس يشيرون بذلك الى انحباس النيل في مجراه ومبدا زراعة

الخريف

وفي اليوم الاول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم في مدينة اسنا لتقديسهم بها

ومن رسومهم في هذا الموسم أن يظهروا جميع اواني المعبد وَحَليه ويتقربوا بالخبز والنبيذ وغيره من المشروبات وبالأوزّ وفحول البقر وبشائر المزروعات جميعها على اختلاف انواعها

فقال الشيخ هذا الشهر كان فيه للقبط عيد عظيم يسمونه عيد الميلاد ويقولون انه اليوم الذي ولد فيه المسيح عليه السلام وكان يعمل بمصر في التاسع والعشرين من كيهك فيحيون ليلته وسنتهم فيه كثرة الوقود بالكنائس وتزيينها وكان يفرق فيه ايام الدولة الفاطمية ارباب الرسوم من الامراء والكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية وكذا الجلاب والزلابيه والسمك وكان يباع في هذا الموسم من الشموع المزهرة بالاصباغ المليحة والتماثيل البديعة باموال لا تحصر فلا يبقى احد من الناس اعلاهم وادناهم حتى يشتري من ذلك لاولاده واهله وكانوا يسمونها الفوانيس واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق بالحوانيت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة ويتنافس الناس في المغالاة في اثمانها حتى ربما بلغ مصروف الواحدة منها الخمسمائة والالف درهم ثم بطل ذلك في جملة ما بطل من عوائد الترف كما بطلت رسوم قدماء المصريين فهل تعلم من اعيادهم القديمة غير ما

ذكرته

قال الانكليزي كان لهم اعياد ومواسم كثيرة منها موسم كان يعمل في السابع من شهر طوبه وهو مولد رجوع ازيس من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير يرسم فوقه صورة فرس البحر مسلسلاً في القيود وكان برخص لاهل مدينة عين شمس في اكل لحم التمساح في هذا اليوم خاصة

وبعد هذا الموسم بايام كان يعمل موسم لتعويض مذاكير اوزريس بمثلها من الخشب والظاهر انهم كانوا يشيرون بذلك الى غرس الاشجار فانه يكون بعد هبوط النيل

وفي تاسع عشر هذا الشهر كان يخذ في مدينة صا الحجر عيد كبير مشهور بالوقدة التي كانت تعمل فيه وكان المصريون يشيرون بذلك الى زوال الظلمة التي كانت عامة للارض بموت اوزريس وكان هذا العيد معتادا في بلاد الصين والعجم ايضاً كما كان عند المصريين

وكان لهم في هذا الشهر موسم اخر لتجدد تجسد اوزريس فكان القسس في الليل يذهبون الى مصب النيل في البحر في موكب عظيم وخلق كثير حاملين هيكل اوزريس مزيناً بجميع ما يمكن لهم من انواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب يملئونه من النيل في وقت معين وعند ذلك يقول القسيس وجميع الحاضرين بصوت عال ها هو جسد اوزريس قد عثرنا به

وكأنهم كانوا يشيرون بذلك الى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال يصنعه من الطين معجوناً بماء النيل مخلوطا ببعض الاشياء الزكية

فقال الشيخ قد ذكرت بما ذُكر ما حكاه مؤرخوا الاسلام من عوائد القبط في عيد الغطاس وما كان يقع فيه من الوقدة وغيرها وكان يعمل بمصر في حادي عشر هذا الشهر قال المسعودي ولليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند اهلها لا ينام الناس فيها وهي ليلة الحادي عشر من طوبه قال ولقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج امير مصر في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطوف بها وقد امر فاسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل الوف من المسلمين ومن النصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس اكثرهم في النيل ويعتقدون ان ذلك امان من المرض (انتهى)

وكانت هذه العادة في زمن الملوك السالفة يرخص فيها حيناً

وتمنع حيناً

قال المسيحي في تاريخه من حوادث سنة ٣٦٧ منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهي ونودي ان من عمل ذلك نفي من الحضرة

وقال في سنة ٣٨٨ كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والاسرة في عدة مواضع بشاطئ النيل ونصبت اسرّة للرئيس فهد بن ابرهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان واوقدت لهُ الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع اهله يشرب الى ان كان وقت الغطاش فغطس وانصرف

وقال في سنة ٤٠١ وفي ثامن عشر جمادى الاولى وهو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس فلم يغطس احد منهم في البحر ا

وقال في حوادث سنة ٤١٥ وفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة كان غطاس النصارى فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره ونزل امير المؤمنين الظاهر لقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودي ان لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في النيل وامر بان توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيراً وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقسسوا هناك طويلاً الى ان غطسوا فبين كثير من هذه الرسوم . ورسوم القدماء في اعيادهم ومواسمهم مناسبة ظاهرة

قال الانكليزي نعم وكان من مواسم قدماء المصريين عيد مشاهدة ايزيس لاوزريس وكان في شهر امشير فان هذا الشهر وقت ظهور الزراعة الخريفية فوق وجه الارض

وكان لهم في شهر برموده عدة آعياد احدها عيد تطهير ايزيس قبل البذر

الثاني عيد الخصب وكان وقته في سادس عشر هذا الشهر وفي هذا اليوم كان يجعل في هيكل اوزريس مذاكير مصنوعة من الخشب على صورة اعضاء التناسل للانسان وكانت احيانًا تصنع من غير الخشب

وفي الموكب الذي يعمل في هذا الموسم كانت النساء تحمل مثل ذلك وتدور به في الازقة

وفي الغد من اليوم المذكور عيد دخول اوزريس في القمر يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال وكان المصريون يسمون القمر ام الدنيا

الثالث في ثامن عشر الشهر المذكور وهو موسم ولادة هوروس

الرابع موسم قدستهم نيت في مدينة بوباست ومحلها الان تل بسطه واصل هذا الاسم بوباست وهو احد اسماء نيت المذكورة ولها اسماء والقاب كثيرة منها هذا ومنها ايزيس وديان ايضًا والظاهر انها هي دميانه او جميانه التي يعمل لها الى الان في جهة البرية

لولد المشهور في شهر برمودة المذكور وان لفظ فمياته او جميانه
صله لفظ ديان السابق ذكره وهذا المولد الباقي الى الان هو مولد
بيت القديم وهو عيد حصاد الزروع وكان يبتدأ به في خامس يوم
من برموده ويجتمع له خلق كثير من النساء والرجال كما يكون
لان في مولد جميانه

وكان قدماء المصريين يأتون هذا المولد من سائر اقاليم
مصر في مراكب يكترونها لذلك ويكون النساء مع الرجال في
المراكب ومعهم الطبول والدفوف والمزامير وغير ذلك ويكثرون
في طريقهم الغنا والرقص والفحش وكلما مروا ببلدة خاطب من في
المركب من النساء كل من رأينه في البر منهن بالفاظ قبيحة وكلام
فظيع ويضحك الجميع من ذلك وكان من في البر منهن بعد
ان يرقصن ويغنين ويتكلمن بما يخطر ببالهن من القبائح يرفعن
ذيولهن ويظهرن من اجسامهن ما لا يجوز الحياء ذكره وينصرفن
وكذلك كان فعلهن عند زيارتهن للثور ابيس وكان الرجال
لا يستقبحون منهن هذه الامور المغايرة للادب والحياء وكان
يستهلك في هذا الموسم من النبيذ قدر ما يستهلك في باقي ايام
السنة كلها وكان يجتمع فيه قريب من سبعمائة الف من الناس
على ما حكاه هيردوط المؤرخ وكانوا جميعاً يفعلون ما ارادوا من
اللذات والشهوات ولا حرج عليهم فيما كانوا يأتونه وقتئذ مهما
فسقوا او فجروا او خرجوا عن جميع حدود الادب

فقال الشيخ كأن ما كان معتاداً في هذه الاعياد من الفحش والتهتك سرى الى الاعصار الاخيرة فجرى فيها نظيره من المنكرات والموبقات فقد كان يحصل في القرون المتأخرة في الشهر الذي يتلو هذا موسم كبير يكون فيه شيء كثير من ذلك وهو موسم عيد الشهيد وكان يعمل بمصر في ثامن بشنس القبطي

وكانوا يزعمون ان النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي النصارى فيه تابوتاً من خشب فيه أصبع من اصابع اسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل اليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة اهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغنٍ ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغيّ ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم كثير لا يحصيهم الا خالقهم وتصرف اموال لا تحصر ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق وتثور فتن وتقتل اناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم ما تزيد قيمته على مائة الف درهم وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد فلاحي شبرى دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ولم يزل الحال كذلك الى سنة ٧٠٢ فمنعه الامير بيبرس الجاشنيكر وشدد في منعه وكان عنده رجل كاتب من

القبط يعرف بالتاج بن سعيد الدولة قد احتوى على عقله
واستولى على جميع اموره فمشت اليه القبط في ذلك فتكلم مع
مخدومه بيبرس وقال له متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل ابداً
ويخرب اقليم مصر ونحو ذلك من التمويه وتنميق المكر فثبت
بيبرس واصر على رأيه واستمر في منعه وقال للكاتب المذكور
ان كان النيل لا يطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله
سبحانه هو المتصرف فيه يطلع فبطل العيد من تلك السنة ولم
يزل منقطعاً مدة ست وثلاثين سنة فلما كانت سنة ٧٣٨ وعمّر
الملك الناصر محمد بن قلاون الجسر في بحر النيل ليرمي قوة
التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزه فطلب منه الامير يلبغا
اليحياوي والامير الطنبغا الماردينى ان يخرجا الى الصيد ويغيبا
مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في حبهما
واراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد
فيكون تفرجكما عليه انزه من خروجكما الى الصيد وكان قد
قرب اوان العيد المذكور فاعاده في وقته واجتمع له الناس من
كل جهة وتجاهروا بانواع المنكرات توسعاً خرج عن الحد
وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه واستمر عمله بعد ذلك الى سنة
٧٥٥ فمنع وتقرر ابطاله وخرج الحاجب والامير علاء الدين علي
بن الكوراني والي القاهرة الى ناحية شبرى فهدمت كنيستها
واخذ منها الاصبع في صندوق واحضر الى الملك الصالح واحرق

بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من وقتئذ وانقطعت تلك العادة التي ذكرني بها ما قد حكيته من رسوم القدماء فان الحديث ذو شجون والكلام يجر بعضه بعضاً فارجوك ان تتم لي ما تعلم من هذه العادات والاعياد فاني ما سمعت بها ولا ظننت انها كانت معتادة في تلك الايام العتيقة

قال الانكليزي كان لهم في هذا الشهر اعني شهر بشنس عيد حمل ايزيس بهربوكرات وكان لهم في شهر بؤنه عيد يتقربون فيه بفطير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك الى تغلب اوزريس على تيفون والعادة ان ابتداء النيل في الزيادة يكون في هذا الشهر فكانوا يزعمون ان زيادة ماء النيل في هذا الشهر انما هي مما سكبته ايزيس من الدموع في بكائها على اوزريس زوجها وهذا العيد هو الذي ذكر هيرودوط المؤرخ انه مولد الشمس الذي كان يعمل في مدينة عين شمس فانه في هذا الاوان يحصل الانقلاب الصيفي وهو عبارة عن ابتداء الشمس في النزول بعد انتهائها في الصعود وقد حافظ القبط على عادة الاحتفال لليلة النقطة التي تكون في الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر

وكان لهم موسم في شهر مسرى وهو مولد هربوكرات وكان يعتبر عندهم للسكوت وكانت اشارته حلقة صغيرة توضع على الفم ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل ومن عادتهم في هذا الشهر

قتل كلاب شقر وكان المصريون والرومانيون واليونان يتقربون بذلك الى كوكب الشعرى في اليوم الثاني من مسري وكان لهم عيد كبير يعمل في مدينة بوتو ولكن سكت عنه المؤرخون ولم يبينوا وقتـه وانما ذكروا انه كان لاوزريس وايزيس اوبوتو وكان يتقرب في هذا الموسم بالخنزير ولم يكن الاكل من لحمه مباحًا عند المصريين الا في هذا الموسم فانهم كانوا يقولون بنجاسته ومن مسه كان يلزمه ان يغتسل في الحال حتى ان المشتغلين بتربية هذا الحيوان كانوا يمنعون من دخول المعابد وكانوا لا يتزوجون الا من بعضهم ولا يعلم سبب الترخيص في الاكل من لحمه في هذا الموسم ولا ذكره هيردوط المؤرخ

وكيفية تقريب القربان منه ان ياخذوا طرف الذنب والطحال والبطن ويفوقها الدهن ويحرقوا الجميع وكان الفقراء يصنعون صورة من الطين ويحرقونها

فهذا غاية ما وصلنا من اعياد قدماء المصريين ومواسمهم التي جرّنا الى الكلام عليها ذكر موالد السيد البدوي واحتشاد الناس لها واجتماعهم فيها وما يكون بها من الاحوال والعادات التي في جملتها ما هو اشبه شيء بعادات قدماء المصريين فيما ذكرناه من موالدهم واعيادهم وقد رأيت بعض المشايخ يتكلم عليها ويذمها لما يحصل فيها من المخالفة للشرع ويتمنى ابطالها لذلك ورأيت بعض الناس يقول لو لم يكن فيها من المضرة

الا تعطيل من يكون بها من الناس عن اشغالهم ومصالحهم
المعتادة لكفى فما تراه انت ايها الاستاذ في ذلك

فقال الشيخ من نظر في الشيء من جهة من جهاته ولم يستقص جميع احواله وسائر خصوصياته فربما حكم عليه بالذم والمدح من تلك الجهة ولو نظر الى غيرها تغير حكمه وهكذا حال من حكيت عنه ممن تكلم في مولد السيد فانه نظر الى شيء ما يحصل فيه فحصر فيه نظره ووقف عليه خاطره فتكلم بحسبه ولو امعن النظر واجال الفكرة واستعمل الروية لقال غير ما سمعته منه فان مولد السيد وان كان قد يحصل من بعض الناس الذين يجتمعون فيه بعض امور تخالف الشريعة الشريفة كما لا ينكر وهذا هو الذي نظر اليه من حكيت عنه ولكن لا يحكم على الشيء في ذاته بحكم حالة واحدة من حالاته لا سيما اذا كانت له احوال كثيرة وانت تعلم ان كل وقت من الاوقات وكل بلد من البلاد وكل جيل من الاجيال لا يخلو من ان يقع فيه بعض امور تخالف الشرع والطبع ولا يحكم على عموم الناس او البلد او الوقت بحكم من يحصل منه ذلك وليس ما ذكر من هذه الامور المخالفة مخصوصاً بمولد السيد فانها تقع في كل موضع كما قلنا وليس المولد قاصراً عليها فانه يكون فيه ما لا يحصر ولا ينكر من الخيرات والاذكار والعبادات والحسنات والمبرات فلماذا نغمض عن الحسنة ونقصر انظارنا على السيئة

وفي هذا المولد ما لا يخفى على احد من المزايا والمنافع كمنفعة من يكتري منهم الدواب او المراكب او سكة الحديد للمضي اليه والانصراف عنه ومنفعة من يكون به من الفراشين والطباخين وغيرهم من ارباب الحرف والصنائع واصحاب الدور التي تكترى والاشياء التي تشترى وما يكون فيه من سعة التجارة فانا نرى كثيراً من التجار في طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون اداء ديونهم وقضاء بعض شؤونهم على هذا المولد وينتظرون لهذا الموعد لكثرة ما يكون فيه من البيع والشراء والاخذ والعطاء فينتفع البائع بثمن ما يبيعه والشاري بما يشتريه منه والكثير من اهل القرى ينتظرونه لشراء بعض ما يلزمهم في اثناء السنة مما لا يوجد في جهاتهم او لبيع ما يفضل عن حاجتهم من دابة او محصول زراعة او غير ذلك فهو سوق عظيم عمومي كسائر الاسواق العامة التي توجد في جميع اقاليم الدنيا من البلاد الاسلامية وغيرها حتى لقد سمعت انه يكون في بلادكم لسواق عامة تحضرها الناس من سائر الافاق وجميع الجهات فلولا ما فيها من المنفعة لما حرصوا عليها وهرعوا اليها فهذه هي المزية في هذا المولد مع غيرها مما ذكرناه وما لم نذكره فاندفع قول من يقول انه سبب للتعطيل وتبين ان ذلك القول من جملة الاباطيل ومن ذهب الى هذا المولد لا لقصد التجارة او نحوها من المقاصد فلا يخلو من ان ينتفع منه غيره فالمنفعة حاصلة على اي حالة واما فراغه من اشغاله وبطالته في ايام يسيرة فلا

ضير فيه ولا ضرر فانه ان كان خلوًّا من الاشغال في غير المولد فهو بطال في ذاته لم يحدث له المولد بطالة وإن كان في غير المولد عاكفًا على الشغل والعمل والكد والكدح كان له في المولد فسحة وتغيير هواء وصحة ونزهة وراحة يقبل بعدها على اعماله بنشاط جديد وشوق مستحدث وهمة مقبلة ونفس غير كليلة فيتعوض بذلك ما ضاع في ايام المولد فان النفوس البشرية اذا دام عليها الشغل واتصل الكد والعمل لحقها السأم والكلال والملل فلا بد من ترويحها في بعض الاحيان لتعود لحالة نشاطها وتسترجع ما فقدته من أنسها وانبساطها ولذا كان لكل امة من الامم وملة من الملل اوقات يستريحون فيها من اشغالهم ويتفرغون لرفاهة بالهم استرجاعا لنشاطهم وقوتهم ودفعًا لتعبهم وفترتهم فلا داعي لتمني ابطال هذه الموالد المستلزم ابطال ما يترتب عليها من الفوائد وقد أحدثت هذه السكك الحديدية من اسباب السهولة والسرعة والراحة في المضي الى المولد والانصراف عنه ما لا مزيد عليه وكان قبلها من يريد المولد يعاني في الذهاب اليه والاياب منه صعوبة ومشقة ويقضي في الطريق يومين فاكثر اذا سار من البر وجملة ايام اذا سافر من البحر ويعد ما يلزم للسفر من الزاد والذخيرة من قبل المولد بايام كثيرة حتى حدثت سكة الحديد فسهلت الصعب وقربت البعيد

المسامرة العاشرة

شتى

وقد كان المرحوم محمد علي الكبير تصور فوائد هذه السكة ومنافعها وعزم على انشائها ولكن بدا له بعد ذلك تركها وصرف النظر عنها لبعض امور تصورها على حسب الوقت والحال ثم عرض امرها من بعده على المرحوم عباس باشا فاستحسنها ولم يجد بها باسًا فصمم عليها وشرع فيها بالفعل من اسكندرية الى مصر فاستوجب مزيد الثناء والشكر من الناس عامة ومنا اهل هذا القطر خاصة فان هذا الامر النافع كان سببًا لجلب الثروة الى ارضنا وازدياد البركة في بلادنا ولكن قدر الله انه لا يتم في مدة حياته والذي تم في مدته ومشى فيه الوابور كان ما بين كفر الزيات والاسكندرية وبينما كان مهتمًا باتمامها عاجلته المنية فمات ولم يقسم له ان يركب فيها مع انه كان معتنيًا بامرها ليله ونهاره وهو الذي اتم قنطرة بنها التي يسير فوقها الوابور وكل من ولي الحكومة من بعده سعى في اتمام عمله وانجاح قصده وجد في اكماله فكمل سعيد باشا المرحوم ما ابتداه سلفه وانتهت في مدته السكة الى مصر القاهرة واخذت الوابورات في السفر بينها وبين الاسكندرية ولما راه وعلمه من كثرة فوائدها وزيادة منافعها انشأها

ايضاً بين سمنود وطنطا والزقازيق وبنها وكذلك بين القاهرة والسويس تسهيلاً لطريقها وترغيباً للانكليز في استبدال طريق راس العشم بطريق مصر فيما ينقل من بلادهم الى الهند من الناس والبضايع وغيرها لما في ذلك لمصر من الفائدة بمرورهم بها ونقل تجارتهم بواسطتها وقد كان ما يرد لمصر من ذلك ينقل الى السويس تارة في عربات تجرها الخيل وتارة على الجمال والدواب وكان ذلك امرًا مهمًا وشغلاً شاغلاً وكان يحصل منه مبلغ عظيم من الاجرة ويحصل في بعض الاوقات ضائعات كبيرة يترتب عليها خسارات كثيرة فعمل تلك السكة لمنع الصعوبة والخسارة وتسهيل السبيل لتلك التجارة فلم يزل حتى اتمها واكملها ثم لما ولي الحكومة الجناب الخديوي (اسمعيل باشا) اخذ في توسيع دائرتها والاستكثار منها فاستحدثها في الصعيد وفي جهات كثيرة من الاقاليم البحرية فزادت بركتها وكثرت حركتها حتى وصلت الى ما هي عليه الان فصار يسافر من القاهرة الى الاسكندرية بالركاب في كل يوم ثلاثة قطارات واكثر سوى ما هو خاص بنقل البضايع وما يسافر الى غيرها من الجهات بعد ان كانت في اول امرها لا يسافر فيها الوابور الاّ نحو ثلاث مرات في الاسبوع وذلك قريب اتمامها وقد ارخ صاحبنا الشيخ مصطفى سلامه النجاري اتمامها بين القاهرة والاسكندرية بقوله

في بر مصر انشىء الوابورُ

وهذا المصراع تاريخ لسنة ١٢٦٩ هجرية بحساب الجمل

وقد كنت اسمع بهذه السكة وحركتها ولكن لم يسبق لي السفر بها ولا العلم بحقيقة كيفيتها وانما كنت اعلم بالسماع ان السفر بها في عربات تجرها باخرة تتحرك بواسطة النار من غير ان اعرف كيف تحركها النار وكنت في شوق الى معرفة ذلك حتى شرحت لي اليوم ما شرحت واوضحت ما اوضحت من ان حركتها وسيرها بواسطة بخار تحلله حرارة النار من ماء موجود في القدر اعني الدست الذي ذكرته فيتجه البخـار الى آلة يحركها فتتحرك بحركتها العجلة وتمشي الباخرة اعني الوابور فقد عرفت ذلك ولكن بقي عليَّ ان اعرف حقيقة لفظة وابور ومعناها لاعرف حقيقة اسم هذه الباخرة كما عرفت مسماها فان هذه الكلمة ليست من العربية وما اظنها الاَّ من اللغة الافرنجية

فقال الانكليزي نعم لفظة وابور كلمة افرنجية معناها في اللغة الفرنساوية البخار فاستعملها عامة الناس هنا في معنى الباخرة تسميةً للشيء باسم ما هو من لوازمه والاسم الموضوع لهذا المعنى في اللغة المذكورة هو (لوكوموتيف)

فهذا ما اعلمه في هذه اللفظة التي سألت عنها وما يتعلق بها وها هنا شيء اريد ان اسألك عنه وهو انك عبرت بالقدر بدل لفظ الدست المتعارف فهل هو غير عربي ام غير صحيح ام ماذا ترى فيه وكذا العربة والعربية او العجلة فارجوك ان تشرح لي

ما تعلمه في هذه المذكورات ولوازمها وما يتعلق بها من جهة اللغة العربية كما شرحت انا ما اعرفه فيها من جهة الصناعة لنقطع بذلك ما بقي من الطريق ولا نخرج عن المناسبة

فقال الشيخ لك ذلك وسأشرح ما اثبته حفظي ووصل اليه علمي فيما ذكرته فاما لفظة الدست فهي بفتح الدال معربة تطلق في العربية علي جملة معان منها الصحراء وهي في هذا المعنى معربة من دَشت بالشين المعجمة لفظ فارسي بالمعنى المذكور وفي غيره معربة من دست بالسين المهملة لفظ فارسي ايضاً له نحو خمسة عشر معنى منها اليد والمنفعة والنصرة والوزير والصدر والمقام الرفيع والقوة والغلبة والطراز واللعبة الواحدة والشيء مع افراده التامة فهو من السلاح مثلاً العدَّة الكاملة ومن الثياب ايضاً الكاملة اجزاؤه التامة افراده من السراويل الى المنديل وهكذا كما عرفته من اهل تلك اللغة وقال في القاموس الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات (اه) وهي عبارة مجملة فيها غموض ويعلم المراد منها بما قدمناه وقد انكر بعض العلماء المناسبة بين ما استعمل فيه هذا اللفظ في العربية وبين معناه في اللغة الفارسية لكونه لم يعرف من معانيه في تلك اللغة الا اليد لشهرته فيها

قال الخفاجي في شفاء الغليل بعد ان نقل عبارة القاموس واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والرئاسة

مستعاراً من هذه

قال المعري

من آلة الدست ما عند الوزير سوى
تحريك لحيته في حال ايماء
فهو الوزير ولا ازر يشدّ به
مثل العروض له بحر بلا ماء

ثم قال وقيل لا يصح فيه ان يكون مشتركاً لاختلاف معناه في اللغتين فانه في الفارسية بمعنى اليد وفي العربية له معان اربعة اللباس والرئاسة والحيلة ودست القمار وجمعها الحريري في قوله نشدتك الله ألست الذي اعاره الدست فقلت لا والذي اجلسك في هذا الدست ما انا بصاحب ذلك الدست بل انت الذي تم عليه الدست ويقولون للغالب تم له الدست وللمغلوب تم عليه الدست وانقلب عليه الدست ومن الاخير دست الشطرنج قال الشاعر

يقولون ساد الارزلون بارضنا
وصار لهم مال وخيل سوابق
فقلت لهم شاخ الزمان وانما
تفرزن في اخرى الدسوت البيادق

والدست تستعمله العامة لقدر النحاس قال سليمان بن عبد الحق في بعض اهل الديوان وكان يلقب بالقط

ما نال قط الدست من فعله

غير سخام الوجه والسقطِ

ولى عن الدست على رغمه

وانقلب الدست على القطِ

انتهى المراد منه ولكن بقي ها هنا شي وهوان القدر لا تظهر له مناسبة بشيء مما ذكر من معاني هذه اللفظة في الفارسية فلعله ماخوذ من لفظ دستي بالياء التحتية بعد الياء الفوقية وهو بالفارسية ظرف للماء وغيره من المائعات يحمل باليد كالجرة فلما اخذه المولدون والعوام تصرفوا فيه بحذف يائه وكسر داله ومعربه دستيج بالفتح ويوجد في الفارسية لفظ دست بالكسر الاّ ان معناه الشبر فقد علم مما ذكر ان استعمال لفظ دست في معنى القدر عامي مولد ليس بعربي ولا معرب ولهذا عبرت بالقدر

قال الانكليزي ذكرت بالدست والقدر بيتًا رايته في كلام شاعر من المصريين لا اذكر اسمه ولا اجيد ضبط بيته وهو

وقدر كثل الفيل في القدر اشرفت

على منصب كالقيل في دست منصب

قال الشيخ . قوله وقدر هو بكسر القاف والمراد به القدر التي يطبخ فيها والفيل بالفاء معلوم والقدر من قوله في القدر بفتح القاف بمعنى المقدار والمنصب في قوله على منصب بكسر الميم على وزن منبر حديد تنصب عليه القدر له ثلاث قوائم والقيل في قوله كالقيل

بالقاف المفتوحة وهو الملك مطلقًا او من ملوك حمير او هو دون الملك واصله قيْل كفَعْيِل سمي به لانه يقول ما شاء فينفذ قوله والدست اراد به الديوان او صدر البيت ومنصب في اخر البيت واحد المناصب وصف بهذا البيت قدرًا عظيمة يقول وقدر مثل الفيل في الكبر اشرفت وهي على منصبها اشراف الامير في ديوان منصبه او في صدر البيت المنسوب له وقد بالغ في عظم هذه القدر فجعلها كالفيل وان لم تكن كذلك

قال الانكليزي قد كنت متوقفًا في تانيث هذا الشاعر لضمير القدر في قوله · اشرفت حتى رايتك تؤنثها

قال الشيخ القدر مؤنثة . قال ابن سيدة في المخصص القدر التي يطبخ فيها انثى وجمعها قدور ولا تكسر على غير ذلك وقد قدرتها اقدرها واقدرها (كضرب ونصر) طبختها ومرق مقدّر مطبوخ في القدر والقديرُ ما يطبخ في القدر والاقتدار الطبخ فيها انتهى · وبائع القدر قدوري وسخام القدر سوادها وقد مر لك ذكر في البيتين السالفين ويقال للقدر العظيمة قدر أعشار كأنها ركبت من عشر قطع لعظمها وكبرها والقدر الوثية الواسعة وانشد ابو عبيد

وقدر كرأل الصحصحان وثية
أنخت لها بعد الهدوء الاثافيا

والاثافي حجارة توضع عليها القدر

قال الانكليزي سمعت رجلاً يقول في الدعآء على اخر رماه الله بثالثة الاثافي فما معناه

قال الشيخ ثالثة الاثافي الجبل وذلك انهم قد يضعون القدر على اثفيتين الى جانب جبل ويسندونها اليه فيكون الجبل ثالثة الاثافي فيقال في الدعاء على الشخص رماه الله بثالثة الاثافي اي بداهية عظيمة كالجبل

قال الانكليزي فما معنى قول الشاعر

وقدرٍ جماعٍ كاليفاع دميمة * زُوازية سوداء غير صلود

قال الشيخ يقال قدر جماع وجامعة اذا كانت عظيمة واليفاع التل ويقال قدر دميمة ودميم اي مطلية بالطحال او الكبد او الدم بعد الجبر والدم كسب التي يسد بها خصاصات البرام مِن دَمٍ أَوْ لِبَاء والدم والـدمام ما يطلى به والقدر الزُّوازية والزويوزية هي التي تضم الجزور نقله ابن سيدة عن ابي عبيد وغير صلود اي غير بطيئة النضج يقال صلدت القدر تصلد فهي صلود ويقال قدر راسية اذا كانت ثابتة لا يطاق تحويلها لعظمها وفي التنزيل وقدور راسيات والبرمة القدر من الحجارة جمعها بِرام كجبال وبرم كصرد وبرم كدخن وصانعها المبرم وهو من يقطع حجارتها من الجبال واكبر البرام الجماع ثم التي تليهـا الميكلة وهي التي يستخف الحي ان يطبخوا فيها اللحم والعصيدة والصيداء حجر ابيض تعمل منه البرام

قال الانكليزي فهل تذكر قول الشاعر

رأيت قدور الصاد حول بيوتنا
قنابل دهما في المحلة صيما

قال الشيخ نعم هكذا انشده ابن سيدة ولم يسنده والذي احفظه حسبت بدل رأيت والبيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه من قصيدة طويلة يقول فيها

وندمان صدق تمطر الخير كفهُ
اذا راح فياض العشيات خضرما

وصلت به ركني ووافق شيمتي
ولم اكُ عضا في الندامى ملوما

وابقى لنا مر الحروب ورزؤها
سيوفا وادراعا وجمعا عرمرما

اذا اغبر افاق السماء واحملت
كأن عليها ثوب عصب مسهما

حسبت قدور الصاد حول بيوتنا
قنابل دهما في المحلة صيما

يقول اذا اشتد الجدب حسبت قدور الصاد حول بيوتنا جماعة خيل قائمة يعني انهم يطعمون في الجدب والقحط كثيرا والصاد الصفر وجمعه صيدان كنار ونيران قاله ابو علي وانشد

وسور من الصيدان فيها مذانب . .

رواه بكسر الصاد ورواه ابو عبيد بفتحها وقال الصيدان برام الحجارة والصاد. قدور الصفر والنحاس قال ابن جنى والفه منقلبة عن الياء واستدل على ذلك برواية ابي عبيد من الصيدان بفتح الصاد قال وانا ارى ان القدر انما سميت صاداً من الصيد وهو التكبر وذلك لما في القدر من الغليان والحمي والفوران ولذلك يشبه بها المساورة والمضاغنة قال الشاعر

تفور علينا قدرهم فنديمها * ونفثؤها عنا اذا حميها غلا

(اه) وذكرت بهذا قول امرء القيس في صفة الفرس

على العقب جياش كأن اهتزامه

اذا جاش فيه حميه غلي مرجلِ

العقب عقب الانسان خفف باسكان القاف والاهتزام شدة الصوت يريد ان هذا الفرس اذا حركته بعقبك حمي وجاش كما تجيش القدر وكفى ذلك من السوط والمرجل القدر من النحاس وقيل كل قدر مرجل وهي موءنثة وقال ابن دريد التساخين المراجل لا واحد لها الأ انهم قد قالوا تسخان ولا احته وشكيمة المرجل عروتها ويقال للقدر الصغيرة كفت بفتح الكاف وقد تكسر وتقول الترك وبعض مخالطيهم من العامة للقدر التي يطبخ فيها تجرة وهو محرف تنكيره الفارسي ومعربه طنجير بغير هاء كما في القاموس وطنجيره بالهاء كما في لهجة اللغات وفيها ايضاً الهيطلة قدر

صانع الحلواء وفي القاموس الهيطلة قدر معروف من صفر معرب باتيله والظرف الذي تصنع فيه الخبيصة مخبصة ويقال للوعاء الذي يقلى عليه مقلاة ويقال ايضاً طاجن وطجن وهما معربان كما في القاموس وفيه ايضاً الطابق كهاجر وصاحب ظرف يطبخ فيه معرب تابه والخرقة التي تمسك بها القدر لتنزل عن النار يقال لها الجعال واجعلها انزلها بالجعال هذا بعض ما يتعلق بالقدر ولو اخذنا في استيفاء جميعه لطال الكلام وتشعب القول فلنكتف بهذا القدر وننتقل الى الكلام على العربة وما يتعلق بها

قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل العربة بلغة اهل الجزيرة سفينة يعمل فيها رحى في وسط الماء الجاري مثل دجلة يديرها شدة جريه وهي مولدة فيما احسب. قاله في المعجم وانا لا ادري هل المركب المسمى عربة (وهو ما نحن فيه) اخذ من هذا او هو غير عربي وهو الظاهر (اه) كلامه

وفي تفسير الرازي ان مادة (ع ب ر) بجميع تقاليبها الستة التي منها (ع ر ب) تدل على العبور والانتقال ونص عبارته المسئلة التاسعة العبارة وتركيبها من (ع ب ر) وهي في تقاليبها الستة تفيد العبور والانتقال فالاول (ع ب ر) ومنه العبارة لان الانسان لا يمكنه ان يتكلم بها الا اذا انتقل من حرف الى حرف اخر وايضاً لانه بسبب تلك العبارة ينتقل المعنى من ذهن نفسه الى ذهن السامع ومنه العبرة (بالفتح) لان تلك الدمعة تنتقل

من داخل العين الى الخارج ومنه العبرة (بالكسر) لان الانسان ينتقل فيه من الشاهد الى الغائب ومنه المعبر لان الانسان ينتقل بواسطته من احد طرفي البحر الى الثاني ومنه التعبير لانه ينتقل ما يراه في النوم الى المعاني الغائبة . الثاني (ع ر ب) ومنه سميت العرب لكثرة انتقالاتهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان اعرب في كلامه لان اللفظ قبل الاعراب يكون مجهولاً فاذا دخلهُ الاعراب انتقل الى المعرفة والبيان . الثالث (ب ر ع) ومنهُ فلان برع في كذا اذا تكامل وتزايد . الرابع (ب ع ر) ومنهُ البعر لكونهِ منتقلاً من الداخل الى الخارج الخامس (ر ع ب) ومنهُ يقال للخوف رعب لان الانسان ينتقل عند حدوثهِ من حال الى حال اخرى . السادس (ر ب ع) ومنهُ الربع لان الناس ينتقلون منها واليها (اه)

فعلى هذا مادة (ع ر ب) تدل على الانتقال والعبور مثل (ع ب ر) ومناسبة هذا المعنى لهذا المركب المخصوص الذي نحن بصدده واضحة ظاهرة لاخفاء فيها ولكنا لم نجد في كلام العرب ولا من قرب منهم ولا وجدنا من نقل عنهم اطلاق لفظ العربة على المركب المذكور وانما نسمعه في كلام المولدين وكلام الترك فقد خالطتهم وتعلمت من لغتهم ورأيت صاحب لهجة اللغات اورده فيما ذكره من الكلمات وكتبه بالالف هكذا (اره به)

قال الانكليزي فما هذه الهاء التي بعد الراء

قال الشيخ هذه الهاء لبيان فتحة الحرف الذي قبلها لا للتلفظ بها ونظيرها الهاء التي بعد الباء فليست هاء تانيث وإنما تكتب كذلك لهذا السبب ويسمونها هاء رسمية لكونها ترسم ولا تقرا ولعل هذه الكلمة محرفة من عربة بابدال عينها همزة كما صنعوا في عباه فقد رسمه في الكتاب المذكور (ا به) وقال هو عربي محرف وصحنه عباء وبعض النـاس يزيد على لفظ عربة الياء ويقول عربية

قال الانكليزي فما يقال في العربية في محل لفظ عربة المذكور

قال الشيخ . قال في الكتاب المذكور هو بالعربي عجلة بفتح العين المهملة والجيم واللام وهاء الوقف اخره وحال وهي التي تتخذ للصبي ليتعلم عليها المشي ودراجة وهي مثلها (اه) وتسمى العجلة ايضاً زازية كما في القاموس وفيه ايضاً العجلة بالتحريك الالة التي يجرها الثور والجمع عجل واعجال وعجال والدولاب او المحالة وخشب تؤلف تحمل عليها الاثقال (اه) والان تطلق العجلة على تلك الدائرة التي تدير بها العربة على الارض واسمها في العربية دوارة بضم الدال ومدورة وكل شيء مستدير اذا لم يدر ولم يتحرك فهو دوارة وفوارة بفتح الدال والفاء فاذا دار او تحرك فهو دوارة وفوارة بضمها واذا اتسع ثقب الدوارة من اكل المحور الذي فيها وضعت في ثقبها قطعة خشب ليضيق فتسمى هذه الخشبة نخاس

بالخاء المعجمة بعد النون وقيل النخاس طوق الدوارة والمحور المذكور يسمى القب والمسمار الذي يكون فيه يسمى زازة كما وجدته في ترجمة مقدمة الادب وفيه المدهن ظرف يوضع فيه الدهن لطلاء بعض مواضع العجلة

وبينما هما في هذا الكلام وامثاله اذا بهما قد وصلا الى موقف السكة بناحية كفر الدوار

قال الانكليزي هذا اخر موقف في هذا الطريق ليس بعده الاّ الموقف في اسكندرية ولم يبق عليها الاّ مدة يسيرة ودقائق من الزمن غير كثيرة

قال الشيخ سبحان الله لقد تقاربت البلاد والامصار بسبب هذا البخار تقاربًا شديدًا حتى صار يستغني الانسان في اسفاره عن عدة اشهر ببعض ايام وعن عدة ايام بيوم او بعض يوم فصار يمكن للانسان ان يسافر من القاهرة الى الاسكندرية ويرجع اليها من يومه بعد ان كان لا يمكنه ذلك الاّ في مدة اسبوعين او اكثر حتى ان بعض اصحابي اخبرني انه سافر مرة من الاسكندرية في البحر يريد القاهرة فلم يصل اليها الاّ بعد ثلاثين يومًا فقد ربح الانسان مدة طويلة من عمره فضلًا عما توفر عليه من ماله الذي كان يصرفه في سفره واستراح من كثير مما كان يكابده من المشاق والمتاعب والعوائق والمصاعب التي لم يكن يخلو عنها ولا يسلم مسافر منها فما اكثر فوائد هذه السكة وما اوفر ما لها من الخير

والبركة

قال الانكليزي من اعظم فوائدها ما حصل بين الملل وبعضها من المساعدة الكلية فيما يطراء عليها من الحوادث الفظيعة كالغلاء والقحط فتصل الاخبار وتنتقل الارزاق من سائر الاقطار ويحصل الاسعاف من دون ان يشعر الخلق كما حصل غير مرة وقبل ظهورها كان اذا حصل مثل ذلك في اقليم من اقاليم المعمورة لم يمكن ان تصل اليه مساعدة من اقليم اخر الا بعد جهد جهيد وبلاء شديد حتى ان الناس في بعض الازمان اكل بعضهم بعضاً بعد ما اكلوا الرم والجيف وباعوا اولادهم وكذلك اذا حصل ببلد من البلاد بعض امراض وفساد في الهواء يسهل بواسطة هذه السكة مفارقته بعض ايام والعود اليه بعد ذلك فعلم من هذا ان حصول التيسير بين الناس واتساع دائرة معاشهم وكثرة امنهم قد زاد عما كان عليه في الايام السالفة ومن تامل اصناف المبيعات من الخضروات والفواكه تحقق عنده فائدة البخار ومزيد منفعته فانا نرى الفواكه على اختلاف انواعها وبعد بلادها في جميع اوقات السنة مجلوبة الى البلاد المصرية مع انها ما كانت ترى فيها من قبل وكذا الخضروات الطرية فباي كيفية كان يمكن ذلك لولا استعمال البخار فقد حصل به ثمرات متعددة لكل من البائع والمشتري بنقل الفواكه والخضروات والبضائع في كل البقاع واتسعت دائرة الفلاحة بكثرة الرغبة في الزرع لكثرة ارباحه وازدادت درجة

الثروة في كل البقاع ومن يقارن كمية المنزرع بالطرق المعتادة من قبل بما هو منزرع الان يجد بينهما فرقًا كبيرًا جدًا في مقدار الفدادين والمحصول لان صاحب الارض في الزمن السابق كان لا يزرع الاّ بقدر قوته او قوة المزارع فكانت الزراعة موقوفة على حد معين لا تتعداه واما الان فبواسطة استعمال الآلات البخارية في الحرث والري والحلج وما اشبه ذلك امكن له الخروج عن هذه الحدود والاتساع فيها والحصول على عدة نتائج يزداد بها راس ماله وارباحه واصلاح ارضه بالخدمة والتنظيم فجميع هذه الامور ونحوها كالتجارة والصناعة قد تحسنت وازدادت اضعاف ما كانت عليه وما زالت آخذة في زيادة التقدم والربح ولولا هذا البخار لكانت غالب بقاع الارض محرومة مما هي متمتعة به الان من مزروعاتها واهلها محرومين من نتائج مصنوعات البلاد الاخرى ومحصولاتها واقول لك بالاختصار ان استعمال البخار اقوى منعش لظاهر الانسان وباطنه اما ظاهره فبالرونق والبهجة واكتساب راحة البدن والمهجة واما باطنه فبانتقاله من قيد المضيق الى سعة الاطلاق وتحليه بمعرفة عجائب البلاد وغرائب الافاق وبسببه اعتادت الناس على حسن المخالطة والانس والائتلاف وزال ما كان بينهم من موجبات الوحشة والبغضاء والاختلاف وتأكد ذلك باستعمال الاشارة الكهربائية المعروفة بالتلغراف اذ لا يكون بين الخلق وبعضها رابطة اقوى من رابطة المنفعة وكل ذلك نتج

من استعمال هذا السر المودع في الماء فسبحان من ابدعه ودبره ولم يظهره الاّ في الوقت الذي اراده وقدره

قال الشيخ من نظر لظاهر صورة الانسان مع ضعفه وصغر جثته ودقة اعضائه ونحافته ونظر لافعاله وعجيب اثاره واحواله استغرب وتعجب ولم يهتدِ في نسبة ذلك له الى سبب فانه مع ضعفه وصغره يتصرف في الكون باسره بقوة نظره وفكره ليحصل منه على اغراضه ومقاصده ومنافعه وفوائده فتراه قد احتال على الهواء فسخره وصار يجوب به البحار والقفار ويملأ به الجداول والانهار فتارة يجري به الماء وتارة يجمعه وتارة يصرفه وتارة يمنعه وتارة يرفع سطحه وتارة يخفضه حتى روى الارض المنخفضة والمرتفعة من غير فرق بين بقعة وبقعة فكانت الارض طوع يده منقادة في جميع احوالها اليه فاظهرت له خيراتها واغدقت عليه ببركاتها وكذلك سخر النار فصارت من ضمن خدمه يستعملها في مصالحه البرّية والبحرية فلم يكن شيء من المخلوقات الاّ وقد دخل تحت طاعته وفي تصرفه وقبضته فجميع الحيوان والنبات والنار والهواء والتراب والماء خاضع لسطوته مذعن لبأسه وصولته فمثل الانسان بالنسبة لغيره كالملك بالنسبة لرعيته وذلك بمقتضى ما منحه الله سبحانه من خلافته قال تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقال سبحانه هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ولكن الانسان كما انه يستعمل فكره ونظره في حصول الكمال والوصول الى خير الاعمال يستعمل ما ذكر في

بعض الاحوال في الضرر والوبال والطغيان والضلال وكما كان العقل سببًا في هذا النفع بكماله قد يكون سببًا في ضرر صاحبه وضلاله والوقوع في سيء اعماله فيوقعه ذلك فيما يغضب الرب ويمنعه من منازل القرب ولا ريب ان هذا كله مما يدل على وجود الصانع العليم والمبدع الحكيم الذي اودع في كل ذرة من مخلوقاته لطائف صنعه ولطيف اياته قال تعالى في كتابه المكنون (وفي الارض ايات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون)

ففي كل شيء له اية * تدل على انه واحد

فكيف يتعدى العبد حدود مولاه ويجحد ما منحه واولاه

قال الانكليزي لا شك ان الانسان صفوة الخليقة والملك الخليفة على غيره في الحقيقة وقد وصل الى ما وصل اليه من الكمالات العظيمة والدرجات العالية بالتدريج والتقدم شيئًا فشيئًا فكان كلما انكشف له سر من الاسرار او وقف على شيء من الاثار بحث عن غيره وطلب ما فوقه وهكذا ولم يزل كذلك من الاعصار القديمة والازمان الخالية الى هذه الايام الحاضرة وكذا يكون حاله في الاعصار القابلة بالقياس على ما سبق فكلما اتسعت دائرة استكشافه بوقوفه على شيء من اسرار الكائنات ولطائف مكنوناتها اتسعت دائرة علمه فيتسع نور بصيرته فيتمكن من الاطلاع على مكنونات اخرى اعظم من الاولى وانفع منها وكلما اطلع على سر استنتج منه غيره وبهذه الطريقة وصل للقوانين العمومية والنواميس

الحقيقية التي عليها مدار الكائنات وجميع ما استكشفهُ لم يكن الاَّ نتيجة بحثهِ في الموجودات ونسبتها الى بعضها من حيث الكيفية والافعال والصفات لان النوع الانساني في مبداء امره لم يكن يعلم ما يعلمهُ الان والدليل على ذلك اننا لم نجد امة من الامم الاَّ وقد انتقلت من حالة الى حالة اخرى وهذا محسوس بالمشاهدة فكم من امة كانت في اسوإ حال من نحو اربعين سنة قد انتقلت عن حالتها حتى صارت اول امة وما ذاك الاَّ من حسن تدبيرها وإدارة امورها بموافقه قوانينها وكم من امة كانت تخشى سطوتها الامم آل حالها الى الدمار والعدم وكان عاقبة امرها ان صارت تحت رق غيرها فالبسها الله لباس الذل والمهانة وانحطت عما كانت عليهِ من علو المكانة ومن هنا علم ان نوع الانسان بالنسبة لما هو عليهِ الان كان غارقًا في بحار الجهل زمنًا طويلًا يرتع كالانعام بل اضل سبيلاً كأَهل البقاع المتوحشة بافريقيا واسيا وامريقا فاستمر بهم الامر على ذلك حتى وجدت الاسباب التي اضطر بها الناس الى الالفة والاجتماع فدبت بينهم علائق التآنس ومبادىء التمدن وذلك انهم اختطوا مدنًا وامصارًا وقرى وديارًا سكنوا بها واجتمعوا فيها فاحتاجوا الى الضبط والربط والتعامل والتحامل فكان ذلك من الاسباب والذرائع لوجود القوانين والشرائع والعلوم والمعارف وسائر اللطائف فمن ذلك الوقت بدا العلم في بعض البقاع ودب في الخلق حب الاتساع فتعلقوا من الشرائع بحبالها

فاوصلتهم الى فهم القوانين والنواميس التي عليها مدار احوال الموجودات حتى وصل العلم الى الدرجة التي هو عليها الان وان كانت ليست الدرجة التي يجب الوقوف عندها بل كل زمن يأتي معه فوائده على حسب ما تقتضيه احواله وعوائده فكما تنقل النوع البشري في الازمان الماضية كذلك ينتقل في الازمان الاتية وحيث علم ذلك ظهر ان اكبر باعث للانسان على البحث ومعين له في مقاصده هو الخليقة نفسها والموجودات اعيانها . قال الشيخ . نعم وانما عليه ان يخص كل فرد من افراد الاشياء بما يوافقه على حسب ما علمه فان وفق للحق واسند الى كل شيء ما استحق ولم يخرج عن الحدود المرسومة والقوانين المعلومة كانت اعماله راجحة وافعاله ناجحة وان نسب الى افراد الاشياء ما ليس لها وصورها في نفسه بصورة تخالف حالها لبست غير كسوتها وظهرت على خلاف حقيقتها فاذا اعتقد ذلك ووثق به وجرى على موجبه وحكم بحسبه ضل عن طريق السلامة ووقع في مهاوي الندامة فيكفر بربه الذي خلقه من ماء مهين ورزقه وهو خير الرازقين ويعيش بين خيالات واوهام ووساوس والام ويستمر على هذه الحالة مدة حياته ويؤول امره الى العذاب المهين بعد مماته فعلم أن عقل الانسان قبل علمه كان ناقلاً عن افراد الخليقة ومقلداً لها واما بعد العلم فيكون لها كالملك بالنسبة لرعيته فكما ان احوال الرعية مرتبطة باحوال الملك وكل ما يصدر عنهُ من قول او فعل يسري الى

الرعية فكذلك الانسان بالنسبة للخليقة فأن اهتدى الى الطريق الحق وصل واتصل وان عدل عنهُ ضل واضل

وقد امتد بينهما القول في هذا المعنى الى ان وصلا الى اسكندرية

فقال الانكليزي للشيخ قد قطعنا المسافة بين القاهرة واسكندرية وهي مائة وثلاثون ميلاً انكليزياً في اربع ساعات ونصف ساعة وكان يلزم لقطع هذه المسافة بغير سكة الحديد نحو اربعة ايام واكثر فهل تعلم احسن من هذا الاختراع العجيب الذي كان سبباً لقطع تلك المسافة الطويلة في هذا الزمن القريب ثم انهم نزلوا في موقف السكة بالاسكندرية فوصل الى الانكليزي هناك ورقة على يد احد خدمة البوسطة فاخذها منه فلما فتحها وقرأها ضحك ملياً وقال للشيخ اتعلم سبب ضحكي قال الشيخ لا قال اتريد ان تعلم سببه قال نعم ان شئت فقال الانكليزي ان الكلام المسطر بهذه الورقة برز من فم قائله وهو والدي من منذ ساعتين من لوندرة وبيننا وبين هذه المدينة بحسب الطريق الذي نسلكه اليها نحو ثلاثة آلاف ميل فعجب الشيخ اكثر من تعجبه من سرعة الوابور فقال لهُ الانكليزي سأشرح لك بعد الاستراحة سبب هذا السر العجيب ان شاء الله تعالى

المسامرة الحادية عشرة
الخانات واللوكندات

ثم ساروا جميعاً ودخلوا اسكندرية ونزلوا في خان من خانات المسافرين المعروفة باللوكاندات ليقيموا بهِ الى ان يحضر وابور البوسطة ولما كان الشيخ لم يسبق لهُ دخول مثل هذه المحلات وانما قضى عامة اوقاته في الجامع الازهر وداره بمصر ظن في نفسه هذا الخان داراً للانكليزي او لاحد احبابه ولكنه كان يتأمل في حسن رونقه وبهجته ونظافة مفروشاته ولطافته فيتعجب مما يراه لا سيما من كثرة المسافرين الواردين على هذا المحل ووجدهم قد خصصوا لهُ ولولده حجرة بها سريران ودولابان وطرابيزة وشمعدانات وساعة دقاقة وفيها جميع ما يلزم من الماء والصابون والمناشف والكراسي بحيث لا ينقص شيء مما عساه يلزم للانسان من امثال ذلك فقال لولده يلزم ان يكون الانكليزي صاحبنا ذا مال كثير وثروة عظيمة حتى يكون لهُ منزل مجمل بهذه الصفات غاص بهذه المخلوقات فقال لهُ ولده وقد رأى غير هذه الحجرة ان هناك حجرات وغرفات اعظم من حجرتنا زخرفة ولطافة وفي كل منها من الاسرة والادوات الكثيرة مثل ما هنا واكثر واظن ان هذه الدار ليست ملكاً لهُ بل لاحد اصحابه وقد شاهدته عند

دخولنا يتكلم مع واحد من ابناء جنسه بكلام يدل على المحبة والالفة فقال له والده هي على كل حال تدل على عظم قدر صاحبنا سواء كانت لهُ او لغيره اذ لولا ذلك لم يمكن له ان ينزل بدار مثل هذه

وبينا هما في هذا الكلام ونحوه اذ دخل الانكليزي وسأله عما يلزم لهُ وعرفه كيفية الاقامة بهذا المحل واشار لهُ الى خيط نازل من اعلى المحل يقرب من الارض وقال له اذا لزم لك شيء مما تريده فشد هذا الحبل وحركه يتحرك بحركته جرس يسمعه الخادم ويأتي اليك فتخبره بما تريد يأتيك بهِ في اقرب وقت فسر الشيخ من ذلك وشكره واثنى على اخلاقه فقال الانكليزي اخبرك ايها الاستاذ ان الانسان في مثل هذه الدار لا ينبغي لهُ ان يمنعه الخجل عن طلب ما يلزم لهُ لان اصحابها لهم قانون مربوط وقدر معين مضبوط على كل شخص بحسب المكان الذي ينزل بهِ سواء طلب ما يلزم لهُ او امتنع من طلبه وعليهم لكل محل فروض يجب اداؤها . فقال لهُ الشيخ اليس هذا المكان لك او لبعض احبابك نزلت عنده فقال لا بل هو خان يعرف بلفظ (لوكاندة) او (اوتيل) وهو معد لاقامة من يرد عليه من الاغراب والمسافرين ومن لا مأوى لهم في البلد كالمحلات التي تعرف عندكم بالوكايل . فقال الشيخ سبحان الله ارى الافرنج يعتنون باتقان جميع الاشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها كتساهلنا في خاناتنا ووكائلنا فنرى المسافر اذا نزل بمكان من

خاناتنا ووكائلنا وجد المكان مجرداً من كل شيء فلا يجد بهِ ما ياكله او يشربه او يفرشه او يستعمله والويل لمن يمضي عليه بها الليل لانه يكون تحت تصرف انواع الحشرات من البرغوث والقمل والبق والبرغش يبيت مسهداً ولمثل هذا منشداً

ثلاث باأت بلينا بهـــا * البق والبرغوث والبرغشُ
ثلاثة اوحش ما في الورى * ولست ادري ايها اوحشُ

وهكذا النمل وجميع الموذيات فلا يرى فيها ما يسر الناظر ويريح القلب والخاطر تنهال عليه الا تربة من كل جانب وتدب اليه الهوام من سائر الجوانب فلا يطرق جفنه المنام ولا يستريح في قعود ولا قيام لا يأمن فيها الانسان على نفسه ولا يجد طريقا لانسه تراها لقدمها الى السقوط آلت ولتخربها تساقطت اتربتها وانهالت فتمضي عليه المدة في قلق ويقضي ليله في سهر وارق خصوصا من كثرة نباح الكلاب وشحيج البغال وطنين الذباب ورغاء الانعام وكشبش الهوام وصهيل الخيل ونهيق الحمير وهنالك يستغيث ويستجير وهيهات المغيث والمجير وليس بها منافذ لتجديد الهواء ودخول الاضواء غير فتحات صغيرة وكوات حقيرة عليها ابواب من الاخشاب غير متقنة الصنع ولا محكمة الوضع ان اغلقت حجبت الانوار واشتبه الليل بالنهار وان فتحت جلبت المضار ولم ينتفع بها في دفع الحر والبرد والغبار فهي في الشتاء زمهرير وفي الحر نار وسعير وسقفها مسكن للحشرات والهوام وغربال للتراب تخلله

على الاجسام وينثره على الجفون ويذره في العيون فان فتح الانسان عينه امتلأت قذى وان اغمضها لم يأمن من الاذى فان نزل المطر فخير لمن بها ان يستتر بالسماء ويلتحف بالانواء فهذا السقف يمطر الطين والسماء انما تمطر الماء ولقد حكمت عليّ صروف الاقدار فدخلت احداها ليلة في بعض الاسفار

فبت كاني ساورتني ضيئلة
من الرقش في انيابها السم ناقع

ولقد تذكرت ليلة بت بها القصيدة المشهورة للاديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الاعمى في صفة دار كان يسكنها فبت اترنم بابياتها واتسلى بكلماتها فقال الانكليزي اي القصائد هي فقال الشيخ ها هي

دار سكنت بها اقل صفاتها
ان تكثر الحشرات من حشراتها

الخير عنها نازح متباعد
والشر دانٍ من جميع جهاتها

من بعض ما فيها البعوض عدمته
كم اعدم الاجفان طيب سناتها

وتبيت تسعدها براغيث متى
غنت لها رقصت على نغماتها

رقص بتنقيط ولكن قافه
قد قدمت فيه على اخواتها
وبها ذباب كالضباب يسد ء؛
ن الشمس ما غمي سوى غناتها
ابن الصوارم والقنا من فتكها
فينا وابن الاسد من وثباتها
وبها من الخطاف ما هو معجز
ابصارنا عن وصف كيفياتها
وبها من الجرذان ما قد قصرت
عنه العتاق الجرد في حركاتها
وبها خنافس كالطنافس افرشت
في ارضها وعلت على جنباتها
لو شم اهل الحرب منتن فسوها
اردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات وردان واشكال لها
ما يفوت العين كنه ذواتها
ابدًا تمص دماءنا فكأنها
حجامة لبدت على كاساتها
وبها من النمل السليماني ما
قد قل ذر الشمس عن ذراتها

ما راعني شيء سوى وزغاتها
فتعوذوا بالله من لدغاتها
سجعت على اوكارها فظننتها
ورق الحمام سجعن في شجراتها
وبها زنابير تظن عقاربا
حر السموم اخف من زفراتها
وبها عقارب كالاقارب رتع
فينا حمانا الله لدغ حماتها
كيف السبيل الى النجاة ولا نجا
ة ولا حياة لمن رأى حياتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها
والارض قد نسجت على آفاتها
والبوم عاكفة على ارجائها
والدود يبحث في ثرى عرصاتها
والجن تاتيها اذا جن الدجى
تحكي الخيول الجرد في حملاتها
والنار جزء من تلهب حرها
وجهنم تعزى الى نفحاتها
شاهدت مكتوبا على ارجائها
ورأيت مسطورا على جنباتها

لا تقربوا منهـــا وخافوها ولا
تلقوا بايديكم الى هلكاتهــا
ابدًا يقول الداخلون ببابهــا
يارب نجِّ الناس من افاتهــا
قالوا اذا ندب الغراب منازلا
تتفرق السكان من ساحاتها
وبدارنا الفـا غراب ناعق
كذب الرواة فاين صدق رواتها
صبرًا لعل الله يعقب راحـة
للنفس اذ غلبت على شهواتها
دار تبيت الجن تحرس نفسها
فيها وتندب باختلاف لغاتهــا
كم بت فيها مفردا والعين من
شوق الصباح تسح من عبراتها
واقول يارب السموات العــلا
يارازقا للوحش في فلواتهــا
اسكنتني بجهنم الدنيـا ففي
اخراي هب لي الخلد في جناتها

فلما أكمل الشيخ قال الانكليزي لقد احسن هذا الشاعر واجاد وبلغ ما اراد من المبالغة في صفة تلك الدار وذمها وتقبيحها

وتهويل امرها ووصف كثرة شرها وقلة خيرها

فقال الشيخ كل ما ذكره من القبائح العظيمة والاوصاف الذميمة مجموع في تلك الخانات والوكائل القديمة بخلاف هذا الخان اللطيف والمكان الظريف فانه خال من جميع تلك المضار مشتمل على كل ما يجلب المسار من حسن بنائه وتجدد هوائه ونظافة محلاته وكمال ادواته فيقيم بهِ الانسان في دعة وراحة وسعة لا يرى الا ما يسره ولا يجد ما ينفره او يضره ولا يفقد ما يحتاجه في وقت من الاوقات من جميع اللوازم والادوات فليت ما عندنا من الوكائل المذكورة يستبدل ولو على التدريج بما يقرب من هذه الصورة

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ايها الصاحب الفاضل والعالم العامل ان الامور مرهونة باوقاتها والاسباب ملازمة لمسبباتها ووقتنا هذا ليس كالاوقات التي مرت على مصر فكان من يسير او يسيح بها قبل الآن بنحو خمسين سنة لا يرى مثل هذا الخان في مدينة من مدن مصر لانه كان غير لازم في تلك الاوقات بسبب فقر الاهلين واضمحلالهم وندرة وجود الاغراب بها لعدم امنهم اذ ذاك فيها على انفسهم واموالهم فكان من يأتيها منهم ليقف على اخبارها او يطلع على آثار الماضين من سكانها يكابد مشقات عظيمة ويصرف في الحصول على ذلك مبالغ جسيمة ويستغرق ازمنة طويلة ويحتاج الى مكاتبات للوصية عليه

ومخاطبات رسمية لعدم التعرض لهُ وتحفظات كثيرة على نفسه وماله وما معه لان الفتن كانت مستمرة والاحوال لم تكن مستقرة والاهوال مترادفة والاهواء متخالفة فكانت الاغراب تعد دخولها والاقامة فيها من باب المخاطرة لما ذكر ولا سيما لتسلط الامراض الوبائية الدورية فيها على الاغراب في تلك الاوقات وكان ذلك امراً مشهوراً بين اهل اوروبا يصل اليهم في رسائل محررة بألسنة مختلفة ممن ورد عليها واطلع على احوالها وهذا فضلاً عن قلة العلائق بين اهل مصر والاقطار الاخرى فكانت مصر في معزل عن جميع الاحوال التآنسية كأهل دارفور وكردفان الان فكل جهة كانت مختصة بما عندها محرومة من فوائد غيرها وكانت الحكام والمتصرفون في امور العامة اذ ذاك مشتغلين باحوالهم الخاصة بهم كل منهم مقتصر في تحصيل معيشته وما يزيد في ثروته على اسباب فاسدة واعمال كاسدة كالقتل والنهب والسرقة والسلب صارفاً كل فكره في الوصول الى مال غيره ولو ماضراره لا يبالي في فعله بجرمة ولا حل ولا يراعي حق صاحبه في نسب ولا آل ففسد امر النـاس وتضعضع وانحط حالهم وتزعزع لقلة الناصر وعدم المنصف القاهر فأُهملت اسباب الثروة والتقدم وآل امر اهلها الى الفقر والعدم لتسلط الافات المتنوعة والعاهات الكثيرة المستفظعة وتعطلت حركة التجارة والفلاحة ولم يجد اهلها من عدم الراحة ما يملاء الراحة وتعطلت الارض من الزراعة

ووقع اهلها في أشد مجاعة فلاجل هذه الاسباب انقطع عنها توارد الاغراب وقل تردد الخلق اليها وبانقطاعهم عنها خلت افكار اهلها منهم فعملوا ما عملوا من خاناتهم ووكائلهم مناسبة لحال انفسهم وعوائد امثالهم وربما كانت الخانات والوكائل التي وضعوها فوق الكفاية اذ لم يكن المقصود منها الا الوقاية الوقتية مدة الليل وعلى الخصوص الأمن من اللصوص واما بالنهار فلا لزوم لها بسبب اشتغالهم بما يلزم لقوتهم ومعاشهم وبهذه الكيفية كان الغرض الحقيقي منها انما هو مأوى بعض الناس فيها بالليل ليس غير بخلاف هذا الوقت فانه قد اطمئنت القلوب وحصل الامان وساعد الزمان بوجود علائق المحبة بين الملل خصوصاً بين اهل مصر وسائر الدول بحصول الامن على المال والنفس ووجود انواع السهولة اللازمة للاسفار فاطمأن الغريب وامن وسهل عليه مفارقة الوطن وهرع النـــاس الى مصر من سائر البقاع وتواردوا عليها من جميع الاطراف بمقاصد ممدوحة وان كانت مختلفة فمنهم من يقصد الاقامة فياخذ له بها مسكنًا ويتخذها موطنًا ومنهم من يقصد التجارة ومعاملة اهلها فيجيء من بلده اليها ثم يذهب منها الى بلده وهكذا على حسب مقتضيات الاحوال وبسبب اعتدال هوائها ولين طباع اهلها وكثرة احتفالهم واعتنائهم بالقادم عليهم كثرت الرغبة فيها لتغيير الهواء وتعديل المزاج ولاكتساب الصحة وبما اكتسبته من التمدن صارت قبلة لجميع اهل اوروبا

لا ينقطع تواردهم عليها وترددهم اليها من اول السنة الى اخرها ولكونها من قديم الزمان مجمع تجارة بلاد العرب والسودان كانت مركزاً يجتمع فيه جميع التجار واصناف التجارة من جهات المعمورة كافة ومما زاد في الرغبة في مصر ووسع في دائرتها وجود سكك الحديد الموصلة لجميع جهاتها وسلك التلغراف المار بينها وبين بلاد الهند واوربا فانقطع بذلك ضياع الوقت واتصلت الاخبار وجرت الامور باوقاتها من غير تطويل في الزمن ولا زيادة في المصرف فمن كثرة وجود الاغراب عندهم حدثت بالضرورة في البلد عوائدهم ومنها هذه اللوكاندات اذ لا ياوون الا اليها ولا يمكنهم الاستغناء عنها لانه كما يقال في الامثال (من شب على شيء شاب عليه) فمن ثم ظهر بالمدن التي ظهروا بها اولاً خانات ومحلات للملاهي وقهاوي مشبهة لما في بلادهم ومناسبة لحال ثروتهم وكان اول ظهورها بالاسكندرية لانها المينا والمرسى للمراكب الواردة والصادرة واول بلد ينزل به الغريب بعد مفارقة البحر ثم سرى ذلك الى غيرها شيئاً فشيئاً وهكذا كلما مدت التجارة اغصانها واستظلت القرى بظلالها واقتطفت اهلها من ثمارها كثرت اثار التمدن والعمارة والتأنس والحضارة وعما قليل يتألفون بالاغراب وتتاكد بينهم الاسباب ويسعون في فعل ما يجذب قلوبهم اليهم ويحسنون امر ما بينهم وينتقل القطر ومبانيه واحواله واحوال ساكنيه ويكون هذا الانتقال ثمرة وجود الاغراب ولو

شرحت لك هذا المقام لطال الشرح واتسع الكلام ولكن يكفي الآن ما قلته لك وسنعود لهذه المسئلة فيما بعد هذا وقد جاء وقت الطعام قم بنا انت وولدك ناكل ونستريح وفي غد ان شاء الله يكون السفر والانتقال عن هذا المستقر لان وابور البوسطة قد وصل ويسافر غداً بعد الظهر فقام معه الشيخ والغلام ودخلوا جميعاً محل الطعام فنظر اليه الشيخ فوجده متسعاً وفيه خلق كثير من نساء ورجال وشبان واطفال فداخله الحياء والهيبة لعدم اعتياده مثل تلك الجمعية العظيمة خصوصاً وقد رآهم جميعاً شاخصين بابصارهم اليه لمخالفة هيئته وملبسه لما هم عليه ولما علم الانكليزي منه ذلك مازجه ومازحه وازال ما داخله من الحياء وقال لهُ تعلم ان مما يلزم معرفة العادات والرسوم المختلفة بين اصناف العباد بحسب الجهات والاقطار والبلاد لما في ذلك من عظيم الفائدة باتساع دائرة الاطلاع والتمكن من تمييز الحسن والقبيح من احوال الناس والبقاع فقبل الشيخ منه تلك العبارة وقعد بقربه وقعد ابنه الى جانبه وصار يتأمل في هذه الجمعية وماكولها ومشروبها ووجد امامه على السفرة ملعقة وسكيناً وشوكة واقداحاً صغيرة وكبيرة لم يدر ما المراد بها وكذلك ولده فارادا ان يستفهما عنها من صاحبهما الانكليزي الا انهما رأياه يتكلم مع مَن بجانبه من الطرف الآخر فلم يريدا ان يقطعا كلامه ورأيا امام كل واحد من الحاضرين مثل ذلك فاتفقا على ان يصبرا

حتى ينظرا ما يصنع كل احد بما امامه من تلك الادوات وكيف يتفع بها فيفعلا مثلما يفعل غيرها

وبينا هما في هذا الكلام دارت صحاف الطعام ورأيا كيف يستعمل الحاضرون هذه الادوات والتفت الانكليزي اليهما وعرفهما بما رآه قد يخفى عليهما واعلمهما ان جميع ما يحضر لذلك المحل من اللحم اصله ماخوذ من جزارين من اهل البلاد فضلاً عن كون اصحاب المحل من اهل الكتاب فاكل الشيخ وابنه كسائر الحاضرين واستعملا بعض ما امامهما من الاقداح في شرب الماء القراح وتركا ما اعدّ منها للراح

وقال الانكليزي للشيخ فيما بينه وبينه انما قصدت بحضوركما على هذه المائدة بين هؤلاء الناس المختلفي الاجناس ان تطلعا كما اخبرتكما على الرسوم والعادات وتتعودا قبل دخول اوروبا علي مثل هذه الحالات وهذه المائدة قد جمعت اغرابًا من بلاد شتى والجميع من اوربا بعضهم ورد من قبل بقصد السياحة او الاقامة بمصر وبعضهم حضروا من مدة وقضوا مأربهم واغراضهم ويريدون العود الى بلادهم ومن جملتهم عائلة انكليزية تريد ان ترافقنا في وابور البوسطة الذي نسافر فيه فان شئت واذنت عرفتك بهم لانه لا يخفى عليك مزايا المعارفة والائتلاف بالناس والمخالطة وحسن المعاشرة فقبل الشيخ منه ذلك وقال هذا مما ندب اليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث قال التودد الى الناس

نصف العقل وتعرف بهم وكان ممن حضر على المائدة بالقرب من الشيخ شابة طليانية تعرف اللغة العربية وغيرها فكانت تارة تتكلم بها وتارة تتكلم بلغتها او غيرها من اللغات الاجنبية على حسب لغات الحاضرين وكانت بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشمائل ثابتة الجاش فصيحة اللسان لا تقتصر في كلامها على الالفاظ العادية بل تاتي بمحاسن الالفاظ اللطيفة والنكات الظريفة وتدخل مع الرجال في المباحث العلمية والسياسية مع صغر سنها فتعجب الشيخ من ذلك واستغرب حالها لكونه لم يعهد في نساء البلاد المشرقية امثالها فانه يراهن دائمًا عن الرجال بمعزل ولا شيء عليهن سوى خدمة المنزل ولا يتكلمن الاّ مع ازواجهن وذوي قرابتهن واذا تكلمن مع الرجال يتكلمن بخجل واستحياء بخلاف ما رآه في الطليانية ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقًا في المخاطبة والمجاوبة والمحاورة والمسامرة وكان يرى الخادم يبداء في تقديم الطعام بهن قبل الرجال واذا طلبن شيئًا بادر بتقديمه اليهن من كان قريبًا منهن لا فرق بين صديق وغريب واجنبي وقريب فالكل محتفل باكرامهن كل الاحتفال ولا ياتي الاّ بما يسرهن من الاقوال والافعال فامعن في ذلك النظر واجال فيه قداح الفكر وقارنه في نفسه بعوائد نساء المشرقيين لينظر ايهما افضل فرأى ان عوائد المشرقيين اجمل واكمل لانها اعون على حفظ الشرف واصون للعرض من اسباب التلف

ولما انتهى امر الطعام وحان وقت القيام توجهوا جميعًا الى محل شرب القهوة فمنهم من اقام بها يقراء صحف الاخبار ونحوها ومنهم من خرج لاشغاله ومضى لحاله اما الانكليزي فتوجه مع الشيخ لحجرته ومعها برهان الدين وكان الانكليزي قد تفرس ما دار بخاطر الشيخ في اثناء الطعام الاّ انه منع نفسه من الكلام في ذلك المقام ولما استقر بهم الجلوس وساغ ابداء ما حاك في النفوس

المسامرة الثانية عشرة
النساء

قال الانكليزي قد اطلع سيدنا الشيخ في هذه اللحظة اليسيرة على كثير من عاداتنا واحوالنا ولا بد انه ادار نظره واجال فكره في المقارنة بينها وبين عادات هذه البلاد وتامل فيها تامل اعتبار وانتقاد فمن اجل هذه الفائدة قد رغبت في حضوره على هذهٔ المائدة

فقال له الشيخ نعم كنت اتامل فيما اراه من الاحوال لاسيما في اختلاط النساء مع الرجال فوجدت في اختلاطهنّ فوائد لهنّ من حيث انهن يتلذذن بما يرينه ويعلمنه من الحوادث والاخبار

وما يطلعن عليه من محاورات الرجال لكن ربما ترتب على هذا الاختلاط ما يخرجهن عما هو اليق بهن من الصيانة والحياء لان كثرة المخالطة والملامسة بين الرجال والنساء قد تفضي الى ضد ذلك فلا شك ان عادات المشرقيين ارجح ورايهم في احتجاب النساء عن الرجال اصح واصلح اذ ذلك مما يوجب زيادة ائتلاف المرأة باهلها ويوكد ارتباطها بزوجها وارتباطه بها وامنه عليها ورضاها بحاله بخلاف ما اذا كانت تنظر لغيره في جميع الاوقات وتطلع على معايش الناس مع اختلاف الحالات فان ذلك قد يحرك عندها الشهوات ويجدد لها لوازم ربما اوقعت بينهما المنازعات والمخاصمات فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل او انقسام العائلة ولهذه المصالح ورد شرعنا باحتجابهن واظن ان اصل شريعتكم لا يخالف ذلك وهو ايضًا مقتضى اراء العقلاء والنبلاء واكابر الحكماء قال علي كرم الله وجهه اكفف ابصارهن بالحجاب فان شدة الحجاب خير لهن من الارتياب وليس خروجهن باضر من دخول من لا يوثق به عليهن فان استطعت الا يعرفن غيرك فافعل . قال السمعاني

لاتامننَّ على النساء ولو أخًا * ما في الرجال على النساء امينُ
ان الامين ولو تحفظ جهده * لا بد ان بنظرة سيخونُ

وقال عمر الفاروق استعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر

فقال الانكليزي ان الذي ذكرت ايها الشيخ من المحذورات

لا تمنع منه العزلة بالكلية لان كل امرأة يمكنها ان تعلم كل شيء
وهي في منزلها بان تنظر من الشباك مثلاً فترى كل ما يمر بالشوارع
والحارات فتعرف اوصاف النساء والرجال واحوالهم فمن احبته
خاطبته وما اعجبها فعلته وحينئذٍ يكون حال من قعدت في
منزلها من النساء كحال من تكون مع الرجال سواء بسواء ومع ذلك
فالمرأة على حسب عوائدكم لم تمنع كل المنع عن الخروج من منزلها
بل تخرج لزيارة اهلها وجيرانها واحبابها من اهل البلد فيمكنها ان
تطلع على صفاتهم واحوالهم وتعلم درجة ثروتهم في منازلهم واذا اراد
منعها من الخروج فربما تعللت بان عليها ريحًا من الجن او بها
مرضًا من الامراض فلا تستريح الاَّ بزيارة بعض الاولياء او المضي
الى بعض النساء او تريد الذهاب الى الحمام او صلة بعض الارحام
ونحو ذلك من الاعذار والحيل التي يمكنها ان تبلغ بها الامل وهذا
كله فضلاً عن اخبار المترددين اليها بجميع ما يكون من اخبار
الناس وحوادثهم كل ذلك امر مشهور وواقع في بلادكم فلو صرح
لها بالذهاب الى اي جهة ارادت لما علمت زيادة عما تعلم ولا الم
بها اكثر مما الم فان قلت ان في العزلة بعض صيانة لعرضها ومحافظة
على شرف زوجها واهلها بتقليل خروجها من منزلها ومخالطتها
لغير بعلها اذ ليست من تخرج متى شاءت وتجتمع بمن ارادت في اي
وقت كان مثل من لا تخرج الاَّ باذن وسبب وعلة . قلت ليس
هذا اقوى في الصيانة من التربية بين اهلها واقاربها فان حسن

التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلل المروءة اللائقة بها وبزوجها واقاربها فكما لا يكتفى بمجرد العلم مع الحرية كذلك لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لا بد في كلا الحالين من حسن التربية في الابتدا لانك تعلم ان حسن التربية يهذب عقل الانسان ويصفي طباعه ويعوّده على الفضائل ويبعده عن الرذائل فهو زمام ذلك كله والقاطع لعرق الشبهة من اصله ولم ارَ هذه العادة المخالفة لعادتنا الا في بعض مدن البلاد الشرقية فاختصاصها بهذه المدن القليلة يدل على انها بدعة حدثت لاسباب طارئة فان جميع نساء الارياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب واهل المغرب وسواحل الشام وارض الحجاز لا يحتجبن عن الرجال وربما قمن مقام ازواجهن في بعض الاحوال كاكرام الضيف والاخذ والاعطاء مع الاجانب وكثيراً ما يكون امر المنزل وادارته موكولاً الى رأيهن وتدبيرهن وقد رأيت فيهن من عاونت الرجل في اعماله الشاقة وهذا كله بالاختيار من غير اكراه ولا اجبار فلولا ان الحكم بالعزلة لامر قهري وسبب جبري لما وجدت في المدن واظن ان هذه العادة ماخوذة من الاعاجم وسرت الى امثال هذه البلاد عند دخول التتار والترك بها واستيلائهم عليها فنشأ من عظمتهم وكبرهم احتقار غيرهم واكثروا للخدمة من الجواري وللفرش من السراري ولما اكثروا منهن خافوا عدم رضاهن بهم فمنعوا حرمهم من الدخول والخروج والاختلاط بالرجال

والزموهن البيوت والعزلة عن سائر الاجانب ومما يقوي هذا الظن اتخاذهم الاغاوات للمحافظة عليهن خارجًا وداخلاً فنجدهم ملازمين لهن موكلين بهن من قبل ساداتهن يخبرونهم بكل ما يحصل منهن من قول وفعل فتكون العائلة دائمًا في اضطرار ورعب وعذاب خائفة من ان تزل او يقال في حقها شيء لسيد المنزل وان كان هناك تلذذات منزلية فأظن انها وقتية وربما كان غالبها تصنعا وتكلفا وتطبعا لان اللذة الطبيعية لا تكون الا عند تساوي المتحابين وخلوص الود من الطرفين وقل ما يوجد ذلك بين السيد وجواريه او بينه وبين سراريه اذ لا مساواة بينها ولا نسبة فكيف يوجد الحب او يكون للألفة اثر بالقلب بل يكون بينهما غالبًا بعض وحشة وكدر وحيث لا يمكنها الانفصال لا يسعها الا الطاعة والامتثال والاعاشت في هم ونكد وكدر مستمر الى الابد وما تراه حولها من المستلذات والجواري والخدم والاغاوات وانواع الحلي وزخرفة المنزل والملبوسات لا يفيدها الا غما على غم وعيشة كعيشة من وقع بينهم عطر منشم فيتزايد ضررها خوفًا من ان يتمتع به غيرها لعلمها حينئذ بدرجته في السعة واليسار فلا تهنأ بحال ولا يقر لها قرار

فقال له الشيخ انا نرى هذه العادة الجارية عندنا لازمة عقلاً وشرعًا اما عقلاً فمن وجوه منها . ان الطبع البشري لا يستحسن ان يطلع احد على حرم غيره فضلاً عن حرم نفسه لما

ركّب في طباع اناث هذا النوع من الشهوة القوية الدائمة التي لا تزال الدواعي لاخمادها وكسر عاديتها قائمة في كل وقت على خلاف بقية الانواع الحيوانية فانك لا تجد الانثى منها تتحرك شهوتها وتشتد غلمتها الاّ في وقت معين من اوقات السنة حسب ما طوى في ذلك الخالق الحكيم من ايجاد النسل لابقاء سلسلة الانواع ولذلك تجد اناث الحيوانات ممتنعة بنفسها صادة ما يريدها من الذكور فكل الفة من الحيوانات التي طبعها التآلف والاختصاص كافية الفها مؤنة صيانتها وربما تقاربت اوقات سورة الشهوات في بعض الحيوانات المؤتلفة فمكنت غير الفها من نفسها فحصل بذلك مقتلة يقتل فيها القوي الضعيف وقد جعل هذا النوع ذا عقل يحكم به ويميز ما ينبغي وما لا ينبغي فلو ارسلت احاد هذا النوع على مقتضى شهواتها لحصل من ذلك فساد عظيم لا يحصل مثله بين البهائم

ومنها ان النساء عند الرجال كالاسرار ولا تسمح النفس باطلاع غيرها على سرها

ومنها ان مبادئ ميل النفس الى الشهوات انما هو الاجتماع والميل للشيء لا يكون الاّ بعد رؤيته فلذلك منعت النساء من التكشف بحضرة الاجانب وامرت بالاحتجاب عنهم غيرة عليهن وكرّاً لهذه المفاسد ولا تظن ان المنع من الاختلاط خاص بالنساء بل الرجال كذلك ممنوعون من رؤية النساء الاجانب والخلوة

بهنّ ذلكن لما كانت الرجال بمقتضى الحكمة الالهية هم الذين يقومون بمصالح المعاش وعمار الدنيا بنحو الفلاحة والتجارة والصناعة اضطروا الى الخروج من منازلهم للاسفار وتحصيل معاشهم واما النساء فلما لم يكن عليهن سوى خدمة المنزل الزمن بلا زمته . على ان المراة في بيت زوجها لا يلزمها الاّ تسليم نفسها له فلم تتخذ للخدمة ولا للطبخ ولا لغسل الثياب ولا لكنس البيت ونحو ذلك بل كل ما فعلته زيادة عن تسليم نفسها فذلك من لطف طبعها وحسن عشرتها مع بعلها كما روي ان رجلًا جاء بباب عمر بن الخطاب ايام امارته يشكو له سوء خلق زوجه عليه فبعد ان دق الباب سمع صوت امرأة مرتفعًا على امير المؤمنين تتناول منه وتؤذيه فالتفت الرجل راجعًا وقال في نفسه هذا حال زوجة امير المؤمنين فانا اصبر وكان عمر سمع دق الباب فخرج ووجد الرجل منصرفًا فناداه واستخبره عن شانه فقال وجدت عندك مثل ما جئت اشكوا اليك منه فقال امير المؤمنين ان النساء يخدمننا بما لا يجب عليهن يغسلن ثيابنا ويصنعن خبزنا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة وانما هي لحظة وتسير فليحسن خلقُك بحسن خلقك

وايضًا فما الفائدة العائدة عليها او على الزوج من مخالطة الاجانب فضلًا عن الكشف عليهم حيث ان الزوج قائم بجميع لوازمها ولوازم منزله فلا اقل من ملازمة منزلها اذ لا يعود من اختلاطها بالاجانب الا تضررها بزوجها او تضرر زوجها بها لانه

لو فرض ان زوجها فقير او متقدم في السن واجتمعت بمن هو اغنى منه او اصغر لبطرت معيشة زوجها وكرهت الاقامة معه وكذلك الزوج ربما عرضت له خواطر نفسية باجتماعها على اغنى منه او اصغر فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل وكما ان الرجل لا تسمح نفسه برؤية غيره لحرمه فكذلك المراة لا تسمح نفسها برؤيه غيرها لزوجها اذ النساء اشد غيرة من الرجال كما هو معلوم وايضاً فان غالب نساء المشرقيين بسبب تعودهن على القيام بالامور المنزلية وبسبب حرارة البلاد المشرقية يمتنعن من الخروج من المنزل بطبعهن واذا خرجن فلا بد لهن من الملابس التي نراها عليهن وقاية لوجوههن من حرارة الجو والاتربة لانهن لو لبسن ملابس نساء الافرنج لأثرت العوارض الجوية على اعضائهن وازالت بعض جمالهن ولذلك نرى نساء الافرنج لا يمشين الاّ بالشمسيات خوفاً من تلك العوارض وربما اعتكفن في الاوقات الشديدة الحرارة او ذهبن الى بلادهن وحيث لم تكن عوارض البلاد واحدة لم تكن عوائد اهلها واحدة لان النوع الانساني مجبول على ان يجعل احواله مناسبة لاحوال بقعته التي هو بها ومن تامل احوال الامم يجد هذا الامر عمومياً فطباعكم مناسبة لبلادكم وطبائعنا مناسبة لبلادنا

واما دلائل لزومها فالآيات القرآنية والاحاديث النبوية المنبهة على محاسن احتجابهن واعتزالهن عن غير محارمهن كثيرة

ولقد كانت العرب على عوائد قريبة من العوائد الاروباوية فكانت النساء يحادثن الرجال ويناشدنهم الاشعار ويناقلن الاخبار لكن كان امر الحرية وتصوّن النساء فيهن قويًا وكانت امورهم منكشفة لما كانوا عليه من ظهور البداوة ولم تكن متكاثفة عليهم الاستار المدنية فجاء الاسلام وهم على تلك العوائد فقام العقلاء من المسلمين منهم عمر بن الخطاب فقالوا يا رسول الله تغيرت الاحوال وكثر الاجتماع واشتد اختلاط الناس بعضهم ببعض من العرب وغيرهم وظهر الفساد من اختلاط الشباب فهلّا امرت بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم اومر بذلك ثم اوحي اليه كما هو شان الله معه حيث لا يوحي اليه حكمًا الاّ عند اقتضائه بحكم تغير العوائد ومن ذلك الوقت تواترت الايات والاحاديث بحجب النساء ومنعهن من الخروج واحدثت الاخلية في البيوت ولم تكن قبل عند العرب وشدد امر الحجاب على التدريج فكان اولاً منع النساء من الخروج نهارًا وكن يخرجن الى البراز عند اقبال الظلام فوقف عمر ليلة في طريق ذهاب نساء النبي صلى الله عليه وسلم الى البراز فرأى عمر احدى ازواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي سودة بنت زمعه فقال قد عرفناكِ يا سودة فرجعت ومنعن ليلًا ايضًا الا من الخروج الى المساجد للصلوات في موضع منها خلف الرجال كما هو ترتيب الصفوف الشرعي فلما ازداد اجتماع الناس من سائر النواحي وصار غير العرب اكثر من العرب اجتهد

عمر اجتهاداً دينياً في منع ذوات الهيئات من الخروج الى المساجد حتى ان زوجة له خاصمته في ذلك وقالت من هو افضل منك لم يمنع النساء من المساجد فتركها وخرجت الى المسجد فخالف اليها الطريق وجاءها من حيث لا تشعر فضربها على عجيزتها فرجعت وهي تقول نعم ما رأيت يا امير المؤمنين فقد فسد الزمان ولمثل ذلك سبقت الاشارة من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال اعروا النساء يلزمن البيوت

انما يلزم المرأة شرعاً اذا ارادت الخروج ان تستأذن زوجها لانها لو خرجت من غير اذنه كان على جهل من احوالها فربما يسوء الظن بها فيحدث له عند ذلك اوهام ربما جرت الى النزاع او الفرقة واذا اذن لها زوجها بالخروج يلزمها ان تكون في هيئة الكمال والوقار على حسب الحال من الاعسار واليسار فجميع ذلك لم يكن فيه احتقار لهن ولا ازدراء بهن بل هو من باب التعظيم والاحترام والصيانة اذ المرأة عند الرجل كالجوهرة النفيسة يجب صيانتها عن كل ما يشينها او يشين عرضها كما ان الجوهرة تصان عن كل ما يضر بلونها او يغير شكلها او يبخس بقيمتها واما ما قد يتفق من ان بعض النساء يخرجن من منازلهن او يتكلمن مع الاجانب فذلك لا يكون منهن الا لضرورة والضرورات تبيح المحظورات فان لم يكن الخروج والاجتماع لضرورة ولا عذر شرعي بل كان لمقاصد شهوانية فذلك نادر وهو لا حكم له بل الحكم

للغالب وهذا النادر كما يتفق في نسائنا يتفق في نسائكم من غير فرق بيننا وبينكم

واما ما كان من امر الاغاوات فلم يكن اتخادهم امرًا قديمًا وانما هي بدعة دخلت بلادنا ولم تكنْ من عوائدنا السابقة ولا اللاحقة ولم يرد بها شرع فلا ينسب الينا ما خرج عن حدوده فكم من بدعة حدثت على ان هذه البدعة لم توجد الاَّ عند بعض الامراء لزعمهم ان الاعتبار لا يتم الاَّ بها او انها علامة على العظمة وعلى حسب حال الامير وتعدد زوجاته وسرايره تتعدد الاغاوات ومع ذلك لم يقصدوا باتخاذهم لهم الاَّ اكرام النساء وتعظيمهن واما جميع الاهالي على اختلاف طبقاتهم فلا يتخذون الاغاوات ولا حاجة لهم بهم وان وجدوا عند بعضهم فذلك نادر ولا يكون الاَّ تقليدًا بسبب تشبهه بالامراء العظام فلا يحكم على الامة كافة بما وجد عند البعض ولا ينسب الى الشرع ما حدث بالبدعة فلم تكن العرب تعرف خصاء الانسان اصلًا وكان شائعًا في الروم فلم يرد في الشرع نص في امر استعمال الخصيان هذا الاستعمال القائم بين الناس غير ان الكتاب العزيز تعرض في احكام النساء الى الرجال الذين لم تخلق فيهم الفحولة وهم المعبر عنهم بغير اولي الاربة والاربة حاجة الرجال الى النساء في امر جواز ابداء زينتهن حكم بامتناعها وحرمتها الاَّ على اجناس من القرابة وغيرهم منهم اولئك الرجال فكان امر استعمال الخصيان من الامور الاجتهادية فلما اتسع

الاسلام ودخل بلاد الروم واطلعت العرب على الخصيان رأى امير المؤمنين معاوية رضي الله عنه رأيًا مذهبيًا بالقياس على غير اولي الاربة جواز استعمال الخصيان فلما اقتنى منهم من اقتنى واراد ان يدخله على بعض نسائه امتنعتْ من ذلك فاحتج بكونه خصيًا فقالت له ان المثلة به لم تحل منه ما حرم الله ولم ير غيره من اهل الاجتهاد جواز ذلك فكان استعمال الناس للخصيان تقليدًا لمذهب معاوية رضي الله عنه فهو من الشرعيات الاجتهادية دون النصية ولقد ترتب على ذلك من الاثار المذمومة ما لو اطلع عليه معاوية لكان عساه ان يحكم بتحريمه فقد يطرأ على الخلق ما ليس من طبائعها ويحدث في عوائدها ما يخالف دينها وشرائعها وبعد ذلك لا يمكن ازالته فيكون كالدآت التي تستحكم بالجسم فتوهنه ويجتهد من ابتلي بها في الشفاء منها فلا يمكنه ومن هذا القبيل الاغاوات بل هم اضر على ساداتهم من الداء بدرجات فان ضرر الداء قاصر على صاحبه واما ضررهم فتعد من رب المنزل الى عائلته وحاشيته واقاربه فمن تامل حال الاغاوات مع ساداتهم وجد ان السيد ما جلب لنفسه الاّ ضررًا وما اكتسب باتخاذهم الاّ مخالفة الشريعة الغراء وتمكين غير عشيرته من الحكم على اهل بيته وعائلته مع ان الامور المطلوبة منهم يمكن الحصول عليها بغيرهم كامرآة عجوز او بنت او ولد صغيرين وعلى اي حال ففائدتهم لا تفي بضررهم لان غالب النزاع والفساد الذي يوجد في البيوت لا يكون الاّ بسببهم لما

يلقونه من الفتن بين السيد وعائلته او بين العائلة وبعضها او بين صاحب البيت واحبابه بما يزخرفونه من القول والفعل ويختلقونه من التزوير الذي ليس له اصل وكثيرًا ما يكونون سببًا في غضب الزوج على عائلته وشذوذ الزوجة عن طاعته او خروجها من بيته فيكون سببًا في زوال نعمتها وعدم الراحة بينها وبين رب المنزل وبالجملة فلا حصر لما ينشاء من اقوالهم وافعالهم بل كثيرًا ما اتفقت الاغاوات والحرم على اتلاف رب المنزل وفقده وكتب السير مشحونة من هذه الاخبار وفي ذلك عبرة لاولي الابصار

فقال الانكليزي كيف من يكون قدوة لغيره ينحرف عن الصواب ويدخل مدخلاً لم يكن لحسنه في الشريعة ولا في العقل باب فان الامراء بالنسبة للرعية في كل زمن على الاطلاق كالكواكب والشمس المضيئة في الافاق فكما ان كل احد ياخذ منها ما يلزم لحياته من الحرارة والضوء وما يقي به نفسه من السوء كذلك الامراء تاخذ الرعية من عوائدهم واخلاقهم ويقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم فاهل القرى يقلدون مشايخها وعمدها واهل المدن يقلدون امرآها واعيانها وكذلك الامراء تقلد ساداتهم ورؤسائهم فان كانت الامراء سائرة سيرًا حسنًا انتشر ذلك في افراد الرعية فصلح حالها وقويت شوكتها وعلت شهرتها والاَّ انقلب الحال واخذ في الاضمحلال فان الناس بالنسبة لامرائهم كالاطفال بالنسبة

لمعلميهم وذلك امر ظاهر لا يحتاج الى دليل ولا توضيح ولا تمثيل
فكل احد يحب ان يتشبه بمن يقرب منه على حسب طاقته فكما ان
الدآءت تسري بالملامسة كذلك عوائد الامراء تسري لاتباعهم
وتنتشر من بلد الى بلد حتى تعم القطر. الا ترى ان اصحاب الوظائف
تبع لرئيسها فان كان الرئيس قائمًا بما يجب لها مؤديًا جميع حقوقها
قام كل منهم بما هو مفروض عليه من غير كسل ولا تساهل
ولا ملل وتحصلت ارباب الحقوق على حقوقهم باوقاتها والعكس
بالعكس ولا يخفى عليك ان كل انسان لا يلوذ به الاّ من يتشاكله
ويجانسه وفي اوصافه يماثله فاصحاب الكبائر من الامراء لا يلوذ
بهم الاّ مثلهم وكذلك ذوو الفضائل منهم وهكذا اهل كل منزل
بالنسبة لرب المنزل فاخلاقهم وعوائدهم مكتسبة من اخلاقه
وعوائده فان اكثر من الموبقات والملاهي وانواع الشهوات سرى
ذلك في اهل بيته وعائلته وذريته وان استقام وقام بما يجب عليه
حق القيام تبعته عائلته وذريته وحاشيته وقياسًا على ذلك حال
كل راع مع رعيته فان حافظ على ناموس شريعته وقوانين ملته
تبعته رعيته فكثر خيرها وان سلك طرق الفساد اختل امرها
واتضع وفسد حالها وتضعضع ومن تامل احوال المتقدمين يرى
ان كل طائفة تبع لسير من تبعته فتارة ترتفع وتارة تتضع فكم من
قوم مضى عليهم اوقات زهو وظهور ثم انحط امرهم بعد ذلك وقصمت
منهم الظهور ثم بعد انقضاء مدة من الزمان عاد لهم حالهم الاول

او احسن مما كان وذلك كما يحصل لذرية الرجل من الفقر والفاقة بعد موته وان كان ترك لها اموالاً وعقارًا وعزًا ووقارًا فيمحى اثرها بالكلية وبعد زمن يتجدد لها رونقها الاول على يد ناجب من الذرية يلم شعثها ويصلح وعثها فيعود لها مجدها ويرجع اليها سوددُهَا ما ذاك الاّ لتفريط الذرية وخروجها عن الحدود الاصلية فلو حافظوا على فخرهم وشرفهم واتبعوا قوانين سلفهم ورفضوا اغواء الغاوين ولم يقتدوا براي المفسدين لاستمروا على سعدهم ولم يحتاجوا الى من جاء من بعدهم بل ربما زادوا عن الاصل وتضاعفت عليهم حلل الفضل ولا سيما اذا انضم الى ذلك ما يعلمونه من الاصطلاحات المتجددة بتجدد الاحوال والاوقات فان النصيحة لا توخذ عمّن اشتهر بالفساد او عرف بدناءة بين العباد لو كان من المتملقين واهل النفاق لو من ارباب المعاصي على الاطلاق لان مثل هولاء وان جلت معلوماتهم وحلت كلماتهم لا يقصدون الاّ التوصل الى اغراضهم فلا يصلحون دليلاً في الامور الدنيوية ولا قدوة في الاحكام الدينية بل لا توخذ النصيحة الا عمّن عهد عليه الصدق وعرف بين الخلق باتباع الحق وكذلك الشريعة لا توخذ الاّ عن اربابها والكلام في هذا المعرض متسع وان اردت الزيادة ففي وقت اخر تستمع فان ما قلته لك بعض ما يقال اقال الله عثرتك في من يقال

قال الشيخ ما احسن هذا الكلام واوصله الى اقصى المرام

فان النصيحة لا يكون لها تاثير حتى تصدر عن حر الطبع تقي الصنع بالفضائل بصير كما يحكى ان رابعة العدوية وقفت يوما على واعظ حوله جم غفير وهم عنه لاهون فقالت له كيف يداوي العليل من هو سقيم فانشد

فخذ بعلمي ولا تركن الى عملي

ينفعك علمي ولا تضررك اوزاري

ان الرجال كاشجار لها ثمر

فاجنِ الثمار وخلِّ العود للنارِ

فقالت له لا والله حتى يكون عملك على وفق علمك وانشدت

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها

فاذا انتهت عنه فانت حكيم

لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله

عارٌ عليك اذا فعلت عظيمُ

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا

كيما يصح به وانت سقيمُ

فعند ذلك قام الواعظ واجتهد في تطهير قلبه وسعى المساعي الحميدة فمرت عليه بعد ذلك ذات يوم فوجدت من حوله ما بين باك ومغشيٍّ عليه فقالت له كيف رأيت فبكى وقال نفعك الله ياسيدتي ونفع بك

قال الانكليزى كذلك يكون فان منبع الخير طهارة يقتدى به من العلماء والامراء وها نحن قد تهيئنا للسفر فان كان في بيتك تحرير خطاب للعائلة فاكتبه الليلة فان مركب الوسطة يقوم بعد ظهر غد ومتى طلع النهار اشتغل الانسان بأمور شتى فربما يطرا عليه ما ينسيه او يحصل له شاغل يلهيه فقال له الشيخ جزيت عني خيرا فقد اظهرت ما اضمرت في نفسي ان اسألك عنه

المسامرة الثالثة عشرة

البوستة

فقال الانكليزي الامر الان ممكن من غير صعوبة لان البوستة بالديار المصرية وكذلك في البلاد الاوروباوية مصلحة قائمة بذاتها من شأنها استلام الخطابات والجوابات من اربابها باجرة معلومة على حسب وزنها وهي ملزومة بتوصيلها الى محل ارسالها مع غاية الامنية وهذه المصلحة ليست مخصوصة بتوصيل المخاطبات بل تستلم النقود والجواهر والفواتير المرسلة من قبل التجار كذلك ولها قانون تجري على مقتضاه ولها خدمة مختصون بها لهم مرتبات على قدر وظائفهم وناظر عمومي وحساب تلك المصلحة يقطع سنويا

بمعرفة ناظر المالية

فقال الشيخ وهل هذه المصلحة مخصوصة باهل مصر واسكندرية ام عامة لجميع الجهات المصرية من المدن والقرى وكيف سهولتها في النقل

فقال الانكليزي انه سهل جدا بواسطة وجود السكة الحديد لان المصلحة جعل لها جملة مكاتب في المدن وبعض محلات شهيرة في الجهات البحرية والقبلية من القطر وفي المدن الكبيرة مكاتب مركزية فالخطابات بعد تظريفها وختمها يوضع بعنوانها الجهات التي يراد الارسال اليها واسم الذي تسلم اليه ثم توضع في صناديق او علب على هيئة مخصوصة مثبتة في حائط المكاتب ثم تجمع هذه الخطابات وغيرها في المكتب المركزي في اوقات معينة وتوضع في مخالي او علب تسلم لاحد مستخدمي البوسطة مع النقود والاشيا الثمينة ان كانت بمقتضي سندات بيد اربابها فياخذها احد الخدمة المذكورين ويسافر بالعربة المخصوصة لذلك وعند مروره على كل محطة يسلم لوكيل البوسطة الذي في تلك المحطة ما كان مختصا بجهته وهكذا . ثم يصير توجيهها الى اربابها بمعرفة الوكلاء بمقتضى سراكي معلومة بينهم واما الاجرة فتارة توخذ من المرسل اليه وتارة تاتي له خالصة الاجرة اذا كانت دفعت وقت الارسال ويعلم ذلك بعلامات توضع على ظهر الظرف معروفة فيما بينهم وبما ذكر صار الامر هينا وهذه من فوائد تلك

المصلحة ومنها انه يتأتى بها للتجار الوقوف على حقيقة تجارتهم واجراء حركاتها بالسرعة التي يريدونها فان اراد احدهم الوقوف على امر شريكه او صاحبه او من يعامله ارسل الخبر بالتلغراف فياتيه الجواب حالا ولا يستغرق الا بعض دقائق وان كان الامر يلزم له زيادة توضيح ارسله بالكفاية في البوسطة على الوجه الذي ذكر أوّلا وفي بعض الاحيان يرسل الخبر أولا بالتلغراف مجملا ثم يتبعه بطريق البوسطة مفصلا فمن ذلك حصل لامور التجارة انقلاب حسن محسوس بسبب سرعة تواصل الاخبار بين مراكز التجارة وهذا بخلاف ما كان في الازمان السابقة لان الاخبار اذ ذاك كانت لا تصل الا بالمكاتبة فكان يمضي عليها ايام في اثناء السفر وربما لا تصادف الوقت المطلوب وبهذا كان يضيع على التجار اغلب الفرص لانها كانت تابعة لسير تفويض لاحظ للنظر فيه كما تحكم به طبيعة الحال واما الان فقد تمكن التاجر في وقته وساعته من العلم بما يلزم مشتراه وما يجب التصرف فيه وبما راج منها وما كسد اذ بواسطة التلغراف والبوسطة في البر والبحر صارت جميع بقاع الارض متصلة ببعضها والاخبار واردة من جميع جهاتها مع السرعة التامة اذ في ظرف الاربع والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع جهات المعمورة ولا يخفى عليك ان النوع الانساني بحسب ما جبل عليه من تطلبه زيادة السعة تجدد في معلوماته هذا السر الذي كان كامنا في الخلقة فاستعمله وانتفع به فزادت بذلك ثروته

واما في الازمان السابقة فكانت المخاطبات والاخبار بطيئة الوصول لانها كانت ترسل مع احد الاحباب او المتوجهين للجهات فيطول الزمن ويضيع وقت انتهاز الفرصة الى ان حصل بعض رفاهية وتقدم فاتخذت السعاة ثم الخيل وبعد ذلك وضعوا بسطا على ابعاد متساوية فكانت هذه الطريقة اسرع من الطريقتين قبلها لكنها كانت في مبداء الامر خاصة بالملوك والامراء ولم يصرح لعموم الناس بالانتفاع بها الا فيمابعد فاتسع هذا الامر واستعملته جميع البلاد وحسنت قوانينه فعم نفعه ولما فشا امر التجاره واتسع في البر والبحر وزادت علائق التجارة بين الملل احتاجوا جميعاً الى استعمال هذه البوسطة للحصول على مقصودهم في اقرب زمن وقد كان حتى صار من احسن نظامات الدول واكبر مولف بين الملل وكانوا قديما في البلاد المشرقية كمصر والشام يستعملون الحمام في توصيل الاخبار كما يعلم ذلك من اطلع على تواريخ المتقدمين ويقال ان اول استعماله كان من رشيد الى دمياط وقد اختلف في اول من رتب البوسطة ونظم لها اربطة موزعة في الطرق فذكر بعض المورخين انه (دارا) ملك الفرس وقيل (دارا) ملك (الديلم) وفي بلاد الروم (قيصر) وفي بلاد فرانسا شرلماني فاوسعوا في دائرتها وما زالت يتسع امرها شيأ فشيأ الى ان صار لا يخلو قطر من الاقطار عن بوسطة حتى انه يوجد في بعض المدن الكبيرة مثل التخوت بوسطة مخصوصة بنقل الخطابات من حارة الى حارة فيتجه خادم

البوسطة من غير انحراف ولا سوال من احد الى ان يصل المنزل الذي يقصده وذلك لان رسم المدن وخرطتها مبين فيه اسماء الحارات ومواقعها والعطف والشوارع وللمدينة قاموس وخرطة ودفتر مشتمل على اسماء السكان ووظائفهم فمتى راجع الخادم الخرطة والقاموس اهتدى لمقصوده فيتم ماموريته من غير مشقة الاّ ان القاهرة وان كان بها نمر موضوعة على المنازل والحارات والعطف لكنها غير كافية حيث لم يكن للبلد رسم ولا قاموس فمن ذلك يحصل لخدمة البوسطة في اداء الوظيفة بعض مشقة لكن اذا اخذ المسافر قبل سفره الاحتراسات اللازمة بان اتفق مع بعض اصحابه او خادمه على التوجه للبوسطة في ايام معينة لياخذ الخطابات ان كان هناك امتنعت الصعوبة وكذلك اذا اتفق مع احد من الناس المشهورين ويحرر خطاباته ويجعلها في ظرف ويكتب على ظهره اسم ذلك الشهير فيكون كالوكيل عنه

فقال الشيخ لم يخطر هذا الامر ببالي ولم اعرف غير ما كنت اعهده من قبل حين كنت ارسل بعض خطابات لوالدي المرحوم فكنت اذا اردت ارسال خطاب انتظر اليوم او اليومين فلا اجد من ارسله معه وربما اتوجه بالخطاب الى ساحل البحر لأعثر ببعض التجار فلا اجد احداً ممن اعرفه فارجع ثم اعود واذا صادفت منهم احداً واخذه مني فكثيراً ما يفقد واذا سهل المولى ووصل الخطاب الى والدي لا يأتيني جوابه الاّ بعد شهر من

تاريخ الخطـاب واما بهذه الكيفية فقد سهل الامر الا اني لا اعرف احداً من مشاهير مصر لاني مدة اقامتي بالجامع الازهر ما كنت اخرج منه الا الى منزلي بسبب اشتغالي بطلب العلم وكذلك نمرة المنزل لا اعرفها لاني ما كنت ارى لمعرفتها لزوماً خصوصاً والمنزل ليس ملكاً لنا فاظن ان الحالة ما حالت والصعوبة ما زالت

فقال الانكليزي لا بأس عليك في ذلك ولا عدم الدهر وجود امثالك خطاباتك ارسلها مع خطاباتي لاحد احبابي بالقاهرة والزمه بتوصيلهـــا الى اهل منزلك واؤكد عليه باخذ المكتوب منهم وارساله الينا فشكره الشيخ ودعا لهُ وانصرف الانكليزي ليقضي اشغاله

المسامرة الرابعة عشرة

المكاتبة

واما الشيخ فاخرج الدواة والقرطاس واعتزل هو وابنـــه بعيدين عن اعين الناس وحرر خطاباً لزوجته ضمنه نصائح وحكما من فكرته وصورته

السيدة المصونة والدرة المكنونة بن لا اصرح باسمها ولا يغرب عن خيالي لطف طبعها ورسمها حضرة قرة العينين وزوجتنا ان شاء الله في الدارين . اما بعد بث الاشواق وابلاغ ما اكابد من الم الفراق فنعرفك اننا بفضل خالق البرية قد وصلنا بالصحة والسلامة الى ثغر الاسكندرية وبمشيئة اللطيف القادر نركب البحر في غد ونسافر صحبة رفيقي وعزيزي حضرة الخواجا الانكليزي قاصدين بلاد الانكليز فلا تهتمي بامرنا ولا تشتغلي بغيابنا وسفرنا وخلاصة القول بالاختصار والايجاز اننا في غاية من الاعزاز شاكرون من صاحبنا لزيادة التفاته وموآنسته

يزيد تفضلاً وازيد شكراً * فذلك دأبهُ ابدا ودأبي

واما ما كان من امر ولدنا برهان الدين فقد اخذ في مبادي اللغة الانكليزية واصول اللغة العربية وان شاء الله ببركة دعاء والديه يحصل على ما تقر به اعيننا وتنشرح لهُ خواطرنا واني لراضٍ عنه لما فيه من الادب والامتثال والاجتهاد فما من يوم الا وتظهر عليه بشائر الفلاح وعلامات النجابة والنجاح فنسال الله ان يفقهه في الدين ويمنّ عليه بحسن اليقين حتى ينفع اهله والمسلمين

واما من قبل ما عندك من الاخوات والاولاد فارجوك ان لا تكتمي عنهم شيئاً من طرق الرشاد وان تكرري عليهم ما جمعناه في كتابنا المؤلف ايام طلبنا الموسوم بالارشاد لتربية الاولاد

ففيه الكفاية والاولى عدم ارسالهم الى الكتاب لتكون تربيتهم في المنزل تحت نظرك وتلاحظي حركاتهم وسكناتهم واخلاقهم فاني اخشى من اختلاطهم بغيرهم من الاطفال ان يتطبعوا بطباع غير مرضية فتضرّ بهم في كبرهم لانهم الآن في سن التعلم والواجب ان تصان طباعهم مما يخشى عليهم منه فان انتِ اخترتِ لهم محلات من محلات المنزل ونقيته من الاتربة والاوساخ والقمامات ووضعت فيه حصيرًا او شيئًا من المفروشات كان اولى من ان يتوجهوا الى الكتاب فتتسخ من التراب ملابسهم وتضيق من القعود على البلاط منافسهم ويدب اليهم القمل من كل حدب فيخل بصحتهم وربما نشأ منه داء الجرب خصوصًا ولبعض المؤدبين عوائد قبيحة فلا نعرض اولادنا لها اقلها تكرار شتم الوالدين والاتيان بحكايات كاذبة وعبارات فاسدة يكررونها من اول النهار الى اخره ما دام الطفل عندهم فربما يحفظها فتضر بتصوره وعمله فاني الى الان راسخ في ذهني ما كان مرتبه عليّ مودبي في صغري ان اتي له بشيء من المنزل فكنت اتحايل تحايل اللصوص حتى اختلسه وأتيه بهِ وان امتنعت او اتيت باقل مما طلب توعدني او ضربني وكان احيانًا يعاملنا معاملة الخدم فمنا من يخدم الزوجة فيملاء لها الزير ويكنس البيت وينفض الحصير ومنا من يخدمه فهذا يهيء له غذاه ويقليه وهذا يملاء السبيل ويوصيه وهذا يدق له النشوق وهذا يجمع له النوى من السوق وهذا يجمع القوالح للقهوة وهذا

يكون بيده مفاتيح السهوة وهكذا ولا يخفى ان الطفل لقصر عقله لا يعلم ما فيه مصلحة لنفسه فيميل بطبعه للعب فكنا نحب خدمته اكثر من حبنا للتعلم فكان كثير من الاطفال تمضي عليهم عدة سنين بلا فائدة فان تعلم شيئاً كان ضرره اكثر من نفعه وربما اكتسب في مدة الاقامة اوصافاً ذميمة فتصير له كالطبع ويتعذر على اهله تحويله عنها فيما بعد فتستمر معه بقية عمره فارجوكِ ان لا تبعثي الاولاد الى الكتاب ولا عليكِ مما يلزم لهم من المصرف فقد غمرني الله بنعمته واجزل عليَّ عظيم منته ولا يخفاكِ ان من مهم ما يجب على الانسان في ماله ما يصرفه بتربية اولاده وَفِلَذِ اكباده وانتِ تعلمين ان اولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة وارض ذليلة فان غضبوا فارضيهم وان سألوا فاعطيهم وان لم يسألوا فابتدئيهم ولا تنظري اليهم شزراً فيملوا حياتك ويتمنوا وفاتك وبحسن التربية تنصلح حالهم ويعلو بين الناس شأنهم ولا شك في انك تحبين ان تظهري نعم الله عليهم فتاتي لهم بما يوافق حالهم من الملبس والمآكل فان فعلت ذلك ورأفت بهم واشركتهم معك في الاقوال والافعال وسلكت بهم طريق التدريج ثبت في ذهنهم ما تلقينه اليهم من القواعد الدينية والالفاظ الادبية وكلما تقدموا في السن قويت قواهم البدنية وحواسهم العقلية فاذا بلغوا اشدهم لا يكون للاوهام الفاسدة على عقولهم تأثير فيثبت يقينهم ويصح ايمانهم وبما يتعودونه في الصغر

من الاخلاق المرضية تنعطف نحوهم القلوب وينتشر لهم بين الخلق سيرة حسنة ومن حسن سيرتهم وخلوص نيتهم وسريرتهم يغمرهم الله بنعمته ورضوانه ويدخلهم مع الذين انعم عليهم غرف جنانه وإذا اخترت مؤدبا فالاولى ان يكون موصوفا باوصاف اهل الكمال ذا فقه ووقار وسكينة وجلال وان يكون في فن الحساب كاشفا عن وجه مخدراته النقاب وفي فن اللغة والأدب كانما حفظ لسان العرب وفي العقيدة اشعريا وفي الاخلاق احنفيا وفي علم السير بحرا وفي الحديث كأنما تحت بحرًا ولا يلزم ان يقيم معهم طول نهاره بل يكفي ان ياتي لهم في وقت معين والاولى ان يكون بعد وقت افطاره ثم يخرج بعد ان يقسم لهم اليوم نصفين نصف يشتغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الاخر يلعبون فيه والاولى ان تكون حصة اللعب متخللة بين اوقات التعلم والمذاكرة لئلا يطول عليهم الجلوس فتخمد فكرتهم وتضعف بنيتهم وارجوك منع الضرب مطلقا وان تسلكي بهم طرق النصيحة والاسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القريحة كان تهدي للمجتهد منهم بعض تحف من ملبس او ماكل او كتب او مصحف ونحو ذلك مما تميل اليه الاطفال على حسب ما يظهر لك من الاحوال فان ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم اكثر مما يكون بالاذى والضرب فان الضرب يوثر في الاعضاء الظاهرة فقط وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن بخلاف ذلك فانه يوثر في الباطن وتبقى لذتها

لمن اغتنمها والمها لمن حرمها ما دامت الهدية وايضاً فان الضرب يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف في ضربه عند حدّ العقاب بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب المضروب فربما اضر باعضائهم او ترتب على الخوف والرعب البحث عما يخلصهم من يده فيحتجون بكل ما امكنهم من الحجج من غير تمييز بين قبيحها ومليحها حتى ينجوا من يده وربما الجأتهم الاحتجاجات والتعللات الى اسباب الدناءة وخسة الطباع فتبقى فيهم طول عمرهم وحيث ان مقصود الاباء في تربية اولادهم ليس الاّ اكتساب الشرف فمن الواجب ان لا يعرضوا اولادهم حال صغرهم لما يخل بهذا المقصد وان يختاروا لتربية اولادهم مؤدبين موصوفين بالادب والرأفة وحسن الفعال حتى لا يصدر عنهم الا ما كان حسناً وبسبب ما عندهم من الرافة يعاملون الاطفال بما يناسب سنهم فيبتدئون لهم بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم منها الى ما فوقها وهكذا فيميلون من انفسهم الى التعلم وحب العلم خصوصاً اذا ارشدهم الاستاذ على ما في كل كلمة او حكمة القاها اليهم من الفائدة الدقيقة واستعمل في مخاطبتهم الالفاظ الرقيقة فارجوك ان تعملي بنصيحتي وان تخبريني في كل خطاب ترسلينه اليّ عن حال كل منهم ودرجته خصوصاً عن حال اخواتي البنات وقد اتفقت مع صاحبنا الانكليزي على ان يكتب لصاحبه بمصر باستلام ما ترغبين ارساله من الخطابات وهو يرسله الينا ولا باس ان

تخبريني بما عندك من اخبار البلاد لان الانسان في غربته يشتاق الى مسقط راسه واصل تربته وفيما سطرته في هذه الدفعة كفاية وان شاء الله تعالى اشرح لك جميع ما اراه و يناسب ذكره من الحوادث وامور البلاد التي نقصدها لتقفي على اثارنا وليكون عندك علم من اخبارنا

واما ما تعهدينه من اكيد الود وقديم العهد فهو باقٍ لا يغيره بعد ولا فراق ولو علمت ما بي من تذكري اياك حال اغترابي لم ترقأ لك دمعة ولم تهدأ لك لوعة

اما وجلال الله لو تذكرينني
كذكريك ما كفكفت للعين ادمعا

وانت تعلمين ان هذا السفر لم يكن لي ببال ولم يكن له في خاطري مجال ولكن ما قدّر يكون وكما قدر بالسفر والغياب يقدر بالعود والاياب

الناس في طلب المعاش وانما * بالجد يرزق منهم من يرزق

فكوني من الصيانة علي ما اعهد واحفظي ذاك الود والمعهد وتذكري ما كان من امر الطائي مع نديم النعمان وما جمعناه اوقات المسامرة ولا بأس بتلاوته على الاولاد اوقات المذاكرة واستديمي الاحتجاب واذا تناولت شيئاً فليكن من وراء حجاب وبلغي الاولاد والاخوات اني راض عنهم ما داموا على الاستقامة وقد تركت لك عشرين جنيهاً كل شهر عبارة عن ثمانية وسبعين الف فضة يأتيك

بها وكيل الخواجا في اخر كل شهر كما حرر له بذلك واذا لزم
الامر لاكثر فاطلبيه من الوكيل المذكور على سبيل الاستقراض
فقد اذن له صاحبنا الخواجا بذلك اغدق الله عليكم خيره الجزيل
وردنا اليكم الرد الجميل حرره ببنانه وحرره ببيانه
الفقير علم الدين
خادم العلم الشريف

المسامرة الخامسة عشرة
الملاحة

وختم الجواب وظرفه وعند الصباح توجه الى الخواجا وسلمه له فاخذه منه ووضعه داخل مظروفه وارسله الى البوسطة ثم توجهوا جميعًا الى مكتب الكومبانية لاخذ تذاكر السفر فاخذ الخواجا للشيخ وولده تذكرتين من الدرجة الاولى اكرامًا لهما ثم بعد ذلك توجهوا الى اللوكندة واخذوا امتعتهم وانزلوها بعربة وتوجهوا الى ساحل البحر ومن هناك اخذ الخواجا قاربًا وساروا الى ان وصلوا المركب فتحولوا اليها واخذ كل منهم في ترتيب امتعته في القمرة المعدة لهم وبينما الشيخ يقرأ ايات التحفظ ويذكر ربه في نفسه

من غير تلفظ ويحلو ورد البحر ويتبرك وانا بالمركب للسير يحرك فتوهم الانكليزي انزعاج الشيخ من ركوب البحر كما كان عند ركوب وابور البر فاتى اليه واقبل يعذب الفاظه يسليه وقال ياحضرة الشيخ لا تنزعج ولا يكن في صدرك من ركوب البحر حرج

فقال الشيخ يا حضرة الخواجا ومن كشف عن غامض العلم سياجه ليس الامر كما فهمت وانما تذكرت الاهل والوطن فهمت اذ لا يخفى عليك ياذا البصيرة ان في هذا الوقت يتذكر الانسان اولاده وعشيرته واحفاده ويحن الى احبابه ووطنه وملعب اترابه وعطنه ويأسف على مفارقة مألوفاته وما تعود عليه ايام اول حياته وقد انضم الى ذلك ما خطر ببالي ما يكون اليه عند انتهاء السفر مآلي وكيف تكون هناك الاقامة وهل اعود الى وطني بالسلامة فقد قيل من علامات الرشد ان تكون النفس الى بلدها تواقة والى مسقط راسها مشتاقة ولا يخفى عليك ايها الرفيق ما أوصى به نبي الله يوسف الصديق ان يحمل تابوته ليدفن عند ابائه الى ان جاء موسى الكليم فاخرجه من اليم وحمله الى مقام ابائه ودفنه ثم وما ذاك الاَّ لحب الوطن ولكني تناسيت هذه الاوهام وأسيت قلبي من الم هذه الاسقام وتأسيتُ بما قاله الافاضل الاخيار في مدح التنقلات والاسفار منها قول سيد البدو والحضر . لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ويقال الحركة وَلُودٌ والسكون عاقر . وقوله

وما في الاَّ بلدةٌ مثل بلدتي * خيارها ما كان عونًا على دهري

وقوله
وكلّ بلاد اوطنتك بلادُ

وغير ذلك مما لو استقصيته ما احصيته

ولما كان الشيخ من العلماء العاملين لم يكن عنده من هذه الامور الاَّ مجرد تذكر وخطور واما قلبه فكان في غاية الراحة والاطمئنان مستحضرًا تغيرات الزمان وتقلبات الحدثان دائم التذكار لقول الله الواحد القهار يقلب الليل والنهار ممتلاً بهجة وسرورًا منقادًا لمقتضى قوله تعالى كان ذلك في الكتاب مسطورًا

فالتفت حضرته الى الانكليزي وقال له لا يشك عاقل ان كل صنعة تدل على صانعها وعظمها يدل على عظمه ومن اعظم الادلة على عظم الخالق وقدرته خلق هذا البحر وتسخيره فانظر كيف اجراه بقدرته وجعل له مسالك بتدبير حكمته وخلق فيه خلقًا متنوعة الاشكال وجعله مقرًا للجواهر واللآل وخص كل نوع من ذلك بمنافع واسكنه فيما شاء من المواضع فسبحانه ما اعظم شانه واظهر برهانه واعظم من هذا البرهان تسخيره كغيره لنوع الانسان فانظر كيف هداه الله بعقله الى ان جعل السفينة في هذا الشكل العجيب والوضع المحكم الغريب واضاف اليها من تفنناته وبديع اختراعاته ما صارت به في ادارته وسارت بارادته ومكنه من العناصر حتى صارت طوع يده فترى الريح مع قوتها والبحر مع ميوعته والحديد مع صلابته والخشب مع مرونته كل ذلك طوع يده

ارادته يحول كل ما يريد الى ما يريد حتى تجاسر على ركوب البحر وتحصل بسبب ذلك على جل مقصوده آمنًا من تقلب امواجه وتشعب امواجه لا يبالي بالعواصف وشدتها ولا بالظلمة وقتمتها

فقال له الانكليزي · سيدي انه قد مضى على نوع الانسان احقاب عديدة وازمنة مديدة وهم في انفصال عن بعضهم وعزلة وتوحش وخشونة وقلة لجهلهم بعلم الملاحة فكانت كل امة مقيمة في البقعة التي هي فيها لا تتعداها ولا علم لها بخلق سواها فكان كل محرومًا مما عند غيره من المنافع وغاية ما هنالك ان من كان منهم قريبًا من السواحل والجزائر انما كان ينتفع بالصيد من الشواطي واذا انتقل انما ينتقل الى موضع قريب منه وبمقتضى ما يشاهد من تجدد الاحوال حسب الاحتياج يتعقل ان اول من اشتغل بالملاحة سكان السواحل واقرب ما بعث فكرهم الى ذلك تكرار مرور الاشياء الساقطة من الاشجار على وجه الماء من غيضات تكون بجزائر قريبة منهم فلما راوا الاخشاب تمر على وجه الماء ركبوها وهي على صورتها ثم بعد ذلك صوروها في صورة تقي من البلل بان سطحوا جرمها او الصقوا بها غيرها فسارت مع التيار اما لجلب منفعة واما لدفع مضرة كالفرار من عدو طالب او الهجوم على غريم كما هي عوائد الاوائل قبل اتساع دائرة المدنية والعمارة وكما هو دأب القبائل الباقية على الخشونة الى الان بسبب انعزالهم عن المدن واقامتهم وسط الصحاري والبراري المنقطعة والبقاع الشاسعة فلما

علم الانسان منفعتها صار يتفكر في كيفية اتقانها ويدبر في اصلاح شانها الى ان جعلها في صورة لائقة لنقل بعض الاشياء المعتاد مبادلتها بين عشيرته بان استعملوا روامس مركبة من خشب وبوص كما يصنعه الى الان اهل صعيد مصر والسودان وكثير من بقاع امريكا ويقطعون الاصول الغليظة من الاشجار ويجوفونها ويسافرون فيها او يعملون قوارب صغيرة يكسونها بجلود الحيوانات وربما كان هذا دليلاً على ان الامم السالفة كانت تستعمل هذه الكيفية في حمل اثقالهم وعند ارتحالهم وعلى انها مضى عليها سنون لا تعرف غير ذلك ولما كثر تردد الخلق على بعضهم وكثرت الفتهم واختلاطهم وظهرت بينهم علايق جديدة اوجبت اتساع دائرة الملاحة اخذت السفن في التقدم وصارت في حجم اكبر من الاول واحكم غير انها كانت لا تسير الاّ بالقرب من السواحل لجهل الناس حين ذاك بما يهديهم اذا ساروا على سطح البحر ولعدم معرفتهم بمن سكن وسطه او بساحله المقابل لهم ويغلب على ظني ان انتفاع الخلق بالملاحة كان قاصراً على اجتياز البلاد الموجودة على السواحل فقط وان الامر بقي على هذا الحال الى ان صار استكشاف حجر المغناطيس وخواصه وعند ذلك امكن الخلق تطبيقه على استعمال خاصية الملاحة باضافة البوصلة اليها ومن هذا الوقت تجاسر الملاحون على مفارقة الشواطي والتوغل داخل البحور فطافوا جميع بقاع الارض وساروا حيث شاؤا ولم يكن هذا الامر معلوماً بالبلاد

الاوروباوية الاّ من القرن الثاني عشر بعد المسيح وان كان معلوماً قبل ذلك في بلاد المشرق عند سكان السواحل الشامية وشواطي بحر العجم فلم تكن خاصية جذب حجر المغناطيس للحديد خفيةً عند الامم السالفة وربما كانوا يعلمون الخاصية التي يكتسبها القضيب الصغير من الحديد بعد المغطسة اي بعد مسه لهذا الحجر وهذه الخاصية هي ان لا تتغير اتجاهاته بل يكون دائمًا على اتجاه واحد من الشمال الى الجنوب ومن ذلك تعلم جهة الشرق والغرب الاّ انهم كانوا لا يعلمون خاصية اتجاهه دائمًا الى الشمال فطبقوا هذه الخاصية على سير السفن بان رسموا خطين عموديين على قطعة ورق مستديرة وثبتوا القضيب فيها فاهتدوا بذلك الى النقط الاربع من الافق وبقي الامر على ذلك مدة الى ان علمت خاصية اتجاه الابرة الى جهة الشمال دائمًا متى كانت متحركة موضوعة فوق مركز في اي نقطة من نقط الكرة وعند ذلك زالت الصعوبة التي كانت تلحق الملاحة وسهل على الملاحين جواز البحار وامنوا من جميع الاهوال ثم اكتفوا عن قطعة الورق المذكورة باتخاذ علبة مملوءة ماء وتثبيت القضيب في قطعة من خشب الفل تعوم فوق الماء واستعملوها في معرفة الاتجاه لكن بسبب تقلب السفينة على الدوام وعدم وجود التمام تام للآلة كانت الابرة قليلة التوازن ودلالتها تقريبية فمن ذلك اشتغل كثير من الامم بتحسين امرها بان جعلوا الابرة متحركة فوق محور راسٍ مثبت في علبة اسطوانية

الشكل وجعلوا فوق الابرة دائرة من ورق مثبتة فوق الابرة تحرك بحركتها مقسمة الى اقسام متساوية وجعلوا جهتي الشمال والجنوب على خط مستقيم مرسوم فوقها والشرق والغرب في نهايتي خط عمودي على الاول وعلقوا العلبة في موخر المركب امام عين ماموري الدفة ومن ذلك الوقت زالت جميع الصعوبات الاولية وانقطع عرق الخوف والاشكال بالكلية وصار الامر على ذلك من ابتداء القرن الثالث عشر الى الان لا يعتريه تغيير ولا تبديل الاّ في كيفية تعليق العلبة وتحسين صورتها مما لا يتوقف عليه امر الملاحة وليس من ضرورياتها ومن ثم انتظم امر الملاحة والتجارة فحسنت بذلك جميع الاحوال وصلح شان الناس في الحال والمال وحصلت المساعدة الكلية لاحوال الزراعة فاخذت في التقدم نحو النمو وكثرة الثروة والرفاهية من ذلك فترتب عليه زيادة التمدن والتقدم وبعد اقتصار الخلق على جواز البحيرات والانهر الصغيرة والسفر في البقاع القريبة جازوا المحيط نفسه فانكشف لهم الغطاء عن جزائر وسواحل معمورة باسم شتى عارين عن التمدن واسبابه فحاربوهم ووضعوا اليد عليهم وادخلوهم بالقهر تحت طاعتهم واستحوذوا على ارضهم واستعملوهم في خدمتها لنفعهم ونفع بلادهم لا لنفع اهلها فزادت بذلك شهرتهم وقويت سطوتهم على من جاورهم ولما رأى الغير اتساع دائرة عيشتهم رغب في السير على اثارهم وهكذا . فكان هذا هو اول باعث لاهل

اوروبا على الاستحواذ على غالب بقاع الامريكا وسواحل افريقا وعدة بقاع من اسيا وعلى جميع جزائر المحيط الاطلنطيقي والمحيط الجنوبي والمحيط الهندي حتى صارت بقعة اوروبا اغنى البقاع واكثرها ثروة وصارت ملوكهم أعظم من غيرهم شهرة وسطوة وما ذاك الا بسبب الملاحة لانها فتحت لهم ابواب الرزق وزادت في اسبابه وطرقه ولو ان في كل بقعة حكاماً يتصرفون فيها ويحكمون على اهاليها الاَّ انهم هم ورعاياهم تحت تصرف ملوك اوروبا بسبب عظم قوتهم الحربية واتساع دائرة علومهم السياسية الآخذة في الازدياد والتقدم بسبب حيازتهم لكل ما يرونه من الصنائع واغداقهم على من دونهم باصناف البضائع ولم يفتروا عن هذا السير بحال من الاحوال بل هم ملازمون لهُ ساعون بكليتهم في ازدياده فكان تأثيرهم على بقاع المعمورة عامّاً

فقال لهُ الشيخ قد فهمت مما افدتني ان الانسان بعقله هو الذي شكل السفينة من صورة الى صورة متبعاً في ذلك السير الطبيعي من غير تكلف وانه كلما كثرت احتياجاته اتسعت افكاره وازدادت رغبته في التامل حتى وصل الى معرفة سير السفينة بالبوصلة في جميع البحار صغيرة او كبيرة فاستكشف الاراضي المجهولة وسكانها واستفاد من اعمالهم وعلومهم ما زاد في درجة تقدم اهل ملته ولكن ارى ان الآلة المغناطيسية غير كافية لضبط سير السفن حسب الحاجة فانهم اذا ارادوا ان ينتقلوا من بلد الى بلد

يلزمهم الانحراف اليها والخروج عن الخطوط التي توجب تلك الآلة المشي عليها فكيف اهتداؤهم لذلك

فقال لهُ الانكليزي ان البوصلة بمفردها غير كافية لانها لا تعين الاّ اتجاه احدى النقط الاصلية فقط ولا تدل اصلاً على الاتجاه اللازم للوصول لنقطة محدودة الا بمساعد وقد عرف ذلك جميع الملاحين في القرون الماضية لكنهم اقتصروا على هذا واستعانوا عليه بما استفادوه من التجارب والاسفار فكانوا يهتدون بذلك للوصول الى ما يقصدون من البقاع كما يفعل الآن الملاحون في الانهر والخلجان في بعض جهات من اقسام الدنيا وكما يفعل ملاحو النيل فانهم يسيرون فيه من غير بوصلة بالاتباع لبعض علامات في البرور والجزائر وكما يفعل ملاحو العرب القاطنة في شاطئ البحر الاحمر والصيادون في بعض البحائر المتسعة وكانت علماء الجغرافية والفلكيون في القرن الخامس عشر من تاريخ المسيح غير واقفين وقوفاً تاماً على جنس خط سير السفينة فكانوا يزعمون ان الخط الذي ترسمه السفينة بين نقطتين بعيدتين عن بعضهما هو قوس دائرة عظيمة ثم ظهر لهم امور لم يمكنهم التعبير عنها . مثلاً رأوا ان السفينة في سيرها في اتجاه واحد وميل واحد لا ترسم دائرة عظمى على الكرة بل ترسم احدى الموازيات فعند ذلك اشتغلت العلماء بحلها وتطبيق الحسابات عليها فظهر لهم ان خط سير السفينة لا يكون دائرة عظمى الا في حالة ما اذا كانت

متجهة نحو الشمال دايمًا او نحو الجنوب دايمًا واما اذا كانت متجهة نحو الشمال والغرب مثلاً فالجزء الاول من خط السير يكون جزءًا من دائرة عظمى ميله في نقطة المبدأ من الخط الجانبي خمسة واربعون درجة ثم بعد ذلك يتغير ويقطع الخطوط الجانبية الاخرى في ميول مختلفة تكبر بالتدريج الى ان تكون تسعين درجة فلو تبعت السفينة في السير خط ميل ثابت بالنسبة لجميع الخطوط الجانبية لرسمت على الكرة خطًا حلزونيًا وبعد عدة دورات تصل الى قطب النصف الذي ابتدات السير منه ومن ذلك رأوا ان السفينة تقطع في سيرها على خط ثابت الميل مسافة تزيد وتنقص عن طول قوس الدائرة تبعًا لعرض البلاد ويكون الخطأ كبيرًا كلما كان فرق عرض نقطتي المبدا والنهاية كبيرًا فبناء على ذلك ظهر لاهل ذاك الوقت انه يلزم تغيير الميل لمن يرغب في اتباع قوس دايرة عظيمة وحينئذ فلا بد من معرفته ويكون ذلك بطرق بسيطة حتى يكون سهل التناول للملاحين وبسبب ما فيه من الفائدة والاهمية اشتغلت بحل مسئلته العلماء الافاضل فمنهم من وضع لمعرفته طرقًا حسابية وجداول مخصوصة للاقتداء بها ومنهم من حوّل المسألة الى طرق رسمية فتعددت من ذلك طرق الاشتغال وجال فيها الفكر فظهر من ذلك الخرط التي يستعملها الملاحون ولا يمكنهم الاستغناء عنها لما لهم فيها من المنافع والفوائد التامة فانه يكفي ان يرسم عليها الخط المار

بالنقطتين المفروضتين وبواسطة البوصلة تسير على ميله بالنسبة للخطوط الجانبية فيصل الى الغرض المطلوب اذا لم يكن هناك موانع تعرض لها في اثناء سيرها فتعطلها مثل الصخور والاهوية غير الموافقة والمياه القليلة وغير ذلك فمن هذا نشاء لاجل التخلص من خطر تلك الموانع مسئلة معرفة الموضع الذي تكون فيه السفينة في اي وقت من الليل والنهار بالنسبة لاي البحار واول شيء خطر بالبال معرفة قدر سرعة السفينة في زمن معين لانه متى علم استدل منه على المسافة الكلية من وقت القيام ومن ثم يعلم محل السفينة بعد مدة من سيرها بالتقريب فاشتغل بهذه المسألة علماء الفن واخترعوا الآلة البسيطة المستعملة الى الان وهي عبارة عن حبل مقسم الى عدة اقسام متساوية منسوبة للميل في طرفه قطعة من خشب مثلثة الشكل متقلة في قاعدتها بالرصاص فمتى رغب قبطان السفينة قياس السرعة القاه في البحر فتغيب الخشبة راسية في الماء والحبل يكرّ من على مغزله مدة كالدقيقة فيكون مقدار الحبل في البحر عين سرعة المركب ولما لم يكن ذلك شافياً اضطر الملاحون الى معرفة الخط الجانبي والخط الموازي التابعين لها في السير حتى تتعين لهم نقطة التقطع وهي النقطة التي تكون فيها السفينة وبناء عليه نتج مسئلة تعيين العرض والطول فاشتغل بحلها العلماء كما اشتغلوا بغيرها وظهر لهم من بحثهم ان مسئلة العرض لا صعوبة فيها لانهم شاهدوا ان

القطب يكون منطبقاً على الافق متى كان الراصد فوق دائرة الاستواء ومتى اتجه الى الشمال ارتفع القطب فوق الافق بقدر بعد الراصد عن دائرة الاستواء وبناء عليه فعرض اي نقطة هو ارتفاع القطب فوق الافق واهل وقتنا هذا تابعون للسالفين ويتخذون النجمة الاولى من الدب الاصغر دليلا على القطب فيهتدون بهِ لكن لما كانت هذه النجمة في كثير من الليالى مطموسة ومغيبة في السحاب غير ظاهرة وفي كثير من البقاع يكون الجو غير صاف فيصعب العمل حين ذاك رغبوا في معرفة العرض من رصد الشمس لانها تكون دائماً ظاهرة تمام اليوم او بعضه ولذا اقتضى الحال معرفة بعدها عن القطب وقت الزوال وبسبب تغير هذا البعد في جميع اوقات السنة حرره اهل العلم في جداول مضبوطة يراجعها الملاحون في اعمال الملاحة وحسابها ووضعوا آلة مركبة من مسطرتين عموديتين على بعضها لقياس ارتفاع الشمس فكان الملاح يضع نقطة تقاطع المسطرتين على ارتفاع البصر ثم يرصد افق البحر بالمسطرة الافقية ويجعل الشمس خلفه ويقدم او يؤخر المسطرة الراسية الى ان ينطبق ظل نهايتها على نقطة معينة من المسطرة الافقية ويحسبون الارتفاع على مقتضى ذلك كما كانت المصريون في الازمان السابقة تعين ارتفاع الشمس بواسطة المسلات التى نراها الى الان قائمة امام الهياكل والمعابد وفيما بعد صار تحسين هذه الآلة

واستعواضها بدائرة مقسمة الى اقسام متساوية وعليها مسطرة تحمل عضادة بها ثقب صغير فمتى أريد استعمالها علقت الدائرة في السفينة وجعل مستويها في مستوي الشمس ثم تحرك المسطرة الى ان تمر اشعة الشمس بالثقب فيظهر على المحيط الدرجة الدالة على الارتفاع المطلوب وبهذه الآلة توصلوا الى الآلة المستعملة الآن المعروفة بالاكتان عند الملاحين بادخال ما استفيد من قواعد العلم من التحسينات في تركيبها فصارت مستوفية لجميع شروط السهولة والضبط فبناء على ما مر يظهر لحضرتكم ان الانسان قد اكتسب علم الملاحة وضبط سير السفن في البحار بالتدريج فان الاصل في ذلك كله شجرة القاها الريح في التيار فجرت معه فنظر اليها احد المخلوقات فاستعملها كما هي فرآه غيره فقلده واستعملها بكيفية احسن من الاولى وهكذا على حسب الاحوال والضرورات البشرية وما زالت تنتقل من حالة الى احسن منها حتى تم حسنها وعظمت دائرة اهميتها واعتنى بها الخلق فوصلت الى الحالة التي نراها عليها الان ولا شك ان كل صورة من هذه الصور اشتغلت بها الافكار مدة واظهرت فيها تغييراً فاخترعت صورة احسن من الاولى ووقعت موقعها فاذا رأوا في الثانية عيباً اجتهدوا في ازالته بقواعد علمية واختراعات عملية حتى اجتمع من ذلك علوم شتى منها ما هو متعلق برسم السفن وشكلها ومتانتها ومنها ما هو متعلق بسيرها وسرعتها ومنها ما هو متعلق بتحرير

انجاهها وسلامتها حتى صار علم الملاحة علماً نفيساً فانظر كيف امكن الانسان بقوة فكره وغزارة عقله ان ينتقل من حالة الى حالة ومن فكرة الى فكرة حتى وصل الى ما تراه في شان السفن وعلم الملاحة أفلا يكون هذا دليلاً كافياً على ان تقدم جميع الفنون والصنائع جار على هذا النمط وان الاصل في ذلك كله ضرورات الانسان واحتياجاته وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية وقد امتد بينهما القال والقيل في هذا المعنى ونحوه من هذا القبيل فاحب الشيخ ان يتبع الخبر بالنظر ويشاهد اماكن السفينة بالبصر لئلا يكون فيما سمعه مقلداً ومتبعاً اذ ليس من رأى كمن سمع فاجابه الانكليزي الى ما طلب وقام معه الى قمرة القبودان ليريه ما احب وكلمه بلغته وعرفه بمقصود الشيخ ورغبته فامر احد الضباط ان يكون لحضرة الشيخ اوفق مرافق وان يوقفه على كل ما اشتملت عليه السفينة فسار معه واراه فوق ما كان سمعه واطلعه على الات السفينة واحدة واحدة ولم يترك منها شاذة ولا شاردة مبتدئاً من مؤخر المركب الى مقدمه مبيناً لهُ فوائد كل واحدة باسمها وبين لهُ اقسام السفينة وما لبضائع التجار وما للمسافرين وما للمستخدمين بها وما للمطبخ وما للاكل ونحو ذلك ولم يذر محلاً في المركب الا اطلعه عليه واخبره بمنفعته فشكره الشيخ على صنيعه واثنى على القبودان الكبير ثم استاذن ودخل قمرته وادى ما يجب عليه من العبادة الموقتة وكان قد حان وقت الاكل فاحب ان

يأكل في قمرته فاجابوه ولتعظيم صاحبه وحق رعايته كان كل من بالسفينـــة مبادراً لكرامته واستمروا على ذلك طول السفر حتى وصلوا جميعا بالسلامة الى البر

المسامرة السادسة عشرة

التعلم والتعليم

ولعلم حضرة الشيخ بان من عرف لغتين وان كان في الصورة واحداً فهو في معنى اثنين ولما عرفه من حث النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم الالسنة بقوله من تعلم لسان قوم أمن من مكرهم ولما رواه في الحكايات من ان رجلاً حجازياً سافر الى اليمن مرة ودخل مدينة ظفار وبلغ خبره ملكها فلما حضر عنده باعلى قصره قال له الملك ثب يأمره بالجلوس بلغة حمير ففهم الحجازي انه يأمره بالطفرة كما هو بلغة الحجاز فقام الحجازي وقال ليعلم الملك اني سامع مطيع وطفر فالقى نفسه من اعلى القصر فقال الملك ما بال هذا فقيل له ان الوثب في لغته ما فعله فقال الملك من ظفر حمّر يريد من دخل ظفار وجب ان يعرف لغة حمير فاستفاد من هذا ان من دخل اي بلد لزمه ان يتعلم لسان اهلها فلهذا كان كل يوم بعد

ان يطالع في كتبه يأخذ هو وولده في اللغة الانكليزية على صاحبه دروساً وبسبب اجتهادهما في التعلم قدرا في زمان يسير على التكلم فيها

واخذ الانكليزي يحسن له التعلم ويرشده الى كيفيته ويشجعه عليه بقوله ان من موجبات التقدم في اللغات اموراً منها الحفظ والتطبيق بالممارسة والمخاطبة فان جمعت كل يوم بين هذين ثبت بذهنك كل ما حفظته واعتدت النطق به وفي قليل من الزمن تصل الى معرفة الكثير ومنها ترتيب المطالعة في الكتب بان يبتدا اولاً بالكتب المؤلفة لتعليم الاطفال لخفة الفاظها وعباراتها ثم بما فوقها وهكذا . وكيفية التعلم كما لا يخفى على حضرتكم ان يبتدئ اولاً بمطالعة الدرس ويقف على كيفية النطق بالفاظه ثم يكرره الى ان يثبت في ذهنه ويستمر على ذلك حتى يكون عنده محصول من الكلام ثم يبحث عن قواعد تصريف الافعال وامثلتها ثم ينظر لمثال كل قاعدة ويمثل من نفسه امثلة ويطبق كل مثال على قاعدته ولا يكفي في ذلك مجرد التلفظ بل لا بد ان يثبت ذلك في كتاب صغير الحجم ليسهل عليه استصحابه فيطلع عليه اي وقت اراد ثم اذا تقدم في اللغة يلزمه حفظ كثير من الاشعار ونوادر الاداب لما فيها من مزيد الثبات بخلاف العبارات السائرة والاولى ان يختار من كتب الاشعار ما تلتذ منه النفس ويميل اليه الطبع وان يجتنب ما فيه تعقيد او صعوبة الى ان يحسن النطق والتكلم باللغة

واني وان لم استوف هنا غرضي لكني آتيك بكتاب فيه كفاية لهذا الغرض فان اتبعته وسرت على ما رسمته لك فلا يمضي عليك قليل من الزمن الاّ وقد تكلمت باللغة الانكليزية وبمشيئة الرحمن عند العود تجد ان لا فرق بيني وبينك في التكلم فشكره الشيخ على نصيحته وعمل بمقتضى وصيته واخذ هو وولده الكتاب منه وصارا يتلقيان كل كلمة في الكتاب عنه وحذا الولد حذو الوالد فكانا لبعضهما نعم المساعَد والمساعِد وصارا ما بين سائل ومسوْل الى ان نالوا من تلك الجهات الوصول وقد قسموا اليوم اقساماً بعضها للفسحة في ظهر المركب وبعضها للاكل وبعضها للحفظ والباقي للمحادثة والمذاكرة ولاجتهاد صاحبه الانكليزي في تسهيل امر السفر عليه كان لا يفارقه الاّ عند الضرورة وكان لا يخاطبه الاّ بكلام يطيب به خاطره وتنشرح منه ضمائره محافظاً على مراضيه آتياً بكل ما يحبه ويرغب فيه وبذلك تاكدت بين الشيخ وبينه الالفة وارتفعت من بينهما اسباب الكلفة فبينما هما في بعض الاوقات يتحادثان ولاحوال طوائف الناس يتواصفان اذ جرى ذكر الصنائع والحرف وقدر تفاوت السلف فيها والخلف وما آلت اليه من الاتقان وتم لاربابها من الاحكام والاحسان

وطال بينهما الكلام في وصف محاسن الايام فكان ذلك داعياً للانكليزي ان قال ياحضرة الشيخ ان ولدك الان قد بلغ اشده وحصل من العلوم العربية طرفاً صالحاً وهو يحتاج الى تعلم

صناعة تكون له في المستقبل عونًا على حسن معيشته فما اشهرت على تعليمه من الصنائع فقال الشيخ احب ان يتقن اللغة العربية ويتم قراءة الكتب الادبية فاذا وصل التمام وبلغ من ذلك المرام تفكرت فيما يحسن حاله ويبلغ به ان شاء الله آماله بحيث لا يخرج عن الوظائف العلمية ولا يشتغل عن الاعمال الدينية سيما وهو بمعونة حضرتكم آخذ في تعلم لغتكم فاذا تم له اتقان اللغتين كانتا له خير صنعتين وبأيتهما يكون اكتسابه ما يكفيه غير خارج عن حرفة جده وابيه

فقال له الانكليزي كانك تقول ان ولدك اما ان يصير امامًا او خطيبًا في جامع او ترجمانًا او نائب قاض في بعض المواضع وعلى كل فما يرد من هذه الوظائف لا يقوم ببعض الكفاية فضلًا عن كونه يستمر في اسر غيره فينسبونه الى التقصير في اداء وظيفته او الجهل بما يلزم لها او عدم معرفته باداء المقصود والذي اذكره لحضرتكم ان الوظائف درجات منها الشريف والدنيء والاعلى والعلي وانك الان مخير بين ما يكون به ولدك رئيسًا واميرًا وبين ما يجعله تابعًا لغيره واسيرًا ولكن محبة الوالدين لاولادهم لا ترغب الا فيما فيه زيادة شرفهم فيجب عليك ان تجيل الفكر وتدقق النظر حتى تعرف الصنعة التي يزيد بها شرفه فقد قيل في الامثال الناس لصاحب المال الزم من الشعاع للشمس وهو عندهم اعذب من الماء وارفع من السماء واحلى من الشهد واذكى من الورد

ما الناس الأَّ مع الدنيا وصاحبها

فكلما انقلبت يومًا به انقلبوا

فقال له الشيخ انه لا يكون وراء ما ذكر الأَّ صنائع ووظائف لقوم ليسوا من حرفتنا ولا طائفتنا وعشيرتنا كالهندسة والحكمة والجندية ونحو ذلك من الصنائع الدنيوية فهل تظن ان نعلمه صنعة من هذه الصنائع ونخرجه عن طريقة اهله واجداده مع اني سمعت من ابي عن جدي ان عائلتنا شريفة ثم وجدت في امتعة والدي رحمه الله بعد وفاته نسبة الشرف فلم اجد فيها احدًا من اجدادي احترف بحرفة من الحرف او خرج من وطنه بل تتبعتها فوجدت ان كل من نبغ منهم اتبع طريقة سلفه وقنع بما ساقه الله اليه من الرزق قليلًا كان او كثيرًا ووجدت في النسبة لكل منهم مناقب ومزايا تدل على زهده وورعه وقد رأيت فيها من جملة ما اوصى به بعض اجدادي من يأتي بعده من اولاده اعلموا ان الدنيا مثل ظل احدكم ان طلبتموه فرّ وسبقكم وان تركتموه تبعكم كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه * مثل الظل الذي يمشي معك

انت لا تدركه متبعًا * فاذا وليت عنه تبعك

الخير كله في بيت واحد ومفتاحه الزهد في الدنيا · والشر كله في بيت واحد ومفتاحه حب الدنيا

وقد قضى عليّ الرحمن من دونهم بالغربة ومفارقة الوطن

ولا حيلة فيما قضاه واحمده واشكره على ما منّ به عليّ من صحبتكم ولا يخفى على جنابكم ان الناس بالسنتهم ليسوا غافلين عن بعضهم فربما يقع الانسان في شباكهم فيسقط من اعينهم وينقص قدره فيما بينهم فان اخرجت ولدي عن طريقتي وعما كان عليه اجداده قبله اختلقوا عليّ اقوالاً تزري وعبارات ربما تخل بامري ولا اقلّ من ان يقولوا باع الدين بالدنيا

فقال له الانكليزي ليس الفضل خاصًا بطائفة من الناس دون طائفة ولا باهل حرفة دون حرفة بل الفضل صفة تقوم بالانسان على قدر ما يحوز من العلم والادب فكما تكون في الفقهاء تكون في المهندسين والحكماء وكما تكون في التجار واهل البضايع تكون في احاد الخلق من الفلاحين واهل الصنايع فليس الانسان باصله وحسبه بل بكمال عقله وحسن ادبه فكم من امرء مقطوع النسب وصل بأدبه الى اعلى المناصب والرتب وكم من ذي نسب واصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حقير ازال بكمال عقله دناسة اهله واصله وهل يليق بالعاقل ان يلتفت لاوهام الناس واباطيلهم ويؤثره على ما رآه عقله حسنًا وصوابًا وهل يقتدي البصير بالضرير او هل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور واي نقص يعتري الانسان اذا كان ذا علم وله صنعة يعرف بها فلا يخل بشرف الاصل ان يتقلد الانسان رتبة كالجندية وعلم الحكمة والهندسة بل هذه العلوم ونحوها مرغّب

فيها في كتاب الله وسنة نبيه وقد اتفق العلماء والعقلاء من كل ملة على ان قدر كل انسان وقيمته بقدر علمه وعمله وعلى حسب ما اكتسبه فماذا يضر لو علم الانسان بلسان قومه وقواعده وعلم دينه ومذهب بلده حتى يكون على بصيرة في ادارة اموره وتقوية برهانه وضم الى ذلك السنة ملل اخرى واتقنهـا لتجذب اليه قلوب الاغراب فيضيف معلوماتهم الى معلوماته لتزداد رغبة اهله فيه وعلم مع ذلك تاريخ بلاده وضم الى ذلك تاريخ بلاد غيره واحوالها اذ بذلك يكون على بصيرة من الروابط المؤلفة بين الملل وبعضها والاسبـاب التي توجب النزاع والوفاق بينهم وضم الى ذلك علم الجغرافيا والنباتات والحيوانات والجمادات والهندسة والفلك وجر الاثقال وهكذا فتتسع دائرة معلوماته ويقف على النواميس الابدية المؤثرة في الموجودات وكيفية التأثير فيها فتتسع بصيرته وتعلو بذلك بين البرية شهرته فان تعلم الطب وقف على اسباب الامراض وكيفية علاجها ووظائف الاعضاء الظاهرة والبـاطنة وارتباطها بالقوى الباطنة وعرف قدرة الباري المصور لها فيعظم شان ربه وخالقه ولا يلزم ان يتجر بل يكفي ان يعرف من كل فن ما ينبغي معرفته على كل ذي فطنة من الخلق حتى لا يكون على جهل منها فيزداد بذلك قدره في كل مجلس من مجالس اهلها ويعلو قدره بين الامراء وتنجذب اليه قلوب اصحاب الحاجات والمخاصمات لعلمهم انه يهديهم الى الرأي الصواب ولا ارى لولدك الا امرين

فاختر ايهما احب اليك من غير حكم عليك. احدهما ادخاله
باحدى المدارس الميرية والاخر ابقاؤه باحدى مـدارس لوندرة
ليتربى فيها كما تربى اولادنا فان اخترت منهما واحدة برئت من
واجب تربيته لانك ان ابقيته معك فلست بضامن لنفسك
البقاء حتى تتم تربيته واذا اراد لك المولى بانقضاء الاجل والموت
قبل ذلك فكيف يكون امره ومن يكون كفيله وهو مجرد عن
العلم والجاه افلا تكون مسئولاً عن هذا الاهمال وهل كان حبك
له الا سبباً لوقوعه في اسوإ الاحوال واشق الاعمال وان سلمته
لاحد المودبين فلا تدري هل هو كفو لتربيته ام لا والاعتبار
بالظاهر لا يكون دليلاً على الباطن فربما كان عالمًا لكنه سيء
الخلق فيسري طبعه الى ولدك فيكون ضرره اكثر من نفعه وعلى
اي حال فالمؤدبون غالبًا لا يسلكون طريقة مستقيمة متفقًا على
صحة نتيجتها بل طرقهم مختلفة بحسب نيتهم وليس لنا حاجة لمعرفة
اسباب اختلافها ان كان لقصد نفع التلامذة او نفعهم او للافتخار
او لاظهار الاجتهاد لاجل زيادة الاجرة بخلاف المدارس الميرية
فانها لم تكن تابعة لشهوة احد وما نتج منها موجب للاذعان بصحتها
ولزوم اتباعها فان طريقتها هي الجارية عند جميع الملل المتمدنة
وسلكها جميع العقـلاء فمنها اصول الضبط والربط الذي يجب
على كل عاقل ملاحظته والتمسك به من ابتداء شبيبته والاستمرار
عليه بين ابناء عشيرته حتى يدخل في ميدان الاعمال بينهم ولا

يوجد له ذلك وهو بمنزل اهله فان شفقة الاهل تودي الى اهماله والتغافل عن هفواته ولعبه فربما كانت هذه الشفقة سبباً في فساد خصاله التي قصدت اهله ان تجرده عنها بالتربية ولو فرض وخصص له مودب في منزل اهله فاشتغالهم بامورهم المنزلية والدنيوية يلهيهم عما يفعله كل منهما ويدفع اهله الاجرة يظنون حصول المقصود واي حجة احتج بها الطفل وتعلل يقبلونها منه سواء كانت صحيحة او غير صحيحة فيمتنع المودب عن تاديبه والطفل عن الاشتغال بما فيه نفعه ومن المعلوم بالبداهة في شان العائلات ان الاباء يخفى عليهم عيوب اولادهم حتى ان الامهات لزيادة شفقتهن على اولادهن قد يرين ان اولادهن يعلمون زيادة عما يلزم وكذلك الخدم تخفي على سادتهم ما تعلم من عيوب اولاد سيدهم كالخيانة وقلة الادب وعدم الالتفات وكثرة اللعب واصحاب البيوت على اختلاف درجاتهم في الثروة لا يخلون من تردد المنافقين والمتملقين على منازلهم فتسري طباعهم الى ذريتهم فيتعلمون من اخلاقهم وطباعهم ما يزري بهم فاذا بقي الطفل في المنزل بين ابيه وامه مقيداً مع المؤدب طول يومه فربما يسأم فلا يتعلم او يسأم المودب فلا يعلم ولطول مدة الملازمة عليهما قد تنشأ الكراهة بينهما ويضيع الزمن بخلاف المدارس العامة فلا يوجد فيها شيء مما ذكر بل تكون الاطفال فيها محفوظة من جميع هذه العوارض وتدب فيهم الغيرة من بعضهم في حفظ ما يلقى

اليهم من اساتذتهم لتوهمهم الحرمان من درجة التمييز او العقاب او الحجز عن الاهل والاقارب والمنع من روية المتملقين من الاحباب الذين يترددون على المنازل فيرتدع الطفل ويزيد ميله وحبه لما فيه خير لهُ وتجري بينهم محاورات ومجادلات فيما يلقى اليهم فيكون الحق مع احدهم تارةً ومع غيره اخرى وهكذا كل يوم فتقوى عندهم اسباب النشاط والاجتهاد ويتنافسون في موجبات التقدم والرشاد وبسبب تنوع الفنون لا يلحقهم ملل ولا يعتريهم من كثرة العمل فتور ولا كسل بل قد يتلذذ الطفل من الانتقال من الاعمال الجسمانية الى الاعمال العقلية فتنمو قواه البدنية والروحانية وترسم في فكرته اخلاق اساتذته فيعتادها ولكون الاساتذة منتخبين من احسن المربين لا يقع منهم ما يخل بشان التعليم وان فرض كان نادراً فيكتسب الطفل في زمن قريب محاسن الاخلاق واخلاق الرجال ولتساوي الجميع في الهيئة الظاهرة وطرق التعلم والتعليم تتاكد بينهم الاخوة ويعطف بعضهم على بعض بما ينسون بهِ رافة الامومة والابوة وبالتدريج ينزل ولد العظيم عن تعاظمه بعظمة اهله ويرتفع ولد الفقير بادابه وفضله فهل ترى طريقًا احسن من هذا وان لم تتبعه فماذا

فقال الشيخ ان شفقة الوالدين بولدهما موجب مشقة اقامته بغير بلدهما وان كنت اعلم ان بقاله للتعلم في بلاد الانكليز مما يوؤل بهِ ان وفق الله الى غاية التكريم والتعزيز ولكن استغفر الله

وادخله انا عندنا المدارس لأكون ملاحظاً احواله ومراقباً اعماله مريحاً بذلك خاطري وخاطر امه وإما الصنعة فلست ادري ما يليق بهِ على نحافة جسمه

فقال الانكليزي الاصوب ان نسأل الغلام فانه اطلع على كثير من الاشياء فلعله وقع استحسانه على بعض الصنائع ومال طبعه اليها وهو يتمنى ان يكون من اهلها المنتفعين بها والحياء يمنعه من اخبارك بما كمن في نفسه فاستحسن الشيخ ذلك واحضر ابنه واخبره بما دار بينهما في امره وانهما وقفا الجزم في ذلك على استطلاع امره واستكشاف سره

وقال له يابنيّ قد عرفت الوظائف الشرعية والسياسية واطلعت على صنائع طوائف الناس العلية منها والدنية فهل تجد في نفسك الميل الى بعض الصنائع وتجيل افكارك فيما لاحداها من المنافع فاني مسيرك الى ما فيه ترغب ومساعدك على كل ما مال اليه قلبك

فقال الولد اني طوع امرك فلا ارضى الا ما ترضاه ولا ارى خلاف ما تراه ولحداثة سني انت أدرى بما فيه صلاح لشأني مني وشفقتك عليّ كافلة بما يعود نفعه اليّ فان اتفقتما على صنعة اقمت بها

فقال الانكليزي ان ما قلته دليل على حسن عقلك وكمال ادبك وفضلك لكن مرادنا ان تخبرنا بما يميل اليه عقلك

لانه لا بد انك شاهدت اموراً اثرت عليك تاثيرات مختلفة منها ما جذب قلبك فرغبته ومنها ما نفر منه طبعك فكرهته فلا تكتم عنا ما سنح بفكرك واظهر لنا ما كمن في سرك . فالتفت الولد نحو ابيه واراد ان يصرح بما كان يخفيه

فقال اني مذ عقلت لم اجد امثل من طريقتك ولا تمنيت ان اكون على غير خليقتك لاهياً عن جميع الحرف موقناً ان ليس لحرفة ما لحرفتنا من الشرف وبقيت على ذلك برهة لا تعترضني فيه حجة ولا شبهة حتى رأيتك في بعض الاوقات تشكو شدائد الايام متضجراً من ضيق المعيشة والعجز عما تحصل بهِ لعيالك بعض المرام فاستشعرت ان سأصير الى ما اليه صرت وان سوف اكبر مثل ما كبرت وربما خلفت كما خلفت وتكلفت جميع ما تكلفت فاخذت حينئذٍ اتفكر في جهات الاكتساب وما يكون لحسن المعيشة احسن الاسباب فوجدتها دائرة بين الامارة والتجارة والزراعة والصناعة وما لاحداها سبيل وهي دون المساعدة عسيرة التحصيل فطفقت انظر محاسن الحرف ومعايبها واعد مثالب اهلها ومناقبها فما رأيت لحرفتنا مثلا ولا تصورت كاهلهــا اهلا فانها النيابة عن الرسول في تربية العقول واهلها حفظة الدين ومعادن العرفان واليقين واكثر من تراهم على تلك الحالة عادلين عن سبيل الهداية الى طرق الضلالة حتى استتر الحق بالباطل وبذلك صارت حرفتنا ابعد الحرف عن الثراء وادفعها

لصاحبها الى مكابدة العناء ولبعضهم مساع مزرية لا تليق باهل القوة والعافية كقراءة الختمات في البيوت بالاجرة وهي ان اجازها امام فقد حرمها امام وكقرآة بعض الاصحاء الاقوياء على المقابر مع كونها لا تليق الا بالضعفة العجزة الجهلة الذين حفظوا بعض القرآة فلم تكن لهم قدرة على ما ينفع الناس الا من هذا الطريق كما قال علي بن الرومي ممن تقدم بهم الزمان يهجو طبيبا

افنى واعمى ذا الطبيب بطبنه
وبكحله الاحياء والبصراء
فاذا نظرت وجدت من عميائه
امما على امواته قراء

وارى بين اصحاب الوظائف الميرية رتبا عالية ولها مرتبات كافية وافية وليس فيها ما يذم فان جميع تلك الوظائف منوطة بخدمة الاهالي واعانتهم وحفظ حقوقهم فمنهم مَن وظيفته اصلاح الزراعة وري الاراضي ومنهم من هو محافظ على صحتهم وصيانتهم من الامراض واخرون لسماع دعاويهم والحكم بينهم واصلاح ذات بينهم وايصال الحقوق لاربابها ولكل من اصحاب هذه الوظائف مرتبات على حسب درجاتهم تؤدى اليهم سنويا او شهريا فهم بذلك في امن على معيشة عيالهم وجميعهم في ظل المتصرف في امر الجميع فان كنت اختار صناعة لم اعد صنائع هذه الجماعة

فقال له والده يا ولدي اعلم ان الحكم الالهية اقتضت جميع

ما تراه من الاحوال والصفات والترتيب والذوات وقد أقام الله الخلق فيما اراد ولا معقب لحكمه ولا راد وليس لنا منـاقشة فيما قدره ولا اعتراض على ما دبره فان لم تصل عقولنا الى حكمة ما وقعت عليه حواسنا فالواجب علينا التسليم وتفويض العلم الى العليم الحكيم فرب شيء يظن فيه الخير وهو في الحقيقة ضيم وضير وبالعكس

وما ندري أفي الامر المرجى * ام الامر الذي نخشى السرورُ

واعلم يا بنيّ واعزّ شيء عليّ ان النظام الحقيقي هو هذا النظام ومرور القرون العديدة والدهور المديدة على النوع الانساني مع عدم تغيير كيفية تركيبه دليل على ان هذا النظام هو ما اراده الحق جل جلاله وكما يلحق الصداء المعدن كذلك يكون العلم محفوفاً بالجهل والحق بالباطل والخير بالشر والحياة بالموت فلا نجد شيئاً الا وهو مقترن بضده وهذا التلازم ضروري اذ لا تعرف الاشياء الا باضدادها فكذلك الحق والباطل ولنا ان نقول ان النسبة بينهما كنسبة العناصر التي تتركب منها الاجسام الى بعضها اعني ان بينها تعادلاً وتوازناً فان تغيرت هذه النسبة بالزيادة او النقص بطل التوازن وفسد امر الملة كما يفسد الجسم المادي بتغير النسبة بين اجزائه وكما ان الماء لا تكوّن صفاته ولا توجد فيه خواصه الا بوجوده في حالته الاصلية التي فطره الله عليها ومتى خرج عن هذا الحد تغيرت صفاته وتبدلت خواصه وربما

كان مضراً بعد ان كان نافعاً فكذلك حال الملة واهلها اذا زاد الدخيل وكثر اهل الزور والاباطيل تقهقر امر المستحقين ونقص عددهم وربما ضرَّ بهم كضرر الداء الدفين لان الدخيل لعدم وقوفه على الحقيقة في الاحكام قد يخرجها عن موضوعها ويستعملها في غير مواضعها وبسبب ان قوتهم الاصلية هي القوة العلية تسير خلفها الملة فتهوي بهم في مهاوي التلف والدمار وتكسوها بعد الشرف ثوب المذلة والعار وهذا الامر ليس خاصاً بطائفة دون طائفة بل هو عامٌ بجميع الطوائف على اختلاف اهميتها وصغرها وكبرها في كميتها ولكن حيث ورد (من حسن ايمان المرء تركه ما لا يعنيه) فعن هذا الكلام نعرض ونترك الامر فيه لله ولمن صرفه في خلقه وعليهم ولاه فانهم المسئولون عن امر انفسهم ورعاياهم واول واجب عليهم اصلاح حال انفسهم وحال رعاياهم فهم الملزمون بتفقد الاحوال واجراء الامور على احسن منوال والبحث عن الطرق التي يكون بها ثبات هذه النسبة في حدودها حتى يستقيم كل انسان في محله ويوضع كل شيء في موضعه لان اكثر الضرر الذي ينتج من اهمال امراء الملة وتساهلهم لا تعود عاقبة امره الا عليهم فيكون اسفهم بقدر ما كانت درجة سعتهم في سلطتهم فمتى تفقدوا بانفسهم احوال الرعية وراعوا للشرع حقوقه المرضية دام لهم السرور واشرقت بهم ممالكهم واملاكهم ودارت بالسعود افلاكهم وقد نرى ما اشرق به الزمان ومنه تجدد اعتدال الاوان فنسأل

الله له التمام ونرجوه حسن الختام انما المقصود منك ان تفصح لنا عما اخترته لنفسك من الصنائع

فقال ابن الشيخ لم يكن في امكاني ولم يجم بجناني معرفة ما يوافقني من الصنائع فانها كثيرة ومختلفة ولم امارسها حتى اعلم المناسب منها لسنّي وبنيتي وحيث رأيتما انه لا بد للانسان من صنعة يكتسب منها مع الشرف والوقار وحفظ الناموس والاعتبار فلا مانع وقد فوضت تعيين الصنعة الى الله ثم اليكما فكلما اخترتماه واقع عندي موقع الصواب بما اعتقده فيكما من ممارسة احوال الناس وكثرة التجارب والعلم بما يفيد وينفع وما عليّ الاّ ان اكون ممتثلاً لما تأمراني بهِ وان ابذل غاية جهدي لاحقق ما ظننتماه فيّ فان رايتما ادخالي بالمدارس الميرية فانا راض بهِ راغب فيـه خصوصاً لما رأيته بنفسي من احوال من سبق له الدخول بها فاني لم اجد احداً منهم الاّ وهو في ثروة ورفاهية لم يكن فيها غيره واظن ان والدي يعلم ذلك فان بالحارة التي نحن بها في مصر جملة منهم لهم درجات مختلفة اقلها بمرتبات كافية وفيهم من بلغ المناصب الرفيعة والرتب العالية وله مرتبات جسيمة ينفق منها على الاهل والاقارب ويتصدق على الجار والصاحب فضلاً عن الصدقات المربوطة للفقراء والمساكين ورايت جميع اهل الحارة بل واهل الخط يراعون خواطرهم لمعروفهم وكرمهم ومساعيهم الخيرية وليس فيهم ابن اميراو شريف وقد توجهت ذات يوم مع تلميذ من ابناء

حارتنا هناك فوجدت بها تراتيبَ ونظامات الفها قلبي واخذتْ بلبي فمن ذلك الوقت وددت ان أكون من زمرة من بها لما فيها من الامور المرغوبة في حسن التربية وهي تنمية القوى الباطنية وتقوية الحافظة والتصور والعقل وتهذيب الاخلاق مع رعاية ما يلزم لحفظ الصحة من الصون عن اسباب الامراض والعاهات بملاحظة حكماء موظفين لذلك لا يزالون متعهدين اغذيتهم واماكن مبيتهم ومواضع مدارستهم ومحل تفسحهم وترويح انفسهم لتجديد نشاطهم وتقوية قرائحهم بالنظر لما اشتملت عليه من الاشجار والمياه والازهار والتردد بين ظلالها وذلك الى ما اختصت بهِ من افاضل المعلمين والمؤدبين ورأيت ان الانسان ما دام فيها لا يكون مشغولاً بشيء غير التعلم واما الامور الضرورية فموكولة الى خدم مخصوصة ملزمة بأدائها في اوقاتها وسمعت ان الانسان اذا تم ما فرض عليه في مدرسة انتقل لغيرها على حسب درجة استعداده وما ابداه في الامتحانات العامة والخاصة الى ان ينتهي المفروض على الشخص معرفته وتكون فيه قابلية واستعداد لخدمة وطنه فعند ذلك تعطى لهُ الرتب اللائقة بهِ ويحظى بمرتباته ويعد من رجال الملة وبحسب ما يبديه في خدمته من حسن الادارة والصداقة يندرج ضمن افاضلها فبناء على ما ذكرته متى كان الانسان كثير الاجتهاد متخلقاً بالاخلاق الحميدة كان آمناً على نفسه جميع عمره من عاهات الدهر وتقلبات الايام لانه وهو بالمدرسة يكون محبوباً

مبجلاً بين اقرانه وخوجاته فيميزونه ويعدونه من اهل الفضل واذا خرج عنها الى اعماله واشغاله يتقدم في درجات الشرف ويعد من اهل العدل بحسب صداقته واستقامته وحسن ادارته ففرح الانكليزي بما القاه ابن الشيخ وشكره وعظم من ذلك الوقت شأنه وقدره حتى انه اضمر في نفسه انه بعد دخوله بالمدارس يساعده ويقوم بكل ما يلزم له من كتب وادوات وان يجعل له من طرفه مكافأة كل ما ظهر في ميدان الامتحان فوقانه على الاقران وان يغتنم فرصته ويؤكد رغبته مدة اقامته في البلاد الاوروباوية ويطلعه على جميع احوال تلك البلاد واسباب ثروة اهلها حتى يكون من ذلك على معرفة تامة لما يراه من الاشياء ويقف على حقائقها وان يريه المعامل والفبريقات واماكن اللهو والترسانات ليؤكد ميله ورغبته واخبر بما اضمر اباه فاطال شكره له وثناءه عليه

المسامرة السابعة عشرة
في البحر وعجائبه

ثم اخذنا في شجون الحديث وتناقلنا اخبار القديم والحديث حتى جرى بمناسبة الحال ذكر البحار فتواصفنا غرائب ما اودعته من

الاسرار فكان من كلام الشيخ ان قال مستفتحا هذا المجالى املًا ان يزيد علمه ويصل الى ما غاب عنه فهمه سبحان من اجمل صنعه واحسن كل شي خلقه واتقن وضعه واجرى مواخر البواخر تشرح متون الماء وسخر لعباده كل ما اشتملت عليه الارض والسماء ومنَّ علينا في مدة هذا السفر الحميد بغير ما كنت اخاف منه وعنه احيد فلقد كنت انفًا اقراء في بعض كتب الاخبار متاملًا فيما تضمنت من عجائب الليل والنهار

فيشتت الافكار ما قاسى الورى
من هول هذا البحر عند ركوبه

من امواج تتلاطم ودفعات على اتساعه تتزاحم ودوائر ببعض السفن تدور لا ينتظر من دارت عليه الا هبة النشور فقد قيل داخله مفقود والخارج منه مولود فنسال الله دوام المبرة حتى تنقضي بالسلامة هذه السفرة كما نساله دوام العناية حتى نبلغ في كلائته اكرم غاية لا نرى البحر الاّ رهوا ولا ننظر الجو الاّ صحوا ولكن حب الاطلاع سيما في صحبة مثل حضرتكم يهون كل صعب فاحب ان نتكلم في امر هذا البحر فلقد رايت في بعض ما قرأت ان الجهة الجنوبية من الارض مغمورة بالماء وان للبحر جريانًا مع كونه اخذًا نهاية تمدده متوازنًا في مقره وقد ذكر لذلك اسباب اختلف القول فيها فما عندكم فيه فانتم ابناء البحر وعندكم يقين علمه

فقال له الانكليزي اعلم ايها الاستاذ ان الانسان ولو وصل

بما اعطاه الله من العقل وقوة الفكر الى معرفة السياحة في البحار بالسفن البخارية والشراعية واستكشف كثيرًا مما فيها من بقاع الارض وغيرها الاّ ان ما جهله اكثر مما علمه ففي كل يوم يوجد في جوفه ما لا يحصى من الخلق وهذا الهدء والسكون الذي رايته لم يكن الاّ ظاهريًا اذ تحته عجائب مستورة عن اعين الناس لجسامة طباقه وغور اعماقه فلا تمر عليه لحظة من الزمن الاّ وهو في فعل مستمر وحركة مستديمة منها تأثيره على الكرة الارضية فتارة يؤثر في الطبقات الظاهرة وتارة في الطبقات الباطنة وبتقلبه المستمر ياخذ من جهة الى اخرى ومن ارض الى غيرها فما هو الاّ كمامور من قبل الحق فما ياخذه من هذه يعطيه لغيرها وهذا دابه من ابتداء خلق العالم الى ما شاء الله فلا هدء له ولا استقرار ولا سكون له بالليل ولا بالنهار ولعظمه لا يظهر لعواصف الرياح تاثير الاّ على سطحه وهول امواجه الظاهري ليس شيئًا بالنسبة لما يحصل من حركة جسمه بتمامه فانه ينشا عنها ارتفاع سطحه الى عنان السماء وسقوطه الى تخوم الارض فتحلل منه ابخرة ترتفع الى السماء ثم يدفعها الريح الى جهات بعيدة فتحلل منها الاملاح وتصير عذبة وتظهر بصورة جديدة فتارة تكون سحابًا فيسير الى الجهة التي قدر الله انصبابه فيها فتخصب به ارضها وتتغذى به اهلها وتارة تكون سيولاً جارفة فينسبب عنها التلف والمضرات وتارة تكون مطرًا لطيفًا واخرى تكون ندى كما يشاهد على اوراق الاشجار وبين طبقات

الازهار وبسبب ما في الارض من الجفاف تمتص ما سقط على سطحها وتبتلعه فيجري الى مستودعات يجتمع بها حتى اذا امتلأت وضاقت عن احتمال المدد الدائم التلاحق تفجرت عيونًا وطلبت مياهها الأمكنة المطمئنة حسب اقتضاء طبيعة الماء واجتمعت مع المياه السائلة من الامطار فكانت المنابع والانهر والخلجان التي تمر بالبلاد التي نسكنها والارض التي نزرعها فيكسوها ثوب الخصوبة ويلطف الجو فيعتدل هواء البقاع وبعد ان استحوذ الانسان على تلك المياه وجعلها في اسره وتصرف فيها على حسب رغبته ولوازم اعماله تعود الى البحر ومعها السفن حاملة مصنوعات الانسان ومحصولات اعماله

فقال الشيخ · شرحتم فافدتم وادمجتم فاجدتم وزدتم بيان سبب تكون السحاب الذي يدور عليه امر الحيوان في جميع المعمورة من اخراج غذائه وتلطيف هوائه وابداء نمائه وتحسين روائه فما احسن هذا الكلام كاشفًا عن حقيقة المرام غير ان اناسًا من ضعفة العقول ليس لهم من العلم كبير محصول ادعوا لانفسهم الفطنة والذكاء وان لهم كمال الاطلاع على حقائق الاشياء بقراة بعض الكتب المترجمة من كلام القدماء توهموا ان قواطعها البرهانية تخالف نصوص الشريعة الغراء وادخلوا ذلك على بعض الاذهان وتسلقوا بالطعن في محكمات آي القرآن حتى احتاج علماء الملة ان ظهروا بصورة المنكرين على جميع كلمات المتقدمين مشتغلين

بالاستدلال على حدوث العالم ونسبة جميع الحوادث ابتداء لاحكم الحاكمين مقررين ذلك بين العامة والخاصة حتى صارت كتب الفلسفة منكرة والمشتغلون بقرائتها كفرة واشتد ذلك في القرون المتوسطة حتى كان يكتب في عهود تولية المحتسبين امرهم والتشديد عليهم بالتفتيش عن تلك الكتب والهجوم على بيوت من يعلم ان عنده شيئًا منها وكان ذلك سببًا لتعطيل المسلمين عقولهم عن استعمالها فيما يمكن للانسان علمه فانتدب المهرة المتوغلون في معرفة الفنون كحجة الاسلام ابي حامد الغزالي ونصبوا انفسهم لفصل ما يضر مما ينفع وميزوا ما لا يصح ان يهمل من كلام الحكماء عن غيره وسردوا ما يستحق الرد ووضعوا في ذلك كتبًا واكثروا وخطأوا راي من اطلق القول في الانكار على الحكماء وقالوا ان هذا النوع من نصر الدين اضر عليه من طعن الملحدين وبيّن كثير من فطناء المتاخرين كجلال الدين الدواني صحة اشياء كثيرة مما ابطله نحو الغزالي بتفصيل ما اراده المتقدمون فيه وتحقيقه فمن الطعن على القرآن ما حكاه محقق المفسرين فخر الدين الرازي متصديًا للجواب عنه ونص عبارته (الم ترَ ان الله يزجي سحابًا ثم يولف بينه ثم يجعله ركامًا فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء) اعلم ان هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسئلتان . المسئلة الاولى قوله الم ترَ بعين عقلك والمراد التنبيه والازجاء السوق

قليلاً قليلاً ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل احد وازجاء السير في الابل الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً ثم يؤلف بينه . قال الفرّاء بين لا يصلح الاّ مضافاً الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى (وينشيء السحاب الثقال) والتاليف ضم شيء الى شيء اي يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً ثم يجعله ركاماً اي مجتمعاً والركم جمعك شيئاً فوق شي حتى تجعلـه مركوماً والودق المطر قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن ابي مسلم الاصفهاني الماء من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال في جمع جبل وقريء من خلله والمسئلة الثانية اعلم ان قوله يزجي سحابا يحتمل انه سبحانه ينشئه شيئاً بعد شيء ويحتمل ان يغيره من سائر الاجسام لا في حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الاجسام سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجوده متقدماً متفرقاً اذ التاليف لا يصح الاّ بين موجودين ثم انه سبحانه يجعله ركاماً وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال الطبائعيون ان تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع في اكثر الامر يكون

من تكاثف البخار وفي الاقل من تكاثف الهواء اما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة متصاعدة اما ان تبلغ في صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء أو لا. فان بلغت فاما ان يكون البرد هناك قوياً او لا يكون فان لم يكن تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل انما يكون من امثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديداً فلا يخلو اما ان يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كباراً او بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجاً وان كان على الوجه الثاني نزل برَداً واما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهي اما ان تكون كثيرة او تكون قليلة فان كانت كثيرة فهي قد تنعقد سحاباً ماطراً وقد لا تنعقد اما الاول فذاك لاحد اسباب خمسة احدها اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة. وثانيها ان تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح. وثالثها ان تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذٍ. ورابعها ان يعرض للجسم المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد. وخامسها لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين

يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون في
الشمس واما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا
ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوساً ونزل مبلولاً متفرقاً
لا يحس به الاّ عند اجتماع شيء يعتد به فان لم يجمد كان طلا
وان جمد كان صقيعاً ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر
واما تكوّن السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء
وينقبض وحينئذٍ تحصل منه الاقسام المذكورة والجواب انا لما
دللنا على حدوث الاجسام توسلنا بذلك الى كونه قادراً مختاراً
يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه
خلق اجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه وايضاً فهب
ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا
بدّ لها من موثر ثم انها متماثلة فاختصاص كل واحد منها بصفته
المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة
لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع
وتلك الطبائع موثرة في هذه الاحوال وخالق السبب خالق
المسبب فكان سبحانه هو الذي يزجي سحابا لانه هو الذي خلق
تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهوا
ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها بالبعض
فهو سبحانه هو الذي جعلها ركاما فثبت على جميع التقديرات ان
وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بيّن

فقال الانكليزي ان الانسان مع كثرة اشغاله اللازمة لحفظ حياته على قصر عمره لا يمكنه ان يحيط بتحقيق جميع فنون العلم مع كثرتها وتشعبها واختلاف الآرآء والمذاهب في اصولها وفروعها وغاية ما يمكن للانسان الباذل وسعه واقصى همته ان يتقن الفن او الفنين ومن ذلك كان الناس حسب الوضع الالهي منقسمين الى الطوائف فكل طائفة اشتغلت بما استعدت له واراده الله منها على تفاوت افرادها في ذلك فتمت منافع الناس واستقام امر وجودهم فكان مجموعهم بمنزلة شخص واحد يصرف اعضائه في مصالحه فلم يكن لطائفة ان تنكر على طائفة افكارها واعمالها كما انه ليس للرأس ان ينكر على اليد اعمالها التى لاجلها خلقت بل على كل طائفة ان تكل علم ما جهلت الى الفرقة التي بذلت همتها وانضت اجسامها في تحصيله وتشييد اركانه واضاءة برهانه لا يزري احد على احد عمله ولا يبادر كالاغمار بانكار ما جهله فتبين من ذلك ان الواجب على علماء الملة ان يتقنوا اصولها ويحفظوا فروعها غير متعرضين لاقوال غيرهم واعمالهم لا بالتسليم ولا بالانكار ما لم يوافق او يخالف ما ثبت عندهم بالبراهين الموجبة لهم علم اليقين او يعرض بعض الاغرار كما حكيتم لنقض اصل او ابطال فرع وكان قد سبق بين حضرة الشيخ وصاحبه معاهدة على انه متى سمع منه كلمة غير موافقة للغة ارشده اليها واتم الفائدة بحكاية اشكالها

فقال الشيخ جرى في كلام حضرتكم لفظ هو اصف الرياح

وانما يقال للرياح البحرية قواصف لانها قد تفعل القصف وللرياح البرية عواصف لانها قد تحمل العصف وهو ما يبس من اوراق الاشجار وكلاهما ليس من قبيل الاسم بل من قبيل الوصف كما يقال للرياح التي تلقح اناث الاشجار من ذكورها اللواقح والمختلفة الشديدة الحواشك والحارة في الصيف البوارح والتي تقدم المطر فتجيء بليلة المبشرات والتي مع المطر المعصرات والتي تثير الاغبرة الأعاصير والتي تحمل السفا وهو دقيق ما تحات من النبات السوافي وهذه الاسماء اكثرما وردت بلفظ الجمع ويقال للريح اذا هبت لينة الريدة والريدانة والنسيم فاذا تتابعت مستمرة فهي الرخاء واذا سمع لها صوت كحنين الابل فهي الحنون فاذا ابتدأت بشدة فهي النافحة والسيهج والسيهوج والسهوج فاذا سمع لها مع الشدة صوت فهي الزفزاف فاذا اشتدت حتى قلعت الخيام فهي الهجوم فاذا زادت حتى قلعت الاشجار او دون ذلك بقليل فهي الزعزع والزعزاع والزعزعان واذا حملت الحصباء اي الحصى فهي الحاصب فاذا درجت حتى ترى لها ذيلاً في الرمل كالرسن فهي المدروج فاذا كانت شديدة المرور فهي النوّج فاذا اسرعت فهي المجفل والحافلة فاذا هبت من الارض نحو السماء كالعمود فهي الاعصار والزوبعة وان حملت غباراً فهي الهبوة فان حملت التراب وترددت به ويسمى المور بضم الميم فهي الهوجاء فاذا هبت باردة فهي الحرجف والصرصر والعرية بكسر العين فان اشتدت جتى خرقت

الثوب فهي الخريق فاذا كانت حارة فهي الحرور ليلاً والسموم نهاراً فاذا كانت بين بين فهي الجبجب فاذا لم تلقح شجراً ولم تسق مطرا فهي العقيم فاذا كان هبوبها من المشرق فهي الصبا وعن يمين المتوجه للشرق الجنوب وعن شماله الشمال والشمال ومن المغرب الدبور فاذا خرجت بين بين مهي ريحين من هذه الاربع فهي النكباء فان كانت بين الجنوب والصبا فهي الجربيا بكسر الجيم وان كانت بين الصبا والشمال فهي الصابية وان كانت بين الشمال والدبور فهي الازيب كجعفر وان كانت بين الدبور والجنوب فهي الهيف بفتح الهاء وكانت العرب تنادي بها لكونها تيبس النبات وتعطش الحيوان وتنشف الماء وفي المثل ذهبت هيف لاديانها يضرب لسيء الاعمال اذا جرى على عوائده ولبعضهم نظم الاصول والنكب وهو هذا

صبـــا ودبور والجنوب وشمأل
بشرق وغرب واليمين وللضــد
ومن بينها النكباء ازيب جربيـــا
وصابيـــة والهيف خاتمة العـــد

فشكره على ما افاد ثم قال ان اثار الحرارة التي عليها مدار ما اسلفنا شرحه هي احد القوانين التي بها ربط الله جميع احوال البحر

القانون الاول الجذب الواقع على البحر من الكواكب فقد

ثبت علماً وعملاً ان القمر بسبب قربه من الارض يؤثر على سطح البحر المحيط فيجذب ماءه نحوه فيحدث من ذلك تموجه ثم يرتفع بعض اقدام فوق سطحه ثم يسير على اتجاه الكوكب في جوف السماء وبعد ان يقطع مسافة في سيره ينصدم بين ارض هولاندة وبين ارض اسيا الجنوبية وبسبب انحساره ينساب التيار بقوته وينقسم الى تيارين احدهما يتجه جهة سواحل الافريقة وبعد ساعة من ظهور القمر تكون تلك الامواج وصلت الى ارض فاس ومراكش وبعد ساعتين تكون ببغاز الطارق وتمر بسواحل بلاد البرتغال وفي الساعة الرابعة تكون وصلت الى السواحل القريبة من بلاد الانكليز ولا تصل الى سواحل ارض اسوبج الا في الساعة الثامنة لانها تتعطل في سيرها بالجزائر الموجودة في بحر الشمال والثاني ياخذ اتجاه سواحل امريكا الغربي بسرعة فيقطع في الساعة الواحدة مائة وعشرين ميلاً ومتى تصادم بارض السواحل المذكورة اتجه الى الشمال فينحبس هناك بين جزائر متعددة فترتفع امواجه ارتفاعاً يقرب من ثمانين قدماً ويكون اكبر من ارتفاع الامواج التي تحدث عند اعظم الفورتونات بخمسين قدماً لانه لم يعلم الى الان ارتفاع الامواج باعظم العواصف اكثر من ثلاثين قدماً كما ذكر في التواريخ

والقانون الثاني وان كان ثابتاً بالعلم ولا شك فيه لكن اكثر الناس تجهله لانه غير محسوس ولا يدركه الا اولوا الابصار .

من ذوي العلم وهو تأثير حرارة الشمس الذي يكون به الماء سائلاً فان الماء كسائر الاجسام قابل للتخلخل والتكاثف فاذا زاد تأثير الحرارة فيه تخلخل وكبر حجمه وخف حتى يصير بخاراً مناسباً للهواء واذا نقص تأثير الحرارة فيه تكاثف وصغر حجمه وثقل حتى يكون وزن ذراع من حار اقل من وزن ذراع ما دونه في الحرارة ولا يزال الماء سائلاً ما دامت حرارته في الدرجة الثالثة فما فوقها فمتى نقصت عن ذلك صار بازدياد تكاثفه مادة لزجة وكلما اخذ في البرودة ازداد جموده وخفته حتى يصير حجراً مناسباً للارض فالماء جوهر دائر بين ان يكون ارضاً وان يكون هواء متبادلاً عليه الجمود والسيلان والثقل والخفة وكل ذلك ناشيء من صحبة الحرارة له وامتزاجها به ومن مفارقتها اياه وخلوه منها ثم انهُ علم بالتجربة ان الحرارة انما تصل من عمق البحر الى غاية ثلاثة آلاف وستمائة قدم

وبناء على هذا القانون فسطح البحر دائماً في حركة مستديمة وتبادل بين طبقاته فمتى ثقل بالبرودة نزل الى اسفل وصعد ما تحته فوقه وكل ذلك ناشيء عن تغير الحرارة واختلافها في درجاتها ومن هنا نشأت التيارات العظيمة الحارة والباردة التي تشاهد على سطح البحر في كثير من الجهات فان السياحين شاهدوا ان حرارة ماء التيارات المذكورة ثماني درجات مع ان درجة حرارة الماء الراكد الملامس لها احدى وعشرون ولذلك قالوا ان راكب

المعتدل يمكنه ان يغمس احدى يديه في الماء البارد من جهة ويده الثانية في الماء الحار من الجهة الاخرى وكم من عجائب خفية تحت طباق الماء يمر فوقها الانسان ويقطع جميع هذه البحور ولا يحصل منه ادنى التفات اليها ولا شعور ولا يعلم ما في قراره من الغابات المتسعة والوديان المطمئنة والجبال المرتفعة والبراري الهائلة فكم في قاع البحور من ارتفاعات ووهدات وانخفاضات وكم فيه من صحاري ووديان ومغارات وصخور فتارةً يكون بسيطاً عظيم الاستواء مجردًا عن النبات في بعض الجهات وتارةً يكون عامرا بالنبات والعشب في جهات اخرى ونرى قاع البحر كسطح الارض فيه المرتفع والمنخفض والمحل والخصب وقد شوهد في جزيرة ستهيلينه بالمجس ان عمق البحر اربعة عشر الفا وخمسمائة وخمسون قدماً وعند القطب الشمالي وصل المجس الى عمق ستة وعشرين الف قدم وستمائة قدم وذلك عبارة عن خمسة اميال وهذا الغور لا يوجد مثله في سائر البحار التي على سطح الارض وفي هذا العمق العظيم ترتفع جبال وصخور وجزائر وغيرها

وكما نشاهد ان سطح الارض دائم في التغير فبعضه يرتفع وبعضه ينخفض فكذلك قاع البحر وذلك محسوس خصوصاً في البحر المحيط الجنوبي فقد ثبت علمًا ومشاهدة ان استواء الماء في المحيط ثابت وان الارض هي المتغيرة خلافاً لرأي المتقدمين فانهم كانوا يعتقدون عكس ذلك وقد انقطع الان هذا الشك وزال

الاشكال وبطل هذا الاعتقاد وما بني عليه من الاقوال

فقال الشيخ ان من يطلع على ما في داخل البحار وينظر لسكان طباقه بعين الاعتبار وما كمن في خلال قراره ونجوده واغواره واجام الاعشاب الطافية على سطحه علم قدرة القادر وعظم شأنه وخضع لجلالته فثم ما لا تسعه العقول ولا تفي بحصره ارباب النقول نرى بحارا عميقة وبها حيوانات هائلة واخرى دقيقة لا يعلم منتهاها الا الله ففيها وحولها بواقي ما ابتلعه البحر من مخلوقات ومعادن ومصنوعات ومكامن مما ابتلعه من الازمان السابقة فترى الآت الحرب وبواقي القتلى وقطع السفن وكذا الذهب والفضة اللذان هما نقود الامم السالفة واللاحقة ومعادن مختلفة كل ذلك تحت الصخور وفي فجوات البحور

وفوق ذلك وتحته وداخله انواع مختلفة من المخلوقات باشكال وصور وكيفيات لا نهاية لها فمنها الحيوان الدقيق الذي لا يرى وما هو اكبر منه وهكذا الى الهائشة التي لا شبيه لجسمها في المخلوقات الارضية ومما يستغربه الانسان دوام المعركة بين جميع هذه الانواع وبعضها فتارةً تكون طاردة وتارةً تكون مطرودة وتارةً آكلة وتارة ماكولة وتارة غالبة وتارة مغلوبة هذا دابها مع بعضها في جميع فصول السنة وبهذه الكيفية يكون تحت طباق الماء سواء كان في هدء او سكون محاربات ومحاورات وهجوم ومدافعة وممانعة ووجوم وكما يوجد على الارض انواع حيوانات

وطيور فكذلك يكون في البحر ما يشبه الذئب وما يشبه الاسد وما هو كصاحب السيف وما هو كصاحب السنان وغير ذلك وربما كانت اشد افتراسًا وقسوة ولما عندها من الحيل تراها تقتال في الدفعة الواحدة الوفا مؤلفة من الانواع التي اعدها الله لقوتها ومع ذلك كله فلا يسمع لها صوت ولا وجيب وغاية الامر انه يظهر في بعض الاحيان على سطح الماء كلون الدم وترى اسماك مقتولة عائمة فوق سطحه فيكون ذلك علامة على معركة او مقتلة جرت بين طوائف الاسماك في جوف البحر

فقال الانكليزي كذلك وقد شوهد امور اخرى غير هذه وهي ان ماء البحر يتلون بالوان مختلفة فيكون باللون الزيتوني كما في البحر المحيط الجنوبي ويكون اخضر كما في سواحل العرب ويكون ورديًا كما في جهة الكاليفورنيا بالامريكا واحمر كما في البحر الاحمر وجميع هذه الالوان قد تكون مكتسبة من الوان النبات والاعشاب النابتة في بقاع بحار هذه الجهات او من الوان الحيوانات الدقيقة المحسوسة المتخللة بين جواهر الماء فيكون اللون شديدًا او غير شديد تبعًا لتكاثف الطبقات وتراكم هذه الحيوانات وهناك حيوانات تجعل لون الماء اسود كما في جهة ماالديف واخرى تكسبه لونًا ابيض كما في جهة غينه واغرب من هذا كله ان هناك نوعًا من هذه الحيوانات له لمعان شديد ومتى اجتمع مع بعضه ظهر على سطح الماء لمعان يشبه ضوء النار وهذا

النوع يكون في جميع طباق البحر ولكل من هذه الحيوانات والديدان بقاع تسكن بها وطرق تسلكها عند انتقالها تابعة في سيرها تيارات مجهولة فتنتقل من الاقطاب الى دائرة الاستواء ومن قطب الى قطب ومن الغريب أن الهائشة التي جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فاكثر تحتاج لهذه الديدان لغذائها فلا يهنأ لها عيش الاَّ بالحصول عليها فتراها تهاجر خلف هذه الديدان وتسير مسافات بعيدة حتى تحصل منها على ما يلزم لها

فانظر لحكمة الله التي احوجت العظيم للحقير حتى الهائشة التي هي اكبر حيوان صارت محتاجة في غذائها لاحقر شيء وهو الديدان ولم يكن في جميع انواع المخلوقات ما له اكثر ميلاً للاسفار من السمك فمنه انواع تنحدر الى الجهات الجنوبية واخرى تصعد الى الجهات الشمالية وهذه تتجه الى الشرق وهذه الى الغرب وبعد ان يقضي كل اربه يرجع الى ما هاجر منه ثم يعود مرة ثانية في وقت اخر وبعضها يخرج من البحر والماء المالح الى النهر والماء العذب كالسردين اي صغير السمك وربما كان في كثافة عظيمة بحيث يمنع جريان الماء ومنها ما يكون في غاية الملاسة فلا يكون للسنارة عليه تأثير وما تاكله الطيور وما يموت شيء لا يحصى ومع ذلك فما يجري تمليحه وادخاره لاجل الاتدام به عند الحاجة اليه اكثر وفيه اكبر المخلوقات ومنه الهائشة وقد مرت والدرفيل والترمسة التي تبلغ الف اقة فاكثر وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبي يصطادون

في كل عام الوفًا مؤلفة من كلاب البحر لاخذ دهنها وزيتها وفي البحر من النباتات ما لا نهاية له فمنها ما ياخذ في شكله صورًا متعددة ويتلوّن بالوان مختلفة لطيفة حتى يكون منها بساتين عظيمة تفوق في ظرفها البساتين البرية وكما تميل اغصان الاشجار البرية تبعًا للرياح كذلك تميل اغصان النباتات البحرية تبعًا لامواج البحر حتى انها في بعض الاحيان تقلع من اصولها وتسير الى مسافات بعيدة وتتراكم ويتركب منها طبقة كثيفة فتغطي جزءًا عظيمًا من البحر وربما منعت السفن من العبور ومواضع هذه النباتات معلومة فمنها ما يكون ثابتًا بالصخور فلا تؤثر فيه الامواج ولا تقلعه الا ومعه صخوره ومنها ما ينبت بالقرب من السواحل واذا نبت بعيدًا عنها لا يتجاوز في بعده اربعين باعًا وتنبت في جميع البحار ولكن الاكثر ان هذه النباتات لا تكون الاّ في البحار الجنوبية فتنبت فيها وتمتد الى نحو الف وخمسمائة قدم وتارة تمتد على سطح البحر وتغطي ماءه بالكلية وتستره حتى تكون سعتها ثلاث مائة ميل في العرض وتنتشر الى خمس وعشرين درجة في العرض وقد قطع (كولومب) ثلاثة اسابيع كاملة في مروره منها حين ذهب لاستكشاف الامريكا وهذه الحشائش عبارة عن مادة هلامية اي لزجة مغطاة بقشرة كالجلد وتتشعب الى ما لا نهاية له وكل شعب يتفرع كذلك وهكذا حتى يكون من ذلك شعاب عظيمة والجميع ينتهي بلوريقة رفيعة الاطراف ومنها ما ياكله الانسان

تفكها ومنها ما ينفع لداء الصدر وكثير من الطيور لا تقتات الاَّ منها وذلك في بحر الهند ومنها نوع سكري يمتد الى عدة اميال فروعه رفيعة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة سكرية ويوجد على سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها الف قدم واوراقها حمر وردية يحملها الماء بواسطة شبه عوامات موجودة تحت عقد الفروع تمنعها من الانغماس وفي بعض الجهات شوهد حشائش شبيهة بشجر التفاح ذات فروع حاملة مقدارًا عظيمًا من الفاكهة وجذورها متماسكة بالصخور واوراقها مدلاة في فروع تشبه فروع شجر الصفصاف ومع هذا كله ففي قاع البحر انواع مختلفة لا يحصرها الاَّ موجدها ومن اجتماع هذه النباتات مع بعضها تحدث اشكال غريبة ورسوم هندسية عجيبة فمنها ما يلتصق ببعضه فيكون قبابًا كروية كبيرة تارة وصغيرة اخرى ومنها اشكال مخروطية فتارة تكوّن شكلاً هرميا مربعا او مثلثا ومنها ما ينسج على سطح الماء ويكسو منه جزءًا عظيمًا فيمنع نفوذ الضوء والحرارة ومنها ما يكون خامات منفصلة عن بعضها وتارة متقاربة تجمعها اخرى وبسبب كثرة الالوان والاختلاف في الطول والشكل وكيفية التعشق والتداخل يتشكل منها هيئات وتكون لعالم البحر كالمدن والمساكن يأوي اليها ويحصن ببعضه من بعض ويتقي بها من شره ومن يبصر تلك الغابات ويتاملها يرى امورًا عجيبة تدهشه لانه يرى على اغصانها ديدانًا تسعى نحو الورق لتتغذى منه ويرى عجل البحر جاثمًا

ما بين نبت الماء والقرامي الاصلية وكلب البحر ذا العيون الرصاصية والنمر ذا المعرفة والذكاء والترمسة كلاً في مكمنه ومحل راحته وما منه وما من نوع منها الاّ وهو راصد لغيره اما لتحصيل قوته واما للفرار من عدوه فهذا بمغزاه راصد لتحصيل غذاه وهذا خائف من اعتداء غيره وإناه فهذا بقوته يكر وهذا بضعفه يفر ومع ذلك ففي الماء وتحت الغابة وعلى فروعها وخلال اشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف كافة ولو امعنت النظر لوجدت اموراً اخرى غريبة وهي انك ترى انواع المحار مجتمعة متلاصقة منها الكبير ومنها الصغير ولا تسأل عما جاورها ولا تشتغل بما بعد عنها بل هي مقيمة في مقرها غير محتاجة الى الانتقال ولا تخشى من تقلب الاحوال عالمة كغيرها بان الله خالقها ودبر لها رزقها كما دبر لغيرها وبقدرته تعالى جعل لها فماً فتكتفي بما تاخذه من الماء بما يلزم لها في تجديد الهواء وصفاء الدم وغير تلك الانواع والاجناس من المخلوقات ويوجد في البحر عوالم لا يوجد مثلها في البر ومنها الحيوان المسمى بالمرجان فقد قيل أنه اول ما ينشأ يظهر فوق حجر من الاحجار القارة في قاع البحر فرع يشبه اصلاً نباتيًا مسكون بحيوان ثم يخرج غيره ويذهب مثل الاول وهكذا فيتكوّن على طول الزمن وتوالي الطبقات عود المرجان وقد شوهد فرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جداً شكله الظاهري يشبه زهر النبات في شكله ولونه ومن دأبه ان يخرج من الحجر ويعود اليه وهذا الحيوان وإن كان صغيرًا جدًا لكن يفعل

ما تحار فيه العقول فانه تارة يصنع بيوتاً فترتفع من قرار البحر الى سطح الماء ويمد طبقات وما يستعين به في عمل تلك البيوت من المؤنة لا علم للانسان به ولا بكيفيته ولا تركيبه فسبحان من خلقه وابدعه وفي قرار البحار اودعه وبسبب حسن شكل هذه المنازل الفاخرة والوانها العجيبة الزاهرة اشتغلت بها افكار الخلق في جميع الازمان ونتج من ذلك خرافات كثيرة ومن المستغربات ان هذا الحيوان الدقيق لا يصنع بيته في المياه ذات اللجج الكثيرة الامواج ويبعد عن المياه الكدرة والراكدة واول اساس يصنعه في عميق الماء ومن سنة الى اخرى وقرن الى قرن اخر يصل الى ان يختط بمساكنه وبيوته الصخرية سعات عظيمة من قاع البحر وفي بعض الجهات يوجد داخل هذه الصخور بحيرة متسعة لا يكون للرياح ولا للامواج عليها ادنى تأثير وتكون في هدء وسكون دائمين ومن عادة هذا الحيوان ان لا يعلو بمسكنه سطح الماء وذلك لانه متولد منه فهو ملحق بالحيوان البحري ولا طاقة له بمقابلة الهواء والشمس وكثيراً ما ترى هذه الصخور في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور واشكال عجيبة ويرى في وسطها هذه البحائر الراكدة وحولها الامواج الهائلة تتصادم وربما سمع للبحر فرقعة ودوي عظيم وفي داخل الادوار المنحنية وعليها تجلب امواج البحر حبوباً وحشائش من اجناس متنوعة فيها بيض طيور مختلفة الجنس وكثير من انواع الحشرات والطيور تأوي اليها وتربي بها صغارها مع الامن والراحة

النامة وبعد زمن ترتفع فوق الماء وتكون تلك الحشائش جزيرة وارضاً يسكن بها الانسان ويعمل بها آثاراً عجيبة فانظر لحكمة الله وعظمته

فقال الشيخ قد اكثر الناس من وصف العجائب البحرية ونقلوا انها اكثر من العجائب البرّية وما ذلك على الله بكثير فاشد الاشياء قوة واكبرها جسماً لا يزيد في الخلق على الضعيف الصغير وقد اختلف الناس في كثير من الاشياء التي تجلب من البحر. كالعنبر فمن قائل انه بعض فضلات حيوان بحري استحال الى صلاح كاستحالة الدم لبناً في البهائم ومسكاً في بعض الغزلان ومن قائل انه صمغ نبات ياكله ذلك الحيوان فيبقى الصمغ في فمه فيلفظه وتجده الناس في السواحل. ومن قائل انه مادة تتكون بنفسها في قاع البحر وتبلغ مقادير عظيمة حتى تصير كالصخور فيبتلعها الحيوان المشهور عند اهل عمان ونواحيها بالافال وهو الذي تسميه العرب العنبر فاذا ابتلعها قتلته وعند ذلك يطفو على وجه البحر فيراه اهل تلك الجهات فياخذونه ويستخرجون تلك المادة من جوفه وتارة يهيج البحر فيقذف بالعنبر على السواحل واهل الشحر من بني مهرة وهم الذين تنسب اليهم الابل المهرية يركبون ليلاً في طلبه فيقال ان النجيبة من ابلهم اذا احست بالعنبر بركت فيطلبه راكبها وياخذه وذلك الحيوان الذي يقال انه يبتلع العنبر ربما يبلغ طوله اربعمائة ذراع فاكثر ويروى ان جيشاً من الصحابة بعثهم النبي صلى الله عليه

وسلم الى ناحية ساحل البحر فنفد زادهم فبينما هم يوماً ينتظرون رزق الله اذا هم بذاك الحيوان طافياً على وجه الماء فاخرجوه واكلوا منه ثمانية عشر يوماً وملئوا مزاودهم واجربتهم من شحمه وقديده وحين ارادوا الانصراف الى المدينة امر امير الجيش ان ينصب ضلع من اضلاع تلك السمكة فكان كالقنطرة ومر تحته اطولهم راكباً ناقته ولكن كثرة الخلاف في الشيء تؤدي الى الجهل به او الشك في حقيقته. وكالمرجان مثلاً فقد نقل عن ارسطو انه نبات وعن غيره انه معدن من قبيل الياقوت والماس والمغناطيس وانه يستخرج من سواحل افريقية ونقل المفسرون عند قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) عن ابن عباس ان المرجان صغار اللؤلؤ وان كبار اللؤلؤ يسمى دراً وعن ابن مسعود ان المرجان الخرز الاحمر فهذه هي الكلمات الدائرة بين الناس في امر المرجان انما حيث كان سر الحياة سارياً في جميع الموجودات حسب استعدادها وما يناسب موضعها فلا يبعد شيء مما قيل فيها ومن ذلك ما يحكى ان السمندل حيوان يشبه خلق الطائر يخلقه الله في النار وبها حياته وله وبر حريري يعمل منه مناديل وان المناديل التي تصنع من وبره اذا علاها الوسخ تلقى في النار فتخرج نظيفة كما كانت وعلى ذلك قول الشاعر

لو أصليَ الياقوت نار صبابتي * لتغيرت احواله وصفاته
او قرب الطير السمند لمهجتي * لقضى عليه وعطلت حركاته

فيكون ما حكيتم في المرجان ليس موضعًا للانكار غير ان صورته وكونه فروعًا واغصانًا تخرج منها ازهار تقرب القول بانه نبات

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان اعتقاد الاورباويين كان كاعتقاد الامم الماضية انه نبات كما هو مذكور في كتب اليونانيين والرومانيين والهنود والصينيين وغيرهم فجميعهم كان يزعم انه نبات ينبت في قاع البحر لينًا ثم يتجمد وفي حالة كونه في الماء تفعل فيه الامواج كما تفعل الرياح بالاغصان البرّية فيتمايل نحو الشمال واليمين وجميع الجهات لكن لا يخفى على حضرتكم ان كثيرًا من الاعتقادات القديمة بطل الان بالكلية بسبب الاستكشافات الجديدة وكذلك كثير من الامور النظرية والقواعد العلمية صارت لاغية لا اعتداد بها بسبب ما حصل من التقدم واتساع دائرة معلومات الخلق فبعضها وجد باطلاً لا اصل له والبعض هجر واستعيض عنه باحسن منه ومن ذلك مسئلة المرجان وحقيقته وكيفيته ففي اوائل القرن الثامن عشر للميلاد اخبر احد علماء ايطاليا انه استكشف زهر المرجان وانتشر عنه ذلك في جميع البلاد وكتب به مرسوم الى مجلس العلماء هناك وارسل مع المرسوم فرع منه وعليه ازهار وبناء عليه ظن العلماء حين ذاك انه قد أزيل الشك واتضح الحق وثبت عندهم ان المرجان نبات لانه لو لم يكن كذلك كيف يكون وجود الازهار به ثم في سنة ١٧٢٥ احضر احد حكماء الفرنسيس

في مباحثه من سواحل الافريقيا صيادي المرجان فاخرجوه له فاطلع عليه وامتحنه امتحانًا تامًا بان وضعه في اجانة وملأها بالمياه البحرية ونظر اليه بالنظارة المعظمة فرأى حيوانات كثيرة خرجت منه حية وتجمعت فكانت تشبه الازهار فمن ذلك ظهر له ان الازهار التي اشيع عنها انها اغصان المرجان عبارة عن هذه الحيوانات الصغيرة وان المرجان لم يكن الاّ بيوتًا تصنعها هذه الحيوانات لمأواها ولما ثبت عنده صحة ذلك بالامتحان اعلن به مجلس العلماء فشاع ذلك بينهم لكن لم يصدقوه لجزمهم بصحة ما قاله لهم القليافي اولاً ومع ذلك فقد اشتهر بين الناس ما ظهر للحكيم فصدقوه لانه لم يقل ذلك الاّ عن امتحان فتبين من ذلك صحة قول الحكيم من ان الازهار لم تكن الاّ عبارة عن حيوانات صغيرة جدًا تظهر على ظاهر العود متى غمر بماء البحر المالح بعد اخراجه من البحر فعند ذلك يظهر فوق سطحه نقط شكلها نجمي مركب من ثماني اوراق منفصلة عن بعضها في اخر كل ورقة شعور دقيقة كالاهداب فمن ذلك الوقت بطل الاعتقاد القديم وثبت عند الجميع ما قاله هذا الحكيم فتراه يتفرع فروعًا كفروع الاشجار الصغيرة لونها احمر وصلابتها كصلابة الحجر الاصم قابلاً للجلاء ومقطعه يشبه مقطع بعض النباتات مركب من طبقات ثلاثية متحدة المركز وما يكون منها نحو الظاهر هش قليل الصلابة لونه احمر وفيه عيون صغيرة هي مساكن تلك الحيوانات وما يكون

منها نحو المركز صعب قابل للكسر وهو الذي تستعمله الصاغة والجوهرية فهذا في الاصل حيوان واحد نبت فوق صخرة فتولد منه غيره ومن الغير غيره وهكذا حتى يتكون فرع صلب لا تتغير صلابته في قاع البحر ولا في الهواء بل صلابته فيهما واحدة كما قيل والحيوان المذكور اسطواني الشكل ابيض اللون يعلو طرفه ثمانية افرع على كل منها شعرات خفيفة دقيقة جداً وفي الغالب تكون الفروع او الاوراق متحركة ولكثرة احساسها تنطبق وتنضغط بعض الاوقات اذا كان التأثير الواقع عليها كبيراً وتغيرت اتجاهاتها وتارة تنطبق على الجسم ويظهر في وسطها ومن اعلاها فتحة صغيرة كشفتين هي فم ذلك الحيوان ومنه يتجه داخل الجسم قضيب اسطواني يمتد الى وسطه بحيث يرى كانه معلق به وارتباطه من الفم بثنيات واصلة من فروعه الثمانية بالانتظام وكل من هذه الثنيات مقابل لاحد الفروع على الاحكام فالجزء الظاهر هو ما يسكنه الحيوان وبينه وبين الجزء المركزي علائق قوية من حيثية التغذية والتكوين لانه مركب من منسوج دقيق محيط بالجسم ومن انابيب مختلفة الغلظ والاكثر غلظاً ملتصقة بالمركز والاقل منها فوقها والمنسوج فوق الجميع والمادة الغذائية تصل اولاً للمنسوج الظاهري ومنه الى ما تحته وهكذا حتى تصل الى المنافذ الملاصقة للمركز بمعنى ان المادة المكونة له لا تصل الى المركز الا بعد استيفاء كل قناة ومنفذ قسطها فتمر من السطح الى ما تحته الى المركز بكيفية

قدرها الحق جل جلاله وعز شانه وكماله فيتكون منها هذه المادة اللطيفة واللون العجيب

ومن تكرر الاستكشاف ظهر ان الحيوانات المكونة للفرع الواحد تارة تكون من محض الذكور وتارة من محض الاناث وقد يتحد الذكر مع الانثى في الفرع الواحد وان الانثى تقذف بيضها من فمها ففي المبداء يكون ديدانًا صغيرة جداً ثم يبتدىء في التجسم واخذ الشكل الحقيقي شيئاً فشيئاً وكما يوجد المرجان بافريقا والاندلس كذلك يوجد بسواحل ايتاليا وفرانسا وكيفية استخراجه عند الجميع واحدة تقريباً وذلك ان المركب المخصصة لذلك مصنوعة بغاية الاحكام وكذلك الاشخاص المستعدة لاخراجه اولوا قوة لمعاناة المشاق لانه يحتاج لتجربة وتعوّد على معرفة محاله واما الآلة المستعملة لذلك فهي عبارة عن صليب مركب من قطعتين من خشب معلق بها حجر ثم يربط فيهما الشباك المعدة لذلك ويعلق في ذلك خطاطيف لتمسك جميع ما يعثر بهِ فاذا ظن الصيادون وجوده بمحل رموا شباكهم فيه ثم يسيرون الى امام او خلف ومعهم دواليب لرفع الآلة بكيفية يعلمونها فيأخذون ما تعلق بها وينظفونه

المسامرة الثامنة عشرة
في البراكين

وبينما هم يخوضون في هذا الباب ويتأملون في صنع رب الارباب واذا بالملاحين ومن بالمركب من المسافرين يشخصون بابصارهم الى جهة من الافق وقد كثر بينهم اللغط وكأنما رأوا شيئًا من السماء سقط والبعض ينظر ببصره والبعض بيده نظارة فلاح من الشيخ التفاتة فنظر الى الجهة التي ينظرون اليها فرأى دخانًا كثيفًا صاعدًا الى السماء مختلطًا بلهب ولبعده كان يظهر له انه يخرج من البحر فدهش من ذلك وعن مسألة المرجان اعرض وسال الانكليزي عن هذا الذي في الافق تعرّض

فقال له ان هذا الذي رأيته دخان يخرج من احد الجبال النارية ويعرف بجبل اتنا عند اهل الجغرافية وهو بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سيسيليا وهي صقلية وهناك جبال اخرى بالبحر الابيض بعضها طفيء من زمن والبعض متقد الى الآن مثل جبل ويزوف بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سردينيا

فقال الشيخ قرأت في بعض الكتب فوجدت فيها نحو ذلك وهو ان برّية من الشام تفجرت وخرج منها دخان اقام بعض ايام ثم طفيء وسمعت من بعض اخواننا الواردين على الازهر

من البلاد المشرقية ان ثم جبالا شاهقة منها جبل يسمى دبقاوند ويقال دماوند لا يزال يخرج منها النار ويشتد في بعض الأوقات دون بعض سيما ذلك الجبل فانهم يخبرون عنه ان فيه اثنتي عشرة فوهة يسمع منها دوي كدوي الرعد يخرج منها رياح شديدة الحرارة لا يمر بها شي الاّ اهلكته غير ان لها سكوتا في بعض الاوقات وربما ترصد ذلك من يغرر بنفسه من المشتغلين بالكيميا فيصعد اليها للبحث على كبريت ذهبي صاف يوجد هناك يعتقدون أنه يدخل في الصنعة ويصفون ما يشاهدون هنالك من عجائب صنع الله تعالى

واهل مصر لعدم تعودهم على الاسفار وعدم وجود مثل هذه الحوادث في تلك الديار لا يوجد عندهم بهذا خبر ولا يصل اليهم منه علم ولا اثر لما ان بلادهم بلاد الرحمة قد خصها الله من فضله بالنعم الوافرة والالطاف الجمة المتكاثرة

فمن نظر لهذا الجبل وهذه النيران وعلو لهبها وكثرة الدخان الذي سد الافق وحجب ضوء الشمس اقر بقلبه واذعن بعبوديته لربه فسبحانه ما اعظم شانه

فقال الانكليزي وفي هذه الجزيرة ايضاً جزء غير مسكون وهو ما قرب من الجبل وباقيها معمور بالناس وفيها كثير من الحيوانات وانواع النباتات وبسبب اعتياد الناس على هذا الجبل صار خروج النار منه عندهم كالمسنون والآثار من الامور العاديه

وهذه النيران وان كان يحدث منها مضرات لمن جاورها في بعض الاوقات لكنها لا تخلو عن حكم اختص بها من هو بها اعلم ولهذا الجبل اوقات تهب فيها النيران فتاخذ سعة من الارض تكبر وتصغر على حسب قوة الهيجان وضعفه ثم بعد ايام تسكن ولا يبقى الا دخان وبعض لهب كما هي حالته الآن بخلافه وقت هيجانه فانه يكون في حالة فظيعة وصفات مستغربة ترتج منهـا الارض ويسمع لها دويّ وقرقعة على بعد عظيم وفي هذه الحالة تقذف مواد فترتفع الى الجو ويعلو اللهب والدخان حتى لا يدرك البصر غايته ومن شدة هوله تظن سكان البقاع المجاورة له زوال بلادهم وخسفها ومن شدّة رعبهم يضطرون الى الفرار وقد ذكر احد سكان الجزيرة حالة الجبل في شدة هيجانه فقال بينما انا في قرية بالقرب من هذا الجبل والناس مشتغلون بامورهم وكان ذلك في شهر اغسطس الافرنجي سنة ١٨٦٣ واذا بارض تتزلزل وترتج والجبل قد انفجر من اعلاه وخرج من فوهته مواد سائلة فكانت تسيل على سفح الجبل فهدمت منزلاً كان هناك يعرف بمنزل الانكليز وكنت ارى قطعاً عظيمة حجرية تصعد من الفوهة ثم تنزل وتنحدر الى سفح الجبل وكان يخرج مع الدخان تراب ناري فينزل على سفح الجبل وبسبب ضعف القذف كان يقع في فم الفوهة فكانت تعطل المواد وتحبسها ولذلك انفتح الجبل من جوانب الفوهة وخرج من كل فتحة دخان ولهب ومواد

فكان ذلك امرا عجيبًا ومنظرًا غريبًا خصوصًا في الليل فكانت
الاشكال التي ترسمها المواد المقذوفة ترى بصور تشبه الصور التي
تحدث عن الصواريخ في ليالي المهرجان والافراح واستمر على هذه
الحالة الى اوائل شهر يناير سنة ١٨٦٥ فازداد تزلزل الارض
وتموجها في الجزء الشرقي من جزيرة صقلية وانفتحت في طول
الفين وخمسمائة متر في راس العين وخرجت منها المواد المحبوسة
من فتحة مستطيلة ثم في اواخر الشهر المذكور اجتمعت قوة
الهيجان في نقط من خط الانفجار فتكوّن عن تراكم المواد المقذوفة
عدة تلال منها ستة كبيرة والجميع كان بحافة المزق وبسبب توالي
المواد السائلة والرماد والكتل النارية وسقوطها من فوق تلك
التلال الى الارض تجمع اكثرها ببعضه وصار كسلسلة جبلية
غير منتظمة ثم انقطع خروج النيران من كثير من نقطها وبقي
في البعض فكان يشاهد كأن الفوهات العليا تقذف كتلاً
جسيمة متجمدة وان الفوهات السفلى تقذف نارًا ولهبًا ومواد
سائلة على شكل مستدير حول الفوهة الاصلية فاستمر الجبل
على ذلك ثم سكن هيجانه بعض سكون وصار لا يرى فيه الاّ
دخان وبعض لهب في بعض الاوقات وفي بعض الايام كان
يسمع تحت الارض هدة وارتجاج ودوي كدوي الرعد وبعض
تموج وتزلزل مزعج ويمتلاء الجو بالدخان ويتغير لونه وتحجب
الشمس وكان يسمع على بعد اصوات متنوعة وباختلاطها مع

اصوات المواد السائلة كان يظن قيام الساعة ويلحق الخلق رعب كثير وبعد زمن خشع ذلك وصار بعد ان كانت المواد المقذوفة تصعد الى الجو الفا وسبعمائة متر تنازلت الى مائة متر ثم حصل الهدء كالاول وقدر بعض العلماء المواد المقذوفة من فوهاته في الستة ايام الاول فوجدوا ان الجبل اخرج في كل ثانية تسعين مترًا مكعبًا وكانت سرعة سيلان المواد في الدقيقة الواحدة نحو ستة امتار وكلما بعدت عن فم الفوهة تجمدت وقلت سرعتها فتكوّن عنها في جميع جهات الجبل اخاديد وتفرع من كل اخدود فروع ومنها غيرها وهكذا وقدرت مساحة بعض الاخاديد فوجد منها ما عرضه ثلاثمائة وخمسين مترًا في المبداء وعمقه خمسة عشر مترا وبعده عن فم الفوهة ستة الآف متر وفي بعض الجهات كانت المواد تقع في اودية ووهدات منخفضة من الارض فكان يسمع لها دوي كدوي المياه عند انصبابها من الشلالات وقد قيس بعض تلك الوهدات بعد ان طفئت منها المواد السائلة فوجد عمقه خمسين مترا وبلغ امتداد بعض الفروع عشرة الآف متر في الطول وفي وسط شهر فبراير ضعف سير المواد السائلة المتخللة بين الصخور فكان يظن سكون الجبل فينفجر ثانيًا على حين غفلة بالقرب من فوهته الاصلية ويملا من المواد المقذوفة اودية واراضي واسعة فيتلف كثيرا من اراضي الزراعة والمساكن المنفصلة عن البلاد وعدة كفور كانت بالقرب من هذه الجهة

وكثير من المزروعات واحضي ما تلف من الاشجار التي كانت هنـاك فبلغ مائة الف شجرة وتكوّن من لهب ودخان ما حرقت هذه المواد مع لهب ودخان الجبل شعلة كان الملاحون وسكان السواحل يرونها في البحر مسير عدة ايام وحصل لاهل صقلية من ذلك ما لا مزيد عليه من الضرر وحزنوا حزنًا شديدًا على ما تلف من غاباتهم واراضي زراعتهم التي هي سبب سعادتهم وهذا الهيجان والاضطرام الذي شرحته لحضرتكم لم يكن شيئًا بالنسبة لما هو مذكور في اخبار هذا الجبل العجيب فان المؤرخين ذكروا انه هاج خمسًا وسبعين مرة في ظرف الفي سنة واقلها حصل عنه امتداد المواد المقذوفة الى عشرين الف متر اعني ضعف ما حصل في هذه الدفعة الاخيرة وستر من اراضي الزراعة ما ضلعه مائة الف متر وكانت في الازمان السابقة معمورة بالزراعة والناس وعليه من المدن والقرى عدد كثير ولم يزل يكتسب الجبل ارتفاعًا وامتدادًا حتى صار قدر مجسمه الاصلي اربعة الآف مرة

فقال الشيخ مقتضى ما ذكرته ان ياتي زمن تنعدم فيـه هذه الجزيرة بالكلية لما انها في كل هيجان يتلف كثير من سكانها ومساكنها وتنعدم خصوبة ارضها

فقال الانكليزي لا يمكن الجزم بذلك لان كثيرًا ما شوهد في بقاع الارض جبال نارية مثل هذا الجبل او اعظم منه في الهيجان وبعد عدة قرون بردت وسكنت سكونًا تاما الى الآن

وجرت بها عيون وانهار ونبت فيها زروع واشجار وسكنها الانسان والحيوان فكذلك هذا الجبل يمكن ان يأتي عليه زمن يحصل فيه التوازن بين القوى الفعالة تحت الجبل وإثقال المواد التي قذفها فيطفأ كما طفئ غيره من قبل وربما يحصل لارض الجزيرة اتساع عن حالتها الاولى وبما تكتسبه في كل هيجان في المستقبل تكون في حالة احسن وتكون حالة من يسكنها الطف من حالة سكانها الآن كما شوهد ذلك في كثير من امثالها

فقال الشيخ اني لاعجب من ارض تثمر وبها اشجار تزهر غاصة بالنبات والانسان ويخرج من جوفها هذا اللهب والدخان وهذه المواد السائلة التي تشبه في اندفاقها اندفاق الماء من اعلا الصخور والنابع من عيون الارض فمن اين تخرج هذه المواد وما مستودعاتها الحقيقية فهل جوف الارض مملوء بهذه المواد وهل ذوبان المواد الصلبة منسوب لاسباب دبرت بالقدرة الالهية والحكمة الربانية فتؤثر على المواد الجامدة فتذيبها في جوف الارض فان كان كذلك فما كيفية انقذافها بهذه القوة الى ظاهرها ولاي شيء يخرج من بقعة دون اخرى وعلى قول اهل شريعتنا وملتنا لا يسعنا الا ان نقول تحيرت الالباب في صنع رب الارباب وانه لا يحصل لاحد على هذه معرفة ولا وقف الا بطريق الولاية والكشف واما على طريقتكم ومقتضى فكرتكم فهل وصل انسان لمعرفة حقيقة ذلك وشرح احوال هذه الحوادث كما وصل لشرح غيرها ولاي شيء

يسكن الجبل تارة ويهيج اخرى ولمَ كانت الاسباب الفعالة غير مستديمة بل تقوى تارة فتظهر وتضعف اخرى فتستتر وقد ذكرت لي انه شوهد جبال بقيت زمانا تقذف من جوفها ناراً ودخانا ثم طفئت وسكنها الانسان والحيوان من بعد وصارت بالحيوان والانسان معمورة وبالنبات ورونق البهجه مغمورة فاما ان تكون انتقلت عنها اسباب الهيجان الى غيرها او انها عدمت دفعة واحدة او تدريجاً في مستقرها حتى لا يبقى لها عودة في المستقبل او انها تسكن ثم تعود لحالتها الاولى

فقال الانكليزي انه الى الآن لم يقف احد على حل هذه المشكلة ولا على دليل لفهم المسئلة وغاية ما قيل احتمالات وعلل لم تطرد في نفي ولا اثبات . احدها وهو اعتقاد قدماء سكان هذه الجزيرة وكثير من اهل العلم الآن يعتقده وهو ان مياه البحر تنصب في اغوار عميقة من قاعه وكلما ازداد عمقها ازدادت حرارتها فاذا اشتدت حرارتها انقلبت بخاراً وبعروض حوادث اخرى واسباب خفية تؤثر فيما تلاقيه من طبقات الارض فتخرجه عن حاله وبقوة التأثير المتوالية والقوى الفعالة عليها من اسفل تنقذف الى جهة سطح الارض فتخرج من تلك الفوهات ممتزجة بالمواد التي اثرت عليها في مرورها بين طبقات الارض وتتكوّن عنهـا المواد البركانية والدخان واللهب وباقي الاحوال التي تشاهد حين صعودها الى الجو وبتأثير الجو عليها تجمد شيئا فشيئا حتى تصير

حجراً او صخرا يتكون منه الجبال . ثانيها ما قاله بعضهم وهو ان جوف الارض من جهة المركز مشتعل بالنار على الدوام وان جميع المواد ذائبة والابخرة المتصاعدة تخرج بقوتها من الفوهات البركانية .هذا ما قيل ولم يعلم ايها اصح ولكن رجح كثير من اهل العلم القول الاول لقربه من العقل على الثاني لبعده عنه لان المشاهد ان تركيب البخار المتصاعد عين تركيب بخار الماء سواء بسواء

واختبر احد المهندسين ذلك فوجد ان في كل جزء من البخار تسعمائة وتسعة وتسعين جزاء من الماء والجزء الباقي مواد اخرى كما هو كذلك في بخار الماء وفي الهيجان الاخير الذي حصل في جبل اتنا قدر احد المهندسين الماء الذي تحصل من البخار فوجد ان الجبل يقذف في كل دفعة ٦٠٠٠٠ متر مكعب وبما انه كان يقذف في كل اربع دقائق مرة ففي مدة مائة يوم يكون مقدار الماء المقذوف ٢١٦٠٠٠٠٠ متر مكعب وقد شوهد في مواد الفوهة البركانية جميع المواد التي يتركب منها الماء الملح وغير ذلك فان غالب جبال النار التي استكشفت على سواحل البحر او في الجزائر موجودة الى الآن .منها ما سكن ومنها ما هو على حاله وكثير مما سكن هذه الجبال يخرج منه عيون ماء حارة متفاوتة في الحرارة والتركيب المعدني

والجبال النارية كثيرة جدا ففي البحر المحيط الاعظم وفي

البغاز الموصل الى الاسترالي بارض الهند الصيني مائة وتسعة جميعها يقذف مواد بركانية . فمنها ما يقذف دخانًا ولهبًا ومعادن متنوعة . ومنها ما يقذف رمادا ناريا . ومنها ما يقذف طينا . وفي الغالب يترتب على هيجانها انخساف اراض واقلاع مدن باهلها وسكان هذه الجزيرة دائمًا في رعب وخوف لما يحصل لهم من هذه الحوادث المهولة

وفي جهات امريكا يشاهد خروج اللهب والدخان والمواد البركانية من فوهة جبل مستلي المرتفع عن سطح البحر الملح بقدر خمسة آلاف واربعمائة متر ويرى الدخان واللهب من بعد عظيم كانه عمود من نار قاعدته في البحر وراسهُ في السماء يستر ظله جزءًا عظيما من الارض فلا يرى عليها لاشعة الشمس والضوء ادنى اثر ويوجد في ارض مكسيك اكثر من ثلاثين فوهة

وفي مواضع كثيرة من جهة امريكا لا تزال الارض في تزلزل واضطراب وفي بعض اوقات تنفجر ويخرج منها لهب وجميع هذه الجبال يشبه بعضها بعضًا في هذه الحوادث . فمنها ما يقذف دخانًا ولهبًا واحجارًا . ومنها ما يقذف مع ذلك ترابًا . ومنها ما لا يقذف الا ماء حارًا يرتفع الى السماء ثم ينزل الى الارض

والجبال النارية في ساحل البحر الجنوبي اكثر منها في ساحل البحر الهندي فالجبال النارية لم تزل فعالة بقوة في جهات جزيرة سومترة وجزيرة زافا

ووجد في سواحل بلاد العرب والهند اثار مواد نارية تدل على انه مضى على هذه الجهات زمن كانت فيه متهيجة ومتقدة وعرضة للحوادث والاهوال كالجهات التي يشاهد فيها ذلك الان ويوجد ايضاً حول البحر المحيط الاتلنتيكي فوهات نارية بعضها يخرج من جبال سواحله وبعضها من جبال جزائره ولكن براكين هذا البحر في الجهة الجنوبية اقل منها في غيرها عدداً وقد طفئ اكثرها وسكن

وعدد البراكين التي فوق سطح الارض الان في جميع جهاتها بناء على قول العالم (هومبولد) مأتان وثلاثة وعشرون وزعم غيره انها تزيد على هذا وان كانت لا تبلغ مائتين وسبعين لكن لا يخفى انه لا يمكن الجزم بقول واحد منها ولا ترجيحه لان كثيراً من الجبال سكن زمناً طويلاً ثم هاج وتأجج بقوة اكثر مما كان وبعضها بسبب عظم قوته كان يظن به انه لا يسكن فسكن وطفىء كأن لم يكن ولعدم العلم بقواعد يستدل بها واسباب يستند اليها لا يمكن الحكم باحد العددين بل تزيد وتنقص باسباب واحوال

واما ما كان منها في الازمان السابقة مشتعلاً ثم طفىء فكثير جداً كما علم ذلك من وجود المقذوفات حول الفوهات المتعددة الباقية الى الان

وكثير من الناس يزعم ان غالب الجبال النارية متصلة بعضها من تحت قاع البحر ولكن لا قرينة على هذا الزعم بل القراين

تدل على عدم الاتصال وذلك لانه لو كان بينها اتصال لفار الجميع عند فوران احدها والواقع غير ذلك اذ لم يشاهد ذلك في جبال اتنا والويزوف وغيرها من الجبال النارية التي بالبحر الابيض المتوسط لان كثيرًا ما شوهد هيجان جبل اتنا مع عدم تحرك جبل ويزوف مع ان الاول مرتفع عن البحر ثلاثة الاف وثلثمائة متر وارتفاعه اكثر من ارتفاع الثاني ثلاث مرات فلو كان بينهما اتصال وكان منبع هيجانهما واحدًا لحصل الهيجان فيهما معًا وايضًا فالمواد المقذوفة من الاثنين مختلفة ثم ان هول الجبال التي تقذف ماء وطينًا ليس اقل من هول الجبال التي تقذف نارًا ولهبًا بل هي مثلها او اعظم فان ما حصل من جبال النار من الاتلاف والمضار حصل مثله من جبال الماء كما هو مذكور في التواريخ وقد شوهد انه انفتحت فوهة من هذه الجبال بعض ساعات وقذفت ماء وطينًا فاغرقت مدنًا وقرى واتلفت ولايات واغرقت اهلها وصيرتها بعد ان كانت معمورة بالناس واصناف التجارة قحلة خرابًا لا تجد فيها بومًا ولا غرابًا مثل ما اتفق في سنة ١٧٩٢ من الميلاد في جبل بابارريانغ اعظم الجبال النارية بجزيرة جافا وهو ان الجزء الاعلى من الجبل تمزق وانقذفت منه قطعة بقوة وارتفعت في الجو ثم سقطت على الارض فاهلكت اربعين قرية باهلها وخرج من الجبل قناة كبيرة من الماء السخن فملأت فجوة كبيرة ولم تزل سائحة في جميع الجهات وفي بعض الاوقات

تظهر فيها عيون يخرج منها طين اسود مختلط بالماء الحار ويرى من جميع مسام الجبل دخان ويسمع له اصوات تشبه صوت المطرقة ولذلك سمي هناك بجبل المطرقة

والجبال الشامخة يندر فيها اتصال سيل المياه والمواد الاصلية بل الغالب فيها ان تكون منقطعة وبعضها لا يقذف الا طيناً او مادة تشبهه كما يشاهد ذلك في جبل (اكوا) اي جبل الماء وهو مرتفع فوق سطح البحر باربعة الاف متر فلا يقذف الا ماء ولذلك سمي بجبل الماء

وكذلك سنة ١٥٤٠ ميلادية فتح فيه فوهة فخرج منها ماء دفعة واحدة فكان سبباً لازالة جزئه الاعلى وتمزيقه ومن كثرة سقوط احجاره وقذف مواده تعدى ضرره الى ما جاوره من البلاد فاتلف اكثرها واضطرت الاهالي لنقل التخت بعيداً عنه وكثير من جبال جزيرة جافا وجزيرة فيليبينه لا تقذف في هيجانها الا طيناً مختلطاً بمواد بركانية واكثره متجمد بمواد قابلة للالتهاب تستعملها الاهالي وقوداً للنار

وفي سنة ١٧٩٣ في جزيرة كنوبو قذف احد جبالها النارية مقداراً عظيماً من الماء والطين فاتلف بذلك جميع الاراضي المجاورة له واغرق خمسة وثلاثين الف نفس

واكبر من هذه الحادثة ما حصل في سنة ١٧٩٧ في احد جبال دائرة الاستواء بالقرب من كنبو من جهة الجنوب من جبل

توبجوراحا فقد نقل ان الجبل انشق من اعلاه الى اسفله فتهدمت منه جهة فاعقبها اندفاق المواد الطينية المحبوسة في جوفه فملأت مسافة هناك بين جبلين وارتفعت الى مائتي متر في عرض ثلاثمائة وحبست المياه التي كانت جارية هناك

وبالتأمل في حوادث هيجان هذه الجبال المائية وكيفياتها والجبال النارية ومقذوفاتها نجد ان لا فرق بينها الاّ انها تارة تقذف من اعلاها وتارة من جوانبها وبذلك يستدل على ان القوى الفعالة في بعضها لا تخالف القوى الفعالة في الاخرى الاّ في زيادة القوى وعدمها

وغالب هذه الجبال لا يوجد الاّ بالقرب من شواطئ البحار وسواحل الجزائر وهي كثيرة والمشهور منها باوروبا الجبال الموجودة في نواحي جبل قامار على ساحل بحر الخزر والجبال الموجودة في جهتي بغاز بانيكالي الجامع بين البحر الاسود وبحر ازوف فما كان في جهة الشرق فمواده طينية مختلطة بغازات نارية وقذفه متقطع وما كان في جهة الغرب ليس كذلك بل قذفه مستمر في أي الفصول الاّ ان قذفه في الصيف أكثر منه في الشتاء وهناك جبال اخر مثل ما ذكر اعرضنا عن ذكرها لاجل الاختصار

وهذه المقذوفات منها ما يكون في فصل الشتاء فتكون المواد المقذوفة طيناً مائعاً لاختلاطها بمياه الامطار ويخرج معها دخان وتكون شديدة الحرارة فتصاعد المياه وتجمد بالسطح ويخرج

الدخان من فتحات بالسطح او يقفل عليها فيرتفع سطحها في هيئة مخاريط تعلو سطح الارض فيحبس البخار الى ان تغلب قوته تماسك المادة فيقذفها ويخرج الى الجو ويستمر الحال على ذلك الى ان يأتي فصل الشتاء فتذوب المواد الطينية وتكون كما كانت في العام الماضي وهكذا

وقد شوهد في بعض جبال البحر الهندي ان هناك ارتباطاً بين اوقات القذف واوقات المد والجزر فيزداد القذف في اوقات المد حتى يسمع له دوي وقرقعة داخل الجبل وربما تكون المواد المقذوفة حارة وفي الغالب لا تزيد على الحرارة الجوية وينقص في اوقات الجزر

فقال الشيخ وهل الى الان لم يصل احد لمعرفة الاسباب المؤثرة في جوف الارض على المواد المتركبة منها طبقاتها حتى انها تقذف تارة مواد جامدة مع دخان ولهب وتارة ماء ومواد طينية وتارة لا يكون الاّ ماء وتارة طيناً يشبه الوحل فلا بد لهذا الاختلاف من اسباب مختلفة لانها لو كانت واحدة لكان خروج الماء بكيفية واحدة وقد قرأت في بعض الكتب فرأيت فيها أن بعض التجار مر ببعض الجبال فرأى فيها عيون ماء بعضها حار وبعضها بارد ولم يكن بين مجراهما الاّ مسافة شبر وحكى بعضهم ان هذه العيون منها ما يكون نافعاً للشرب والري ومنها ما لا ينتفع به لتغير طعمه ورائحته وقال بعضهم ان من هذه العيون ما

يكون حارًّا جدًّا لا يستطيع الانسان وضع يده فيه حتى ان بعض القاطنين بالصحاري القريبة من هذه العيون يسوّي طعامه على حرارته فكل هذه الاختلافات تدل بلسان الحال على العجز عن البحث في هذا المجال وغاية ما وصل اليه فهي وتخيلة وهي قياس ما ثبت بالعيان على ما ورد في القرآن من قوله تعالى في كتابه المكنون. الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارًا فاذا انتم منه توقدون. وعلى ما نقل عن العرب من قولهم في كل شجر نار وعلى ما قيل في خشب المرخ والعفار وهما نوعان من شجر البادية اذا احتك منها غصن بغيره صار نارًا فاظن ان نار هذه الجبال وما ينشأ عنها من الاحوال من هذا القبيل وان السبب هو احتكاك بعض الصخور بحكمة يعلمها العليم القدير فتصادف بعض مواد نارية كالكبريت او غيره فينشاء عنها ما ذكر من البراكين

فقال الانكليزي قد ذكرت لحضرتكم السببين اللذين نسب اليهما علماء هذا الفن جميع الاحوال البركانية سواء كانت المواد المقذوفة صلبة او مائعة وهما الماء والنار وان من قال بالاول يقول ان في جوف الارض اخلية عظيمة كالمغارات يعلو بعضها بعضاً وبين تلك المغارات والبحر فتحات موصلة بعضها ضيق وبعضها متسع وهذه الموصلات تارةً تكون متفرقة كالانهر والخلجان وتارةً تكون غير متفرقة وبينها وبين بعضها اتصال وكذلك بينها وبين البحر والقنوات والمغارات وان ماء البحر متى انصب في هذه الموصلات

ازدادت حرارته وكانت كحرارة الطبقات الصخرية التي يمر بهـــا
واستدلوا بالتجربة على ان حرارة الماء تزداد كلما ازداد انخفاضه
في الطبقات الارضية بقدر ثلاثين متراً فاكثر واذا وصل الماء
في الانخفاض الى عمق الف متر كانت درجة حرارته مائة درجة
ومع هذا تبقى سائلة بسبب ثقل الطبقات التي فوقها ولا تتغير
المياه عن حالة السيلان الاّ اذا سفلت وانخفضت الى الف
وخمسمائة متر فحينئذ تكون درجة حرارتهـــا هناك خمسمائة درجة
تقريباً بمقتضى الحسابات ويوجد في هذه الابخرة قوة على دفع الماء
الذي ارتفاعه الف وخمسمائة متر ما لم يطرأ مانع وفي هذه الحالة
تصعد الابخرة وتنفذ من خلال الطبقات الارضية وتختلط
بغيرها من الطبقات الصخرية المحترقة الذائبة بالحرارة ومتى بلغت
قوة الابخرة حد العظم في الذائبة من الصخور دفعتها الى اعلا
وقذفتها من الفوهات النارية الموجودة قديماً ان كان التأثير عند
فتحها نحوها والا اثرت على ما فوقها وفتحت فتحة فيما حاذاها تكبر
وتصغر على حسب القوة الموجودة وربما بلغت ثلاثين الف متر
في الطول ومائة وخمسين الف متر فاكثر في العرض فتخرج
المواد المقذوفة منها الى سطح الارض وبتمادي الزمن وتراكم المواد
المقذوفة من جوف الارض وسقوطها في بعض الفتحات ينسد
معظمها ولا يبقى منها الا فتحة او بعض فتحات وعلى طول الزمن
ينشأ عنها سلسلة جبلية او جبل عظيم او غير عظيم على حسب

الاحوال فان كانت القوى الفعالة قريبة من سطح الارض ودفعت مواد ذائبة الى فوهات البراكين تكون فيها شبيهة ببرك الماء تزيد وتنقص تبعا لقوة السبب وضعفه وكثيرًا ما يحصل كسر الجروف بحسب قوة سيلان المواد المقذوفة على الارض المجاورة وتخرب اكثرها وتارةً يكون انصبابها في البحار فتجعل فيهــا لسانًا ممتدًا الى بعد عظيم من ساحله الاصلي ويتغير شكل شواطئه بحسب التأثير الواقع على المواد فاما ان تكون صلبة واما ان تكون طينية ويختلف لونها ورائحتها بحسب المواد فان كان التأثير الباطني واقعا على برك من الماء مخزونة في جوف الارض دفعته في هيئة البراكين واسالته كما هي حالة الشلالات وكثيرًا ما وجد في هذه المياه حيوانات صغيرة واسماك لا تعيش

واما وجود الماء الحار بالقرب من الماء البارد وعدم صلاحية الاول للشرب وصلاحية الثاني له فسببه ان اصل البارد المياه التي تشربها الارض من الامطــار والثلوج وغيرها واصل الحار من المياه السفلية واختــلاف طعمها ولونها من المعادن والمواد التي تركبت منها الطبقات السفلية التي مرت بها في طريقها فكيفت بكيفيتها ويجوز ان يكون ما تخيلت بعض الاسباب فانها ظنون متفاوتة قوة وضعفًا

المسامرة التاسعة عشرة
شذور

وبسبب دخول الوقت انقطع بينهما الكلام وانصرف الشيخ ليقضي ما عليه من فرائض الاسلام وبات تلك الليلة متفكراً في صنع الله متدبراً في اصناف المخلوقات وعجائب الكون والكائنات وفي كيفية الاسباب المدبرة بقدرة الله وعظمته سبحـــانه وتعالى ووجود هذا النظام في طبقات الارض السفلى وفوق سطحها وفي السموات العلى وان لا حركة الا وهو مبدعها ولا ذرة الا وسبق في علمه مستقرها ومستودعها لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء يعلم عدد الرمال ومكاييل البحار ومثاقيل الجبال لا اله الاّ هو وهو بكل شيء عليم

وبينما هو يناجي ربه ويهلل واذا بولده برهان الدين لتقبيل يده قد اقبل وعلى حسب عادتهما من وقت نزولهما بالسفينة في تشاركهما في تعلم اللغة الانكليزية حصلت بينهما المكالمة فيما تعلماه وما اكتسباه من اللغة الانكليزية ولكن كان ولده قد فاق عليه لانه كان طول يومه بين ركاب المركب والمراكبية فكان يسال عن اسم كل شيء رآه وعن معنى كل لفظ سمعه ويكتبه وللطفه ولين طبعه وعذوبة الفاظه وادابه مالت اليه قلوب من بالسفينة

واحبوه ولذكاء فطنته وقوة حافظته كان ما يحفظه في اليوم الواحد يعدل ما يحفظه غيره في ايام فتقدم تقدماً تاماً وحفظ كثيراً من الكلمات والعبارات فاعجب والده حسن حالته فباسطه وسأله عن صحته فاجابه انه بعناية اللطيف الخبير وبركة دعائه في صحة تامة لا يعتريه ملل ولا فتور ولا كسل ثم اخبر والده انه سمع من بعض الركاب انهم في غد يقربون من البر وتظهر لهم المدينة التي هي نهاية مقصدهم وانه من امس اشتغل بكتابة مكتوب الى والدته ويرغب ان يذكر لها فيه بعض نوادر رآها وامور غريبة عن والده وعن الخواجا رواها خصوصاً وقد عثر في السفينة على شخص سبق له اسفار كثيرة في جميع البحار وعاين من اهوالها احوالاً وكابد في اسفاره ما لم يكابده احد وله معرفة بقليل من العربية تعلمه في بعض جهات سواحل الافريقا فكتبت عنه كثيراً مما سمعته وذلك الشخص اسمه جمس لي يعقوب وانه رغب في مفارقة البحر الان وان يتأهل ويقيم في احدى الجهات ليستريح من مشاق البحر لكنه لا يتيسر له ذلك لكونه فقيراً لا يملك شيئاً غير ما عليه من الثياب وله تاريخ عجيب ذكر لي بعضه واخبرني انه يرغب في بقائه عند الخواجا صاحبنا بصفة خادم وهو يرجوك في التوسط له عنده فان فعلت ذلك اكتسبت ثوابه واظن ان الخواجا لا يخالفك فوعده والده بذلك واثنى عليه مكافأة على تذكره لوالدته ودعا له بالبركة ولتقدمه عليه في اللغة الانكليزية

كما تقدم قال له من باب المزاح لا تذكر لوالدتك تقدمك عليّ في اللغة فضحك برهان الدين وطأطأ راسه حياءً منه فقبله الشيخ بين عينيه وسأل الله ان يفتح عليه ثم انحاز كل منهما الى مضجعه ولما حان وقت نداء الفلاح واسفر نور الصباح قام الشيخ على حسب العادة وصلى ما كتب عليه وقرأ اوراده وكذلك ولده برهان الدين صلى وقرأ ما تيسر من القرآن ثم حضر الخادم لهم بالشاي واللبن على حسب العادة الانكليزية فأخذ كل منهما ما تيسر وبعد ذلك خلع كل منهما ثيابه ولبس ثياباً نظيفة لعلمهما بالخروج من السفينة في هذا اليوم ثم خرجا الى ديوان السفينة الذي هو محل اجتماع الركاب فاقاما بهِ برهة مع الناس واذا بالخواجا قد حضر وحياهما وسألهما عن صحتهما فشكراه

وقال الشيخ ان الذي ذكرته فيما يتعلق بجبال النار وكيفية ثورانها وانواع مواد مقذوفاتها والقوى الفعالة في جوف الارض وما ينشأ عنها من الحوادث الفظيعة لعجيب ولولا ان الارادة الربانية اقتضت مشاهدتي لهذا اللهب والدخان وسماعي لذلك الدوي والهيجان لم يكن في علمي من ذلك اثر ولا كنت اثق فيه بخبر غير اني كنت رأيت في بعض الكتب بعض كلمات تدل على ان هناك جبالاً شامخة واخرى نارية لكنها كانت غير مفيدة للعلم اليقيني الذي علمته بالمشاهدة وتفصيل حضرتكم وكنت لا ادقق النظر فيها لاني كنت في ذلك الوقت لا ارى لها اهمية

توجب الاشتغال بها وكذلك في بعض الاوقات كانت الطلبة تخوض في هذا الحديث فكان يقع بينهم الاختلاف ويطول النزاع ولكون الجامع الازهر هو المدرسة العامة يهاجر اليها لطلب العلم من جميع الاقطار كجزائر العرب وارض الحجاز وبغداد والعجم والتتر والاتراك والبربر وبلاد السودان والمغرب فكان الكلام بينهم في هذا المعنى يوجب الكفاح بسبب اختلاف آرائهم فمنهم من يعد مثل هذه الحوادث مستحيلاً ومنهم من يجوزه ولا يقيم عليه دليلا ولعدم اهمية مثل هذه المسائل بيننا كنا نرى ان المنازعة فيها والاصغاء اليها لا طائل تحته ومن كان في نفسه على يقين من ذلك لكونه رآها في بلاده كان مجبورا على عدم التكلم فيها بالكلية لانفراده وكثرة الاخرين واذا اضطر الى الكلام فيها قال بقول العموم لئلا يجر نفسه الى ما يوقعه فيما وقع فيه غيره ممن خالف رأي الاكثر لانه يوجد في بعض الاحيان من جملة المنكرين بعض من اهل الاعتبار والشهرة ولا يخفى ان مخالفة رأي مثل هؤلاء ربما توقع في ضرر وقد استولت عليّ الليلة الفكر فلم انم الا قريب السحر فصرفت الزمن في التامل في صنع اللطيف الخبير البديع التدبير من جبال نصبها وفي مواقعها رتبها وبحار ازخرها ولمنافع الناس سخرها وسيرها وفي بطون الاودية وشواهق الجبال صرفها وقدرها ولو اردت جمع ما علمت ضمن كتاب لكان هدية لاولي الالباب الذين يتفكرون في خلق السموات

والارض قائلين بلسان الاعتبار ربنا ما خلقت هذا باطلا اغـ
هنالك قوم كالسوقة ان عرضت لهم بذلك قدحوا في عقيدتي ورموني
بما لست فيه فهم اناس دأبهم العناد والسعي في الارض بالفساد لم
يميلون للمعارف ولا يحسنون من الاشياء غير الزخارف حد
احدهم ان يأكل وينام ويتزيا بزي اهل الاسلام اذا سمع وصف
البحار والجبال قال ذلك لا يثبت الا بمحض الخيال وكل م
ليس في كتاب الله ضلال والاشتغال بو بئس الاشتغال غافلا
عن قول رب العالمين . وفي الارض ايات للموقنين . وفيهم من
يخشى من صولته وَيَرْهَبُ من هيبته فربما كان داعية للكتمان
وسببًا من اسباب الحرمان

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ذم الجهل ومدح العلم وانهم
ضدان لا يجتمعان وان الجاهلين لاهل العلم اعداء وهذا امر مجمع
عليه بين اهل الملل فلا يتاخر محب العلم عن تعلمه وتعليمه ونشر
لنفع اهل وطنه وغيرهم لخوف مضادة بعض افراد او عدم اتباعهم
لرايه ومتى كانت الحقايق ثابتة بالبرهان العقلي او النقلي عن اساتذة
افاضل فلا عليه من انكار المنكرين وذم الجاهلين فلا يمنعه ذلك
عن ارشاد اهل وطنه واخبارهم بما وقع تحت نظره وشاهده خصوصًا
اذا كان لهم في معرفته فائدة بل الواجب عليه حينئذٍ الافصاح
به واشهاره فانه وان لم يصدقه الكل فقد يصدقه البعض فيكون
معضدًا له فتحصل له به المساعدة في نشر معلوماته وعلى تداول

الايام تكثر طائفة اهل العلم وتعلو على طائفة اهل الجهل وتتقدم الملة شيئًا فشيئًا وتوضع البركة في ارزاقها وتتسع ثروة اهلها باتساع دائرة العلم بين علمائها وساسة امورها وتكون كغيرها من الملل المتمدنة . الا ترى ان البلاد الاوروباوية بعد ان كانت في حالة التوحش والخشونة قد انتقلت الى درجات الكمال وبلغت في الاعتبار والسطوة ما لم يبلغه غيرها من الملل .هل لذلك سبب غير اتساع دائرة العلم والمعلومات عند اهلها مع ما اضافوه الى ما تعلموه مما اخذوه من الامم المجاورة لهم خصوصًا ما اخذوه عن اهل الشرق فانا نرى في كتب التواريخ ان حرب القدس الذي امتد زمنًا طويلاً كان سببًا عظيمًا في اختلاط اهل اوروبا باهل اسيا ومن ذلك نشأ اتساع دائرة العلم باوروبا واخذت من ذلك الوقت جميع سبل الثروة في النمو والزيادة ولذلك حصل في جهاتهم للفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة التقدم الذي لا مزيد عليه فهذه الواقعة وان تلف بها كثير من الاموال والانفس الاّ انها كانت سببًا في تقدم اهل اوروبا لانهم تعلموا من المشرقيين ما عندهم من المعارف والعلوم فنقلوه الى بلادهم واشتغلوا بهذه المعارف واستعملوها في ارضهم بمناسبة اقطارهم فمن وقتئذٍ الى الان لم تنقطع سبل الاختلاط بل زادت زيادة بالغة بسبب الطرق والوسائط التي استعملوها لتسهيل السياحة في البلاد البعيدة برًّا وبحرًا وازداد بينهم الامن والالفة وما من سنة تمر الاَّ وترى الوفًا من اهل اوروبا

تسيح بالارض فلا يمرون بشيء الاَّ رسموه ولا يرون اثرًا الاَّ تاملوهُ وربما شرحوهُ وفي بلادهم نشروهُ وبهذه المثابة وصلت اهل اوروبا الى التقدم في العلوم واستكشاف بقاع مستجدة فاستحوذوا عليها وتغلبوا على اكثر البلاد الهندية والصينية وجلبوا بهذه الطرق الى ارضهم جميع خيرات البقاع وجمعوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة فوق سطح الارض وفي وسط البحـار المتسعة فوصلوا بسعيهم واجتهادهم الى اعلى درجة في التمدن حتى صاروا في عصرنا هذا منفردين باكثر الصنائع متمتعين بين جميع الملل بالرفاهية والحرية التامة. رأيهم في كل امر نافذ وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ولا شك ان الذي اوصلهم الى هذه الدرجة ليس الاَّ العلم وكثرة السياحة اذ لو اقتصروا على معلوماتهم الاولية ومعارف ابائهم في الجاهلية لما وصلوا لشيء من ذلك بل كانوا الان يجهلون كيفية زرع النبات خصوصًا النافع منه لغذاء الانسان وقوته فانهم انما تعلموا ذلك من المشرقيين كما تعلموا منهم اصول التجارة والملاحة هذا ولم يكونوا في سابق الزمان على ما تراه الان من تحرير العلوم والبحث في مسائلها واستخراج ثمراتها وتضمينها الكتب ونشرها في العـالم بل كانوا لا يشتغلون بغير كتب الديانة محظورًا عليهم النظر في غيرها كائنًا ما كان فمن كان يتكلم بخلاف ما يتكلم به القسس في الكنائس ووصل خبره اليهم كان عرضة لانواع مختلفة من الاهانة. فمنهم من مات مسجونًا ومنهم من قتل ومنهم من حرق

بالنار ومنهم من نفي من وطنه فبقي طول عمره في قيد الذل والمسكنة ومع هذا كله فبعد زمن غلبت عصبة الحق لانهم كلما رأى الناس اهانتهم عطفوا عليهم ومالوا بقلوبهم اليهم فزادت شهرتهم ورغبت الخلق في سماع اقوالهم ونصروهم واحتفوا بهم حتى كبر جاههم وعلت كلمتهم وظهروا بمذاهب فاتبعها الناس لما وجدوه فيها من المنافع حتى انتشرت بذلك علومهم لما رؤا فيها من الاشياء النافعة والاختراعات المفيدة كالمطبعة فقد اوصلتهم لنشر طرقهم وعلومهم بين الناس وظهرت الكتب من كل فن من جميع الاجناس وتحصل عليها الفقير والغني والذكي والغبي وامتدت بها اغصان شجرة العلم الى اطراف البلاد فاستوى في اقتطاف ثمارها سائر العباد ومن ذلك اخذت العلوم في الاتساع وكثر المخترعون والمؤلفون حتى كان من المشتغلين في كل فرع من العلوم والصنائع والحرف عدد غير متناهٍ وما من يوم الآ وتظهر كتب جديدة واختراعات مفيدة

فقال الشيخ تبين من هذا الكلام ان المانع من تقدم العلوم والصنائع في البلاد الاوروباوية كان من قبل قسس الديانة العيسوية لكن الامر في البلاد المشرقية والديار الاسلامية على خلاف ذلك اذ ليس في احكام الديانة ما يمنع من التقدم في اي علم من العلوم النافعة دينًا ودنيا بل كتاب الله واحاديث انبيائه وسائر رسله آمرة بذلك وما من نبي من المتقدمين ولا عالم من

العالمين الا وكان له صنعة يتقوت منها

فقد سئل بن عباس عن صنائع الانبياء فقال كان آدم حراثًا وكان ادريس خياطًا وكان نوح نجارًا وكذلك زكريا وكان هود تاجرًا وكذلك صالح وكان ابرهيم زراعًا وكان اسماعيل قناصًا (اي صيادًا) وكان اسحق راعيًا وكذلك يعقوب وشعيب وموسى وكان يوسف ملكًا وكذلك سليمان وكان هارون وزيرًا وكان الياس نساجًا وكان داود زرادًا (اي يعمل زرد درع الحديد) وكان عيسى سياحًا وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين مجاهدًا ولذلك قال جعل رزقي تحت ظل رمحي. وكان صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل يحب المؤمن المحترف ومن امسى كالاً من عمل يده امسى مغفورًا له

وكان صلى الله عليه وسلم يحث على البكور (اي السعي في اول النهار) في طلب الرزق وغيره من حوائج الدنيا ويقول اللهم بارك لامتي في بكورها . وقال الشافعي رضي الله عنه احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس . قال حكيم من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير وقال بعض الحكماء الحركة بركة والتواني هلكة والكسل شؤم وكلب طائف خير من اسد رابض ومن لم يحترف لم يحتلف . وسأل معاوية سعيد بن العاص عن المروة فقال العفة والحرفة

قال انس رضي الله عنه جاء رجل من الانصار (اي اهل

المدينة) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئًا فقال له اما في بيتك شي قال بلى حلس (اي فراش) نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب (اي اناء) نشرب فيه من الماء فقال صلى الله عليه وسلم ائتني بهما فاتاه بهما فاخذهما بيده فقال من يشتري هذين فقال رجل انا آخذهما بدرهم فقال صلى الله عليه وسلم من يزيد على درهم مرتين او ثلاثا فقال رجل بدرهمين فاعطاهما اياه واخذ الدرهمين فاعطاهما الانصاري وقال اشترِ باحدهما طعامًا فانبذه الى اهلك واشتر بالاخر قدومًا فائتني به فاتاه به فاثبت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودًا بيده ثم قال اذهب فاحتطب وبع ولا اريَنَّك خمسة عشر يومًا ففعل ثم جاء وقد اصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبًا وبعضها طعامًا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير لك من ان تجيء بالمسئلة نكتةً في وجهك يوم القيامة وكان صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يقول لان يحتطب احدكم حزمة على ظهره خير له من ان يسأل الناس وكان صلى الله عليه وسلم يقول كثرة المسئلة كدوح (بضم الكاف اي قروح) في وجه صاحبها وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول اني لأرى الرجل فيعجبني فاقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عيني

أفبعد هذا كله يتوهم ان اندثار بعض العلوم والصنائع في بلاد العرب من جهة من سلف من علماء الملة مع انه ما من فن الاَّ ولهم فيه التآليف المفيدة ولا حرفة الاَّ ولهم فيها الاختراعات

العديدة ومن زعم في المشرقيين غير ذلك فقد اخرج الحق عن موضعه أما لعداوة او حسد أو نحو ذلك بقصد تحويل الافكار عن طريقة الحق الى طريقة الباطل ولم ينكر احد من النوع البشري فضل الاسلام وتقدم أهله في اي الفنون والصنائع فهذا امر لا ينكر وظاهر كالشمس في رابعة النهار بل اظهر لان الاسلام كان سبباً في احياء ما اندرس من الفنون والصنائع وجمع ما تفرق منها في اقاصي المواضع احيا التمدن القديم بدوياق اسراره النافعة وأزال ظلمة الكون بانواره الساطعة اذ هو الاساس الحقيقي والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المبدع فلولا دين الاسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة باسرها لانا نرى في الكتب العربية القديمة كثيراً من المستكشفات التي تعزى الآن الى الافرنج ومن تتبع كتب السير والتواريخ وجد صحة ذلك وهل ينكر احد ظهور شرذمة قليلة من بلاد العرب ملكت اكثر بلاد الدنيا في ظرف مدة يسيرة وفي اقل من مائة سنة صارت دولة اكبر من دولة الاسكندر واظهرت تمدناً ابهى من تمدن اوروبا في عهد اغسطوس اكبر القياصرة ولو نظر لحال العلم قبل الاسلام عند اليونانيين والرومانيين ونحوهم من الهنود والصينيين لوجد انه كشجر بلا ثمر او سحاب بلا مطر فبظهور علماء الاسلام ظهر اصله والقح وشاع نفعه وربح وبعد ان كانت الخلق غارقة في بحار الاوهام لا يتخيلون العلوم الا كاضغاث احلام ظهر لهم بظهور هذا الدين

علوم مؤسسة على قواعد حقية واضح الدليل وتبدد شمل الاباطيل وامتدت اغصان التمدن من ارض الاندلس الى نهر الكنج ببلاد الهند وعمت فوائده جميع ارض الاسلام فكانت الثروة والقوة للمسلمين لتشبثهم بفوائده وتمسكهم باصول قواعده وما من احد من ذوي الاطلاع الاّ ويعلم ذلك ولا ينكره وبالجملة فينبغي لجميع علماء اوروبا ان يذعنوا للعرب بالتقدم في الفضل والعلم وان كان لم يسمع للعرب اسم ولا ذكر الاّ من وقت ظهور الاسلام فما يعزى للعرب يعزى الى اهل الاسلام فحينئذٍ يكون الاسلام هو المنبع للتمدن والعلم اذ لم يظهر العلم والتمدن بالبلاد الاوروباوية الاّ بعد ظهور الاسلام بنحو الف سنة وحيث كان الامر كذلك فحتمها ان لا ينسبا الاّ لاهل هذه الملة. الاّ انه كما يكون للتقدم اسباب فله موانع وذلك لانا لو شبهنا اهل الملة بالعائلة كان رئيس الملة كرئيس العائلة وكما ان رفاهية العائلة وسعادتها تابعة لحسن ادارة رئيسها كذلك الملة وكما ان تربية الاطفال موكولة الى راي والديهم فكذلك اتساع دائرة الملة موكول الى حسن راي من يسوسها ويدبر امرها وكما تحصل الشورى بين الوالدين في امور العائلة والتربية ويكون تقدمها وعدمه تابعًا لما ينحط عليه رأيهم وانه يلزم ان يكون لمدبر امر العائلة علم تام بما يلزمها وما يلزم لها حالاً واستقبالاً وان يكون ذا بصيرة بحوادث الامور وتقلبات الدهور ليبني قوانينهم على قواعد متينة واصول ثابتة مكينة ويسلك

بهم في امر المعيشة الطرق الموصلة الى المطلوب والراحة في الدنيا
على الوجه المرغوب فان كان الامر بخلاف ذلك او كانوا على
جهل مما يلزم لذريتهم في حال حياتهم وبعد مماتهم او كانوا مختلفين
في المعرفة اختلفت آراؤهم واختلت افكارهم واضمحل حال العائلة
لعدم اتفاقهم على ما يصلح لحالهم وعن قريب يحيط بهم الفقر ويحل
بساحتهم جيش الذل والقهر ويدخلهم في قيد الاسر وسجن الذل
طول الدهر ما لم يقيض الله لها من بعض افرادها من يزيل شينها
ويزين شأنها فكذلك الملة تابعة في سلوكها طريقة رؤسائها
وملوكها وما انحط عليه رأي جمهور رجالها فان كانت رجال
الجمهور من ذوي المعارف الذين مارسوا الامور واطلعوا على
اسباب التقلبات التي حصلت في سابق الدهور قد بيضت
الحوادث سواد لمتهم واخلقت التجارب لباس جدتهم وارضعهم
الدهر من وقائع الايام اخلاف اخلاق ذريته وعلموا بكثرة الممارسة
تصاريف اقداره واقضيته واحاطوا بحوادث اهل ملتهم وحوادث
الملل المجاورة لهم والبعيدة عنهم عالمين باسباب السعادة فيحثون
الرعية عليها واسباب الشقاوة فينهونها عنها فما وجدوا فيه نفعا
لاوطانهم جلبوه او ضررًا اجتهدوا في ازالته واجتنبوه كان ذلك
سببًا في ازدياد البركة وحصنًا من الوقوع في مهاوي الهلكة فحينئذ
يصفو بهم الزمان ويعيش في ظل عدلهم كل انسان وان كانوا من
ذلك بالعكس وقعت الرعيه في العكس بلا لبس فقد قيل عدل

السلطان انفع من خصب الزمان

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو اليه من خراب مدينته ويساله مالاً يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك فاذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل ونق طرقها من الظلم فانه مرمتها والسلام قال

ولم ار مثل العدل للملك رافعاً

ولم ار مثل الجور للملك واضعاً

وفي رواية ان عامله كتب اليه هدم الدمص وعدم النمص وان ربضها رائض ومرعى رياضها بارض وانها محتاجة الى عمارة وزراعة وحراثة ومناعة

فكتب اليه عمر ما ذكر (والدمص بكسر فسكون كل صف من حجارة الحائط الا الاسفل فاسمه رهص نزنته والعرق بفتحين يعمها والنمص بكسر فسكون اثار النبت بعد رعيه والربض بفتحتين المراد به الماشية ورائض ضعيف هزيل من قلة المرعى وهي المراد بلفظ بارض)

ومن طالع تواريخ المتقدمين وجد ان جميع الملل في سيرها سائرة بسير مدبر امورها ان خيراً فخير وان شراً فشر ومن تأمل مصر وما كانت عليه قبل استيلاء المرحوم الحاج محمد علي باشا ونظر الى حالها الآن وجد ان لا نسبة بين الحالين ولا مناسبة بين الزمنين ففي الازمان السابقة كان يندر وجود الافرنج في بلادنا

واما الان فلا اقل من وجود مائة الف نفس وكذلك كان لا يوجد واحد من ابناء جنسنا يتكلم بلغة اجنبية واما الان فيوجد الوف يتكلمون بلغات متعددة ولم يعلم قبله ان احد المصريين سافر الى بلاد اوروبا واما في زمنه فما من سنة من السنين الا والمصريون في ذهاب واياب من مصر الى اوروبا ومن اوروبا الى مصر ما ذاك الا لتعلم العلوم النافعة والصنائع المتنوعة وذلك خلاف المكاتب الصغيرة التي يراها فوق الاسبلة فلم تكن حالتها فيما تقدم من الزمان كحالتها التي هي عليها الان حيث ضبط ريعها وحفظت من الضياع رباعها وضياعها وتنوعت فيها فنون التعليم زيادة عما كانت عليه في الزمن القديم حتى صارت ملحقة بالمدارس الميرية في الترتيب والمقاصد الخيرية فضلاً عما حصل في هذا العهد من تقدم الزراعة واتساع طرق الفلاحة وازدياد النباتات وتسهيل طرق الري في جميع الجهات وكذلك الفنون تيسرت لطلابها اسبابها والصنائع كثرت بين المصريين اربابها وكذا العلماء والاطباء والحكماء الالباء الذين عم نفعهم البلاد واشتهرت مزاياهم بين جميع العباد فبسببهم ارتفعت العاهات وامن القطر من جميع الآفات وبما رتبه من القوانين الصحية ودبره من المواد الطبية تخلص الناس من الامراض والعلل كالجذام والزهري (اي المبارك) والبرص والجرب والجدري وكذلك نشأ من ابناء الوطن مهندسون اعمالهم تغني اللبيب عن ذكر صفاتهم وهكذا في كل صنعة من الصنائع

كالحدادة والبرادة والنجارة حتى صار القطر بهم غنياً عمن سواهم هذا الى من برع من روسا في العلوم العسكرية وعلماء مدرسين في الفنون الحربية كل ذلك وغيره اكثر منه لم اذكره للاختصار ما وجد الاّ بوجود هذه العائلة العلوية احسن الله سعيها وادام سعدها وبعد ان كان امر الملة بيد الاغراب المسلطين عليها بالسلب والنهب وانواع العذاب صار الان موكولاً الى رأي ابنائها فلو لم يمنّ الله على هذه البقعة بهذه العائلة ما كان لما تراه اثر بل كان اهل هذه البقعة كغيرهم ممن جاورهم كالبربر وعرب الشام والحجاز باقين على ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من العادات الخالية عن المزية والمعلومات التي تعزى الى الجاهلية فمن ذلك ثبت ان كل ملة تسير خلف مديريها وجمهور رجالها ومدبريها ومما وصلت اليه الديار المصرية من التقدم لا يخفى ان تربية الملل امر صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة واخلاقاً راسخة في الاذهان ذميمة وافكاراً فاسدة واعتقادات كاسدة فلا تزول بمجرد بعض التجددات بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن الى الممات بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا تنعدم بالكلية الا بعد انقراض جميع هولاء او اكثرهم فعلى حكم العقل يلزم التربص الى انقضـــاء ثلاثة اجيال اعني مائة سنة او مائة وخمسين سنة وسبب ذلك ان الافكار التي لم ترد في كتب المولفين ولا نص عليها احد من السالفين وكذلك المشاهدات والاستكشافات

الواردة في كتب السياحات التي لم يشتهر للعلماء فيها كلام ولم يتقدم لاحد بها المام ربما تقابل بالرد او المعارضة وعدم التصديق والمناقضة فحينئذٍ يجب القاؤها تدريجاً انما من سعادة الملل قد يظهر لها في بعض الاحيان من يخصه الله بافكار علية ومعلومات ربانية تفوق معلومات البشر فيغير حال الملة في زمن اقل من ذلك بما يدخله من الترتيبات المستحسنة التي تجذب القلوب الى تلك التراتب والتجديدات من الفوائد العامة فتترك اوهامها الفاسدة وتتنازل عن افكارها الكاسدة وتألف هذه التجديدات وفي الزمن اليسير تتغير الاحوال والطباع والعوائد والاخلاق والاوضاع كما هي حالة مصر الآن فان من رآها من منذ عشرين سنة لو رآها الان لا يجد بها ما نظره شيئاً ويرى انهـــا انقلبت وصارت كبقعة من اوروبا مع ان ما جاورها من الاقطار لم يتغير عما كان عليه فهل لذلك سبب غير ادارة وتدبير صاحب الوقت ومشاورته لجمهور رجاله

فقال الانكليزي حاشا ان يكون في فهي او يمر بوهمي نسبة تقهقر العرب الى الدين المحمدي او انسب اليه المنع من تقدم العلوم النافعة ولو كان كثير من مشاهير بلادنا وعلمائنا الف كتبا كثيرة في معارضة الديانة المحمدية وانت تعلم ان طبعي لا يميل الى البحث في الاصول الدينية ولا الى المجادلة في الاحكام الشرعية وان ذلك ليس من شأني والذي يجري بيننا من المباحث انما

على سبيل الاستفادة والافادة شان المتصاحبين في الاسفار والمتقاربين في الافكار ان ياتي كل منهما لصاحبه من غامض افكاره بما يسليه من العبارات وان يختار منها ما فيه فائدة مطلقاً سواء كانت من مشاهدات الابصار او من مبتكرات الافكار حتى تتأكد بينهم حبال المودة والصفا وتمتد اليهم اسباب الالفة والوفاء متجافين الجدل متحامين موجبات الملل لان المقصود المؤانسة ولا آكد لذلك من المفاوضة في العلم والمعلومات وازالة كل ما عند صاحبه من الشبهات من غير ضرر ولا اضرار ولا فخر ولا افتخار وحيث قضى الله سبحانه بين الخلق بالاختلاف فلا رادّ لما قضاه ولا خلاف فالاولى عدم الخوض في الاصول الدينية والبحث في القواعد الملية بل نعدل الى علوم سواها ونقتصر عليها ولا نتعداها مما يطيب الخاطر ويسر السرائر ويمكن الحب من الضمائر فاقول ولو ان بعض مؤلفي النصارى اطال الكلام في معارضة دين الاسلام لكن كثير منهم ممن صنف الزم نفسه نصر الحق وانصف حيث قرر وافصح وبرهن على حقيقة الملة المحمدية وشهرتها في العلم على من عداها من الموسوية والعيسوية وقد ترجمت من احد المولفات الافرنجية نبذة في اثبات تقدم العرب ان اذنت لي قرأتها عليك

فقال الشيخ لا باس

فاخرج الخواجا كراسة قرأ فيها ما نصه

انه فضلا عما استفادته العرب بالترجمة من اللغات المختلفة فلهم الفضل ايضاً في استكشافات كثيرة امتدت بها حدود العلم الى الغاية واتسعت بها دائرة التقدم بلا نهاية فكانت العرب هي المتقدمة للعلوم في الزمن الخالي والاساس لتقدمها في الزمن الحالي فلولا ان حنيناً ترجم علوم الفلك من اللغة اليونانية الى اللغة العربية في عهد حفيد (تيمورلنك) ما امكن (كبلير) الفلكي ان يوسع قواعد هذا العلم بما اضافه اليه بالبحث والاستنباط من الطرق التي كانت مرسومة من قبل عند علماء الفلك من العرب في كتب شتى ومؤلفات لا تحصى اغلبها الى الان موجود بخزائن الكتب باوروبا ومخبأ لم يطلع عليه احد ولم ينكر احد ان العرب لا غيرهم هم الذين حققوا حركة اوج الشمس وان مدارها ليس دائرة منتظمة وانهم ضبطوا مدة السنة

وكذلك يعزى للعرب اثبات النقص التدريجي الذي يتصف به ميل منطقة البروج واختراع المزاول والربع والساعة الفلكية ذات الرقاص وغير ذلك مما يطول ايراده وهم الذين حرروا كتاب بطليموس الفلكي المعروف بالمجسطي وقياس الدرجة من خط

نصف النهار واليهم تنسب الازياج الفلكية والجداول الجغرافية واختراع خرط للمساعدة على الملاحة وجوب البحار وقد وجدت خرطة منها في سنة ١٤٧١ ميلادية عند المعلم (قان) احد المغاربة الذي كان في ارض (الجوزوان) ببلاد الهند وقد اخذه معه وسكوُد وجاما معرفا بحريا الى مدينة ميلغده بجزيرة زنجبار وكان عند البورق البرتغالي لوحة ابي خرطة اخرى من رسم شخص من ابناء العرب يقال له عمر كان يهتدي بها في سفره في بحر عمان والخليج الفارسي

ويعزى اليهم ايضًا من العلوم الرياضية اتصال الخطوط الماسة في حساب المثلثات واستعواض الجيوب بالاوتار وتطبيق الجبر على الهندسة وحل المعادلات التكعيبية

ومن مآثرهم الجليلة ومخترعاتهم الجميلة علم الكيميا الذي كانت تجهله جميع الامم قبل الاسلام وتركيب حمض الكبريت وملح البارود والماء الملكي واستخراج الزئبق وتجهيزه وتجهيز الالكول واستنقاع النبيذ وغير ذلك

وزيادتهم في علم النبات نحو الالفين على ما في كتاب الاعشاب تأليف (دسقورد) واستكشاف التناكح بين النباتات حتى يتولد بين النباتين نبات ثالث مغاير لها وقد يكون في الشجرة الواحدة صنفان وانشآ بساتين مخصوصة لتنمية النبات والاعشاب وتكثيرها

وفي علم الطب المعالجة بالحزام واستعمال الراوند والتمر هندي والمن وورق السنامكي والكافور في التداوي وتفضيل السكر على العسل في تركيب اشربة الجلبة

وانشاً اجزاخانات ومدارس لعلم الطب وبجوارها شفاخانات لعلاج المرضى ومدرجات لتعليم التلامذة علم التشريح والجراحة بالمشاهدة وتأليف كتب ضخمة ورسائل جمة فيما يتعلق بانواع الامراض الالتهابية والحميات والسموم وغير ذلك من الدآت وفي انواع الحيوانات مؤلفات كثيرة منها حياة الحيوان للجاحظ وهو يشبه مؤلف العلامة الفرنساوي بوفون وانشاً بساتين لتربية اصناف الحيوانات وتكثيرها

وكذلك لهم في علم الزراعة مؤلفات كثيرة ولهم يعزى استعمال تقاوي المزروعات اثر بعضها كل زمن بحسبه واختراع السواقي ذوات الطوانس والقواديس وبحسن تدبيرهم وقوة اجتهادهم حصل للزراعة نجاح عظيم حتى وفد اليهم من البلاد المجاورة لهم والبعيدة عنهم خلق كثير للاسترزاق والاقامة فزاد بالوافدين عمارهم ونما بهم سرورهم وهم الذين علموا اهل اوروبا زراعة الارز والقطن وشجر التوت الابيض وقصب السكر وشجر النخل والفستق وورد بابونيا وزهر الكاملي الاحمر والابيض ونبات الهيلون وغير ذلك مما لا حصر له

ولهم في علم السياسة اختراع الاوراق للمعاملة بها بدل النقود

ويعزى للعرب من الصنائع اختراع طواحين الهواء والآلات المتخذة من الزجاج وبيت الابرة وعمل الورق ونسج الحرير وطرق الحديد وسقيه

ومما يدل على شهرة العرب وتقدمهم في الصنائع العمارة التي لم يسبقهم اليها احد فان الاوروباويين لم يتعلموا الصنعة القرطبية المشهورة في الابنية الاّ منهم

ومما يشهد بفخرهم ايضاً وعلو قدرهم على من عداهم في هذا الفن مساجد الشام وبلاد الاندلس فمنها تعلمت اوروبا عمل القباب العالية والاعمدة المرتفعة وتناسب اجزاء ذلك واحكامه مع الرونق واللطف والتفنن في الاشكال والهيئات وامتزاج الخطوط المستقيمة بالخطوط المنحنية في صور مختلفة خصوصاً بما دخلها من الازهار في تعشيق الخطوط

ولهم يعزى الخط الستيني وتحلية الحيطان بالقيشاني وغيره من انواع الزينة والزخرفة ولم تنكر الافرنج ان دخول التفننات البنائية العربية في بنائهم كالنقش والتمويه ازال ما كان فيها من العمارة الرومانية من الثقل والتشويه فلو قارنا مباني الافرنج الموجودة الان بمؤنهم التي هي نتيجة تقدماتهم ومعلوماتهم بالمباني العربية القديمة الموجودة الى الان لوجدنا مباني العرب في سالف الازمان احسن واتقن

ولما علم العرب ان التجارة من جملة اسباب الرزق بل عليها

مدار معيشة أكثر الخلق اعتنوا بها كما اعتنوا بغيرها ففتحوا الطرق ونظموها وجعلوا لها قانوناً لحفظها وحفظ المارين بها والمترددين وجعلوا بها فساقي للمياه وخانات لقيلولة المارين ومبيت المسافرين ومن ذلك سهل التردد بين الهند وبلاد الصين وبين افريقيا وجزيرة صقلية وبلاد الاندلس والمغرب وحصل الامن ومبادلة مصنوعات البلاد ببعضها فانتفع كل بلد بما عند الاخر فلم يزل البيع والشرا متصلاً بين اهالي جميع اقسام الدنيا القديمة خصوصاً في الارز والسكر والقطن والزعفران والعنبر والعاج والتبر الزنجباري وبلور الصخور واسلحة دمشق وطليطلة وجلود النمور وطقوم خيل الحمل والشال والسروج والجلود السختيانية القرطبية والجوخ المصنوع في كورة بجميع الوانه والجلود والاقمشة والسجادات الفارسية والشامية واقمشة الحرير واصناف الكشمير ومنسوجات الموصل والعقاقير الطبية واذا تتبعنا احوال متقدمي الاسلام ومشاهير امرائه والحكام لم نجد احداً منهم الاّ ولهُ حرفة يتقوت منها او صنعة لا يستغني في معيشته عنها علمية كانت او عملية سواء في ذلك الكبير والصغير والمامور منهم والامير فاصحاب العلوم توضح الطرائق وتزيل العوائق وارباب العمل يتبعون رسموه وبينوه ويعملون على مقتضى ما استحسنوه وحيث كان القرآن الشريف حاثاً على العمل والسعي في طلب الرزق حتى كاد يعد فرضاً خصوصاً وقد مدح التجارة والصناعة لم يبق عند العرب

اوهام بالنسبة لاتضاع الصنعة وشرفها فلم يكن احد منهم يرى انه اشرف من غيره ولا انه قروي وذاك مدني ولا انه فقير وذاك غني بل كانوا جميعاً لا يرون الفضل الا لمن اتبع سبيل الرشاد فكانت الصنائع تشرف بهم لا أنهم يشرفون بها بخلاف الجاري في البلاد الاوروباوية والديار النصرانية فشرف الرجل عندهم بقدر شرف صنعته فلذلك كانت رجال الدولة الاسلامية وقادة الجيوش ورؤساء الاقلام لا يبالون باسماء صناعتهم حيث تيسر لهم بها في الدنيا امر معيشتهم كالخياطة والعطارة والجوهرية فكان ابو بكر بزازاً وعمر رضي الله عنه دلالاً وعثمان رضي الله عنه تاجرا وكان علي لصغر سنه ساعياً في خدمة ابن عمه صلى الله عليه وسلم ولما كبر كان يجلب الوقود للصاغة احياناً فعلى مقتضى الشريعة المحمدية يلزم كل انسان اميراً كان او مأمورا ان يقتات من عمل يده وهكذا كان كثير من الخلفاء والصالحين والعلماء العاملين ففي سنة ١٧٥٤ ميلادية اعني في عهد قريب منا كان السلطان محمود الاول جوهرياً وكان يصرف ثمن مصنوعاته في ماكولاته وما يلزم له وكلما اكثرنا البحث في الكتب وتتبعنا اثار العرب وجدنا لهم من التمدن الحسن وحسن الاختراع ما يبهر العقول ويتعسر على غيرهم اليه الوصول فمن ذلك استعمال خيل البريد لسرعة الانتقال متى تأول بثغور بلاد الاندلس من الحدود الفاصلة بلادهم من الهندستان والصين واعظم من ذلك

البوسطة لتوصل المكاتبات الى البقاع الاسلامية كافةً وكانوا يجعلون على الطرق جنوداً منتظمة لحفظ المارة والتجارة من امتداد يد اهل العدوان من المفسدين والعربان وعلى السواحل فنارات تهتدي بها السفن في سيرها في البحار ونحو ذلك من محاسن الاثار

وبالجملة فلم ترَ العرب شيئاً الاَّ عملته ولا فناً نافعاً الا تعلمته فمن ذلك الاشارات الرمزية المستعملة الآن لتوصيل الاخبار السرية وكانت الدروب والطرق داخلاً وخارجاً لا تزال مطروقة بامم مختلفة في تحصيل الضروريات المعاشية والاسباب التجارية ونحو ذلك من المصالح الدنيوية والمقاصد الدينية كالحج الى بيت الله الحرام والسفر لزيارة الصالحين وصلة الارحام وكان بكل مدينة دفاتر لحسابها وقضاياها وديوان يضبط امور رعاياها وعسس يطوف بالليل الى الاشراق وملاحظون بالنهار لما عساه يحصل بالاسواق ومحتسبون لضبط الميزان والمكيال ومواخذة من طفف بقدر ما يرونه من انواع النكال

واما ادارة الحكم في جهات المملكة فلم يكن القائم بها واحداً بل كان السلطان يامر في كل جهة بانتخاب مجلس من اهلها فيقومون بتدبير ما يرونه من المصلحة ومع حصرها في مراكز معينة فكان يرتب لها مأمورون يمرون بالاقاليم ويلاحظون ما بها من المزارع وغيرها وينبهون على ارباب الخدم والوظائف

باداء الواجبات في اوقاتها وتحصيل اموالها وتمييز ما فيه مصلحة لاقوانها وكانت حكام الاقاليم ملزمة في كل شهر بتأدية قوائم ماجرياتها وتقارير قضايا جهاتها ومع هذا كله فكان السلطان يقف وقوفاً تامًا على جميع ذلك ويامر بما يراه موافقاً للحال من مجاز الاعمال واصطلاح الاحوال وبهذه المثابة كانت جميع مصالح المملكة والرعية مدبرة تدبيرًا حسناً وكان من ضاقت عليه الاحوال واحاطت بهِ جيوش الاهوال اذا دخل في حكم اهل الاسلام وانقاد لما لهم وعليهم من الاحكام غمره السرور وانجلى ما كان بهِ من المضائق والشرور كما حصل لاهل صقلية والاندلس حين تخلصوا من يد اليونان ودخلوا في حكم المسلمين فحصل لهم وبهم الراحة وقاموا جميعاً بتحسين الصناعة والفلاحة وجلبوا لهم مستنبتات لم تكن عندهم من قبل كبذر القطن والشمام وكثير من انواع الرياحين كالفل والمام فاستنبتوها من ذلك الوقت وكان من جملتها قصب السكر وشجر الفستق ولسان العصفور وبهم تفننت العرب في منسوجات الحرير وعرفوا كيفية استخراج المعادن والعقاقير واستعمال مجاري المياه من انابيب معدنية حتى وصلوا في اقرب وقت الى اعلى درجة في العز والرفاهية

وكان بمدينة طليطلة اذ ذاك على ما قاله العلامة (دوروي) الفرنساوي مائتا الف نفس وباشبليه ثلاثمائة الف وكان محيط احدى المدن ثمانية فراسخ وبها ستون الف قصر وستمائة مسجد

وخمسون قشلة للمساكين وثمانون مدرسة وتسعمائة حمام غير التي في البيوت وكان فيها من النفوس مليون (اعني الف الف) وستة الاف نول لنسج الحرير خاصة ومن يراها الآن لا يجد بها شيئاً مما كان فلا يعلم اي داهية دهتها واي مصيبة اعترتها حتى اختل امرها وتغير حالها ولم يبق بها من الناس الا نحو ستة وخمسون الفا

وكانت تهرع طلبة المعارف من جميع اقسام الدنيا لتعلم العلم في المدارس الاسلامية وقد اسلم كثير منهم وكانت بلاد الاسلام تتأنق في المباني بانواع الزخرفة خصوصاً ببلاد الاندلس

وكان في كل من مدينة سبته والقيروان والجزائر وتونس وطرابلس مدارس عامة وكتبخانات وكان ثغر سيراف وعدن وجدة والسويس مرسى متاجر جسيمة واردة اليها وذاهبة منها وكان سوق مدينة فيول موعداً لاجتماع الناس من جميع جهات اسيا

واما الرجال الذين نبغوا في رياض الفنون العقلية والعلوم الادبية فلا سبيل الى حصرهم ولا طريق للوصول الى عدهم وذكرهم فان ذكر مشاهير كل فن يحتاج الى مجلد

وخلاصة القول في هذا المقام ان علماء العرب واهل الاسلام هم في كل فن اليد الطولى وكل فضل هم احق به من غيرهم واولى لا سيما الخلفاء العباسية ومن قبلهم بعض خلفاء الاموية

فكان ابو جعفر المنصور العباسي مقدماً في كل فن خصوصاً في علم النجوم والفلسفة محباً لاهلها ولما افضت الخلافة الى السابع من الخلفاء وهو عبد الله المأمون بن الرشيد تمم ما بدأ بهِ جده واقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه فداخل ملوكاً وسألهم ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منهـــا بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطو وبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم واحضر لهم مهرة المترجمين ثم كلف الناس قرائتها ورغبهم في تعلمها فنفق بهِ للعلم اسواق وشمرت دولة الحكمة في عصره عن ساق وكان الباعث لهُ على ذلك فيما يقال انه رأى في منامه رجلاً حسن الشمائل فقال لهُ من انت فقال انا ارسطاليس فسأله عن الحسن فقال ما حسنه العقل فقال ثم ماذا فقال ما حسنه الشرع فكانت هذه الرؤيا من اقوى الاسباب الداعيـــة لاخراج الكتب من هذا الفن الى اللغة العربية وكان بينه وبين ملك الروم مراسلات فكتب اليـــه يسأله انفاذ ما يختار الكتب القديمة المخزونة بالروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فانفذ المامون جماعة منهم الحجاج بن مطر والبطريق وغيرهما فسلمهم ملك الروم بيت الحكمة فاخذوا منها ما اختاروا ورجعوا بهِ الى المأمون فامرهم بنقله الى لغة العرب فنقلوهُ وكان من انفذ الى الروم لهذا الخصوص يوحنا بن ماسويه وكان محمد واحمد والحسن بنو شاكر المنجم ممن عني باخراج الكتب وممن نقل العلوم الحكميـــة

الى اللغة العربية اصطفان نقل لخالد بن يزيد بن معاويه وكذلك البطريق نقل للمنصور ايضاً شيئاً بامره وابن يحيي الحجاج هو الذي نقل كتاب المجسطي واقليدس للمامون وكان في ايام البرامكة ابن ناعمة عبد المسيح الحمصي وسلام الابرش وهلال بن ابي هلال الحمضي وبن آوى وبن رابطة وعيسى بن نوح وحنين وكان امام وقته في صنعة الطب وكان يعرف لغة اليونانيين معرفة تامة وهو الذي عرّب كتاب اقليدس ونقله من اللغة اليونانية الى لغة العرب ثم جاء ثابت بن قرة بعده فنقحه وهذبه وكذلك كتاب المجطسي وكان حنين المذكور راشد اهل عصره اعتناء بتعريبها واسحاق ولد حنين وكان اوحد عصره في علم الطب وكان يلحق بابيه في النقل ومعرفة اللغات وتعريب اللغة اليونانية وخدم من الخلفاء والروساء من خدمهم ابوه ثم انقطع الى القاسم بن عبدالله وزير الامام المعتضد بالله واختص بهِ حتى ان الوزير المذكور كان يطلعه على اسراره ويفضي اليه بما يكتمه عن غيره

وكان هو وابوه في القرن الثالث من الهجرة

وكان يحيي بن عدي وابن المقفع ممن نقل من الفارسية الى العربية وكذلك الحسن بن سهل وغيرهم

وكان الوزير ابو علي الشهير بابن سينا قد برع في علم الطب فذكر عند الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان وكان

في مرض فاستحضره فعالجه حتى برئ، واتصل به وقرب منه ودخل الى دار كتبه وكانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بايدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته فظفر ابو علي فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها فانتخب فوائدها واطلع على اكثر علومها واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة فتفرد ابو علي بما حصله من علومها فاتهم بانه حرقها ليتفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه الى نفسه ولم يستكمل ثماني عشرة سنة من عمره الاّ وقد فرغ من تحصيل العلوم باسرها وكان منشأه بخارى ولما اضطربت امور الدولة السامانية خرج ابو علي منها الى كركانج وهي قصبة خوارزم واختلف الى خوارزم شاه علي بن مامون وما زال تتقلب به الاحوال من بلد الى بلد الى ان استوزر لشمس الدولة وكان في اوائل القرن الخامس من الهجرة واليه تنسب القصيدة المشهورة التي وصف فيها النفس واولها

هبطت اليك من المحل الارفع
وَرْقاء ذَاتُ تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وَصلَتْ على كره اليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع

وكان في القرن الثالث والرابع من الهجرة ابو نصر الفارابي

صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ علم الفلسفة عن يوحنا في ايام المقتدر وشرح غوامضها وكشف اسرارها وقرّب تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها

حكي انه لما ورد على سيف الدولة بن حمدان وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأُدخل عليه وهو بزيّ الاتراك وكان ذلك زيه دائمًا فوقف فقال له سيف اقعد فقال حيث انا ام حيث انت فقال حيث انت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة فزاحمه فيه حتى اخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به قلّ ان يعرفه احد فقال لهم بهذا اللسان ان هذا الشيخ قد اساء الادب واني سائله عن اشياء ان لم يوف بها فاخرقوا به فقال له ابو نصر بذلك اللسان ايها الامير اصبر فان الامور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه فقال له اتحسن هذا اللسان فقال نعم احسن اكثر من سبعين لسانًا فعظم عنده ثم اخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم اخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تاكل فقال لا فقال فهل تشرب فقال لا فقال فهل تسمع فقال نعم فامر سيف الدولة باحضار المغنين فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع الملاهي فلم يحرك احد منهم آلته الّا وعابه ابو نصر وقال له

اخطآت فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً فقال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها فاخرج منها عيداناً وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وركبها تركيباً اخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً اخر فنام كل من في المجلس حتي البواب فتركهم نياماً وخرج ويقال انه اول من وضع الآلة المسماة بالقانون وكان في القرن الثالث من الهجرة ابو الحسن علي بن يحيي بن المنصور المنجم النديم وابنه يحيي ابن النديم

وكان في القرن الخامس ابو علي يحيي بن عيسي بن جزله الطبيب الماهر وكان نصرانيًا ثم اسلم وصنف رسالة في الرد على اليهود والنصارى وبيّن معائب مذاهبهم وذكر فيها ما قرأه في التوراة والانجيل في شان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وانه مبعوث وان اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظهروه وما زالت العلوم الحكمية تتداول من عصر الى عصر ومن قطر من بلاد العرب الى قطر حتى وجد بمدينة القاهرة الكبير المعظم والفلكي المنجم العلامة بن يونس مخترع البندول (اي رقاص الساعة) والربع

وكان في القرن الحادي عشر جلال الدين ملك شاه احد الملوك السلجوقية الذي صارت الناس تؤرّخ بعصره فيقولون كذا كنا في سنة كذا من التاريخ الجلالي

وكان في القرن الثاني عشر من الميلاد بمدينة قرطبة فتح بن ماجية وكان يصنع الاصطرلاب ويعلم العمل به ويقال انه لم يكن اطلع عليه وكان برسم على كرة فبينا هو يسير يوماً على فرس وبين يديه كرة اتفق ان سقطت وداس عليها الفرس فانبسطت واعجبته الصورة التي صارت الكرة اليها فاخذ في عمل الاصطرلاب على وفق تلك الصورة فاذا صح هذا كان من مخترعاته اذ لم يكن رأى قبل ذلك من عمل غيره

والبيروني وكان مشيراً وصديقاً للسلطان محمود الغزنوي

وكان في القرن الثالث عشر من الميلاد بالموصل العالم الكبير والعلامة الشهير بن رشد شارح مؤلفات ارسطاليس

وكان باصبهان ابو حنيفة مؤلف الازياج والتواقيع الفلكية وكان بمراكش ابو الحسن الجغرافي وكذلك ناصر الدين الطوسي مؤلف الازياج والتواقيع الجغرافية وكذا الغزالي احد شعراء الترك

وكان في القرن الرابع عشر تيمورلنك الذي انشاء ديواناً لمذاكرة العلوم واحيائها في مدينة سمرقند ثم ابو الفداء المؤرخ صاحب حماه

وكان في القرن الخامس عشر شاه رخ نجل تيمورلنك وهو الذي نقل العلوم الى بلاد هراه وكان بالقاهرة العلامة المقريزي الذي لم يسمح بمثله الزمان ومن مؤلفاته تاريخ مصر وذكر احوال

من تسلطين بها من المماليك وغيرهم المسمى كتاب الخطط وله ناموس تاريخي وكذا اولوغ بيك التتاري حفيد تيمورلنك ومن اثاره انشاء رصدخانة في مدينة سمرقند

وكان في القرن السادس عشر بمصر جلال الدين السيوطي ومن اثاره تاريخ مصر المسمى حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة وكذا خورمير الفارسي ومن اثاره خلاصة التاريخ وهو الذي عثرنا فيه على استعمال اهل الاسلام الورق بدلاً عن النقود في المعاملات وكان ذلك في القرن الخامس عشر من الميلاد بمدينة طهران

وكان في القرن السادس عشر ايضاً اظهار العلامة كاتب جلبي لرسالة الجغرافية وهي كتاب عجيب في بابه حتى ان كثيراً من الناس ينكر كونه له اذ لم يسبق له مثال

وما ذكرناه في سرد اسماء بعض المشاهير بالنسبة لما ترك اقل من القليل الا انه يتوصل به من اطلع عليه الى معرفة ما كان للمسلمين من المصنفات العلية والعلوم الحكمية حيث لا مانع لهم من معرفة ما فيه فائدة تعود على الوطن فقد غاصوا في بحار العلوم واستخرجوا بقوة ادراكهم درره واستكشفوا غرره وهذا كله في علماء فرع من العلوم العقلية فما بالك بعلماء العلوم الادبية والشرعية ومنه يعلم ان سائر الامم الذين كانوا في الاعصر الخالية انما شفوا غليل ظمائهم بما اغترفوه من ساحل بحار معلومات اهل الاسلام اذ ليس لها اصل تستمد منه سوى الاغتراف من بحر معارفهم الى

هذا الزمان وكذلك شعراؤهم وعلماؤهم ومؤلفوهم لم يهتدوا الى ما اهتدوا اليه الآ بمؤلفات اهل الاسلام وكذلك قواميسهم المتضمنة اخبار البلدان ومشاهير الرجال وحوادث الزمان انما تعلموها مما وقع في ايديهم من كتب العرب فحذوا حذوها فقد دوّن اهل الاسلام في علم التاريخ فضلاً عن غيره تدويناً امتازوا به على غيرهم بقوة فكرهم وحلاوة تعبيرهم والاهتداء لطرق استنتاجهم وهذه المزايا من البرهان على تعودهم على ملاحظة الكائنات الطبيعية والتجارب والاعمال البشرية فقد يوجد نحو الالف والثلاثمائة مؤلف في خصوص علم التاريخ باللغة العربية فضلاً عما أُلف في ذلك باللغة التركية والفارسية

فلما وصل في الكلام على تقدم اهل الاسلام الى هذا المقام

قال الانكليزي لا ريب في تقدم اهل الاسلام في كثير من الفنون وسبقهم غيرهم بفوائد جليلة اخذت عنهم واستفيدت منهم فمن ذلك استعمال البارود الذي تكافأت بسببه قوى الامم او قربت من التكافوء حتى هدأت الفتن وقل عددها وقصرت مدة ما تحرك منها فما قامت حرب الا قعدت ولا التهبت نيرانها الآ بسرعة خمدت على خلاف ما كان في الاعصر الخالية حيث كان الناس يعتمدون على قوى ابدانهم ومضاء صوارمهم ورماحهم الى غير ذلك من آلات المكافحة فكانت الحرب خصوصاً في العرب تنشأ من امر صغير بين نفر يسير ثم لا تزال تزداد وتتولد

من فتيله . فكان يصطلي حرها خلق كثير وتطول مدتها فربما اقامت الحرب الواحدة السبب زيادة عن اربعين سنة فلما اهتدى الناس الى استعمال البارود وآلات اطلاقه خمدت الفتن وصار الغالب على الناس الامن بعد ان كان الغالب عليهم الخوف ولا شك في سبق اهل الاسلام الى استعمال البارود وإن لم يعلم عين مخترعه فقد كان اهل مصر يدخلون ملحه في بعض الادوية ويسمونه ملح البارود الابيض ويبردون به الماء بدل الثلج واستعمله المسلمون في حروبهم ومحاصراتهم بعد القرن الخامس من الهجرة ومما سبق اليه المسلمون ايضاً بيت الابرة الذي يستعملونه في تحرير محارب مساجدهم فيتعرفون به جهة قبلتهم التي امروا باستقبالها في صلواتهم اذ لم تكن الشمس كافية في ذلك لغيبتها ولا الاقطار لاستتارها في بعض الاحيان وكثير من الاماكن وقد عمت منفعة بيت الابرة سائر الناس حتى ان المسافرين براً وبحراً لا يستغنون عن استصحابه ليعرفوا بدلالته الاتجاه الى مقاصدهم . ومما ينسب لاهل الاسلام عمل الورق فقد وجد عندهم سنة ٢٧ من الهجرة وكان اهل بخارى يعملونه من الحرير ثم عمله في حدود المائتين يوسف ابن عمر امير مكة في ايام بني العباس من القطن وكان اهل الاندلس يصنعونه من الكتان والتيل . ومما سبق باستعماله المسلمون الورق بدل النقود واوراق الحوالات التي تسمى بالسفتجة ياخذها المسافر من تاجر في بلدة الى تاجر في بلدة اخرى لخفة الحمل

والامن من قطاع الطريق واهل الفساد وقد رأيت في بعض التواريخ العربية من جملة اعمال العائمة بالنفع حفر الخليج العتيق المعروف بخليج القلزم وان ذلك كان باذن من عمرو ابن العاص او من عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وذكر بعض المؤرخين ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الافرنج البحر الاحمر فيكثرون بالمشرق وبلاد العرب . ثم لما كانت ايام السلطان الفاخر عزم وزيره على الشروع في حفره فعرضت له موانع عاقته عنه ثم استعوض ذلك بالعزم على توصيل بحر جرجان بالبحر الاسود بان يحفر خليج بين نهري الطونة والولغة فمنعه عن ذلك ايضًا فساد اخلاق طوائف القزاق المقيمين بسواحل تلك المياه

فعند ذلك طاب خاطر الشيخ بما القاه اليه صاحبه الانكليزي اولاً وآخرًا اذ رآه محبًا للحق وفي الحكم منصفًا وبتقدم الملة الاسلامية في سائر الفنون معترفًا وزاد حبه له اضعاف ما كان

وكان الشيخ قبل ذلك يمنع نفسه من المباحث في الامور الدينية خوفًا من ان يكون ذلك سببًا في حصول النفور بينهما وكان الانكليزي مراقبًا ذلك ايضًا فلقًا بما يجب للشيخ من الحقوق لما رأى فيه من كثرة الورع والتخلق بالاخلاق المرضية وفي ابتداء الكلام بينهما هذه المرة في امر الديانة ظن الشيخ ان الانكليزي

ربما يشير الى الديانة بما يدنسها فلما قص عليه ما قص ولم يظهر من كلامه في شأن الملة ادنى نقص حيث امتنع عن الجدال ولم ينسب للملة الاسلامية من التاخير ادنى سبب بل عزا اليها استمرار التقدم بما اكتسبته في الزمن الخالي حتى صارت اساسًا يعتمد عليه النوع البشري في تقدمه الحالي والاستقبالي وانه لولاها لارتفعت من بين الناس موجبات الالفة والمسارّ وامتنعت عنهم اسباب التمدن واليسار فمن ذلك الوقت اعترف الشيخ لصاحبه بكثرة الاطلاع والوقوف علي حقائق الامور والاوضاع

فخاض معه بحر هذا البحث المتعلق بالدين ثم قال · ومما يستطرد في هذا المقام ذكر اديان العرب قبل الاسلام

كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة · وكانت اليهودية في نمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة · وكانت المجوسية في بني تميم

واول من غيّر دين الحنفية عمرو بن لحى ابو خزاعة وهو انه رحل الى الشام فرأى العماليق يعبدون الاصنام فاعجبه ذلك فقال ما هذه الاصنام التي اراكم تعبدونها قالوا هذه اصنام نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فقال اعطوني منها صنمًا اسير به الى ارض العرب فيعبدونه فاعطوه صنمًا يقال له هُبَل فقدّم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه

واول ما كانت عبادة الاحجار في بني اسماعيل وسبب ذلك

انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم فتفرقوا في البلاد وما من احد يظعن الاّ حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا له فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ثم تناسلوا فنسوا ما كانوا عليه من دين اسماعيل فعبدوا الاوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلال

وكان لاهل كل دار صنم يعبدونه فاذا اراد الرجل سفرا تمسح به حين يركب وكان ذلك اخر ما يصنع اذا توجه الى سفره واذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله فاتخذت العرب الاصنام وعكفوا على عبادتها

وكانت لقريش وبني كنانة العزى وكان حجابها بني شيبة وكانت اللات لثقيف بالطائف وكان حجابها بني مغيث من ثقيف وكانت مناة للاوس والخزرج ومن دان بدينهم واما يغوث ويعوق ونسر فقيل انهم كانوا اسماء اولاد آدم عليه السلام وكانوا اتقياء عبادا فمات احدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا فراوْا ان يصوروا صورته ليذكروه اذا نظروه فصوروه من صفر ورصاص ثم مات اخر ففعلوا ذلك الى ان ماتوا كلهم فصوروهم هناك واقام من بعدهم على ذلك الى ان تركوا الدين وعبدوها الى ان بعث الله نوحًا عليه السلام فنهاهم عن عبادتها فقالوا ما اخبر الله به عنهم لاتذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرا (الاية) ولما عم الطوفان الارض طمها وعلا عليها التراب زمنًا طويلًا ثم

اخرجها مشركوا العرب فعبدوها وكان ودّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر .

هذا ما كانت عليه العرب قبل الاسلام وقد صاروا بعده امةً واحدة قوية والفضل في ذلك كله للقرآن المجيد ومن العجيب انكم معاشر الاوروبيين تعلمون ذلك وتعزون الى الاسلام تاخر النوع الانساني في المدنية

فقال الانكليزي لا يخفى على سيدي عادة اهل المذاهب والاديان من التعصب والتحزب من قديم الزمان فكل يميل الى ترجيح مذهبه بما يصل به الى بلوغ مأربه ويعزو الى دينه كل فضيلة ويصفه بكل صفة جميلة فيأخذون بحواس المتدينين ويجذبون اليهم قلوب الجاهلين فلا يرون الاّ رأي اسلافهم ولا يعلمون الاّ ما سطر في تآليفهم ولا يضاهون قوانينهم بقوانين غيرهم ولا قواعدهم بقواعدهم الاّ لمقاصد فاسدة واغراض كاسدة ولا يفرقون بين الصحيح والاصح والراجح والارجح واما انا فلست من هذا القبيل ولا اليه عقلي يميل وليست النصرانية عليّ محتمة ولا احكامها عندي محكمة بل الواجب عليّ اتباع الحق كما هو الواجب على كل عاقل من غير فرق وانا اعلم من قبل ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث الرسل عبثًا بل ارسلهم لهداية من اتبعهم وما قصدت بفراقي بلدي واهلي واولادي وتوجهي الى بلاد المشرق واقامتي بمصر

وتعاطي اللغة العربية الاّ الوقوف على حقيقة الملة الاسلامية ودرجة علمائها فان مؤلفات الاوروباويين في هذا المعنى مشحونة باكاذيب مضلة واختلافات مخلة كقولهم في كتبهم ان محمدًا يقول ان النساء لا يدخلن الجنة يوم القيامة

فالتفت الشيخ للخواجا عند ذلك وقال مثل هذا لا يقال من امثالك ولئن كان معتقد علمائكم من هذا القبيل ومؤلفات قدمائكم على نحو هذا التمثيل وها هو كتاب الله بيننا يتلى وكذلك كتب المفسرين وحملة الشريعة اجمعين لم يوجد فيها لمثل ذلك ادنى اشارة فضلاً عن التصريح بعبارة وقد قدمت لحضرتكم ان جميع كلام النبوة شرح للقرآن قال تعالى (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) واذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجده يذكر المؤمنين الاّ ومعهم المؤمنات ولا المسلمين الاّ ومعهم المسلمات ولا الصائمين الاّ ومعهم الصائمات قال تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) وقال تعالى من عمل صالحًا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين

الله كثيرًا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجرًا عظيمًا (هو الجنة بما فيها) وهكذا في غير ما اية وان اردت ان اطلعك على مواضع ذلك من المصحف الشريف لتقف على الحقيقة بنفسك فعلت فالكتاب والسنة والاجماع على ان للنساء ما للرجال من الثواب وعليهن ما عليهم من العقاب لا فرق بين حرٍ ورقيق ومولى وعتيق وقال صلى الله عليه وسلم ايما امرأة غاب عنها زوجها فحفظت غيبته في نفسها وطرحت زينتها وقيدت رجلها واقامت الصلاة فانها تحشر يوم القيامة عذراء طفلة فان كان زوجها مؤمنًا فهو زوجها في الجنة وان لم يكن زوجها مؤمنًا زوجها الله من الشهداء فكيف يتوهم فيمن اتصف بالعدل فضلًا عن اتصافه بالفضل ان يضيع عمل عامل او يحرم الراجي فضله الشامل

فقال الانكليزي لو علمت نساء اوروبا بقولك لاحببن دين الاسلام لكن ربما يمنعهن شيء اخر اشق عليهن من كل شيء واضر وهو اتخاذ الرجل منكم عددًا من الزوجات

فتبسم الشيخ وقال اراك قد خرجت عما نحن فيه اذ لا دخل لتعدد الزوجية ولا لدين النصرانية في احياء العلوم الادبيـة ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيوية اذ لو كان كذلك لما احتجتم الى اليونان فمن بعدهم من العرب الى الآن في الوصول الى ما وصلتم اليه فانهم لكم في كل ما علمتموه ملاذ واحتياجكم اليهم كاحتياج المتعلم الى الاستاذ

واما ما كان من امر تعدد الزوجات فليس هذا خاصًا بنا بل هو عامّ لنا ولغيرنا ولم يمنعه الا طائفة النصارى فقط حتى ان من قبلهم كانوا يجوّزون التعدد ايضًا فقد رأيت في بعض كتب التواريخ نقلاً عن دانيال القسيس ان ملوك فرانسا الاولين كانوا متزوجين بزوجات متعددة مع انهم كانوا متدينين بدين النصرانية ومن ثم كان لكل من غنطران وشربير وداغوبير الاول ثلاث زوجات ولغير داغوبير وهوقلودوميرا اربع زوجات في آن واحد وفي سنة سبعمائة وستة وعشرين من الميلاد كتب البابا غراغوار الثالث الى الواعظ بدسفاس حين ارسل اليه يسأله عن جواز التزوج بامراة ثانية اذا اصيبت المراة بداء يمنعها عن القيام بحقوق الزوج جاز لهُ ان يتزوج بامرأة اخرى وعليه للمصابة مؤنتها الضرورية

ولعل الحكمة في اباحة تعدد الزوجات عندنا وعند من كان على رأينا ان التدبير الالهي لما ميز الرجل بقوة البنية وطول زمن التناسل بالنسبة للمرأة وسلامته من الاعذار المعتادة للنساء في اوقات معينة كالحيض والنفاس راعى الشرع جانبه لذلك

واما حكمة الافراد التي عولتم عليها واستندتم في الحكم اليها فلا يمكن الجزم باطرادها في كل طبيعة ولا بانها لقطع ما تخشونه من المفاسد ذريعة فقد يأتي زمن يمتنع فيه كثير من الامور الفظيعة التي لا وجود لها في بلادنا كقتل الاطفال واسقاط الاجنة

ونحو ذلك

فقال الانكليزي هذا كلام معقول لكني نظرت في المصحف مرة فرأيت في السورة الثالثة من سورة البقرة ما ظاهره الامر بضرب النساء مع انه يخل بشرف الانسانية

فاجابه الشيخ الا ان هذا لا يوجد الا اذا علم الزوج منها خلاف ما كان يعهد على انه ليس له ذلك من اول الامر بل يستعمل معها النصيحة فان ابت فبالهجر فان ابت ضربها بشرط ان لا يضرّ بها على ان حسن العشرة المامور بهِ في القرآن ربما جعل التشديد عليهن مذموماً وصير مَن عاقبهن على كل ما فرط منهن ملوماً كقوله تعالى (الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان) وكقوله صلى الله عليه وسلم احملوا النساء على اخلاقهن . وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبغي للرجل ان يكون في بيته كالصبي فاذا طلب ما عنده وجد رجلا وقال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ما حق زوجة احدنا عليه قال ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر الا في البيت . ومعنى لا تقبح . لا تسمعها المكروه ولا تشتمها ولا تقل لها قبحك الله ونحو ذلك الى غير ذلك مما يعظم امر النساء ويوجب رعايتهن والمبادرة الى القيام بحقوقهن وهل حرية النساء الا ان يبلغن حقوقهن على ازواجهن حسبما تقتضيه المروءة وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص

الرجال كما نبهت على خفايا حدوده وليدت ظواهرها الشرائع وليس فيما يقبل العقل المنزه عن العصبية ان تكون حرية النساء عبارة عن تخليتهن وما اشتهين مع ما يشاهد في الاكثر من غلبة شهواتهن واهوائهن على عقولهن ·

وبينما هما يتحاوران اذا بضجة في صدر السفينة تبين انها اشارة للوصول الى المينا فحيى كل صاحبه بالسلامة وهمّا بالصعود الى البر وتذكر الشيخ رجاء ولده في امر يعقوب فاخبر بو صاحبه ويلح باجابته المرغوب فخرجوا متوجهين الى بيوت المسافرين

المسامرة الحادية والعشرون
كتاب برهان الدين

فلما استقر قرارهم واطمأن بهم المنزل قال الانكليزي للشيخ ان غدا توجه البوستة الى مصر

فقال الشيخ لابنه اين كتابك لوالدتك فاخرج لهُ كتاباً هذه صورته

حضرة الوالدة العزيزة المصونة · وحق المهد والدر الذي لا يقوم مقامه الشهد ومناغاتي في السحر ما غاب شخصك عن خيالي ولا خطر التسلي عنك ببالي بل مذ فارقتك لم ترقأ لعيني دمعة ولم

تهداء لقلبي لوعة ولم اجد لعيني في النوم قرارًا ولا لقلبي راحة وكنت قبل ذلك اجهل الفراق والمه لجهلي باحواله ومشاقه وكنت اذا قرأت في بعض الكتب واطلعت على ما قيل فيه من شعر العرب وغيرهم اراني لا اذوق لهُ معنى ولا افهم ما يراد منه بل كان يمر بي ككلام الساهي او اللاعب اللاهي الى ان تبين الخبر بالعين وارتفع الشك فذقت مرارته ووقعت في بحر هوله غريقًا

شكا الم الفراق الناس قبلي * وروع بالنوى حيٌّ وميتُ
واما مثل ما ضمت ضلوعي * فاني ما سمعت ولا رايتُ

فصرت اردد في الاسحار قول من تناولته يد الاسفار

احبابنا لو لقيتم في اقامتكم
من الصبابة ما لاقيت في الظعن
لاصبح البحر من انفاسكم يبسا
كالبر من ادمعي ينشق بالسفن

وما زادني قلقًا وشجونًا وأرقًا ما اراه في عالم المثال فتارة اراكِ تعانقيني وتقبليني وتارة اراكِ نائمة عن شمالي وتارة عن يميني وتارة ارى انك تنصحيني وتارة ارى كأن الرياح اشتدت والامواج الى الجو قد امتدت وان الحق تعالى على خلقه غضب وكأن السماء تمطر ماء كافواه القرب ونحن في المركب لا نسمع الاَّ انينًا واستغاثة وحنينًا وان الحبال قد تقطعت والقلوع تمزقت وانقلبت المركب

وغرق من بها فارى نفسي على خشبة وكأن الامواج تدفعني الى جزيرة وكأن اقوامًا اخذوني وهموا بقتلي فاقوم من الفراش على قدميّ فاستعيذ بالله وابسمل ثم اعود ثانيًا بقصد الرقاد فما ارى الحال الا في ازدياد ولم ازل هكذا كل ليلة الى الصباح ففي ليلة رايت ما رايت وتوجهت الى والدي وقبلت يده فعلم اني لم اغتمض بنوم فسالني عن حالي فاخبرته بما وقع لي طول ليلتي فسكّن روعي وطيب خاطري بكلام رقيق اروي لكِ منه ما امكنني حفظه قال

مما يمنع عنك ذاك ويقيك التخيلات والاحلام ان تستحضر وانت على الوسادة ان حالة اهلك احسن من حالة كثير من العباد ولا تنظر لما في الاسفار من المشاق الوقتية والمضار بل انظر لما يعقب ذلك من النفع العائد عليك وعلى اهلك فان ذلك يغير ما عندك من الانفعالات بضدها واصرف افكارك الى ما يسليك ويجلب لك السرور ويسهل لك معاناة الشدائد ثم عطف واخذ يورد على سمعي من الحكم والمواعظ ما انساني همي وارقي تلك الليلة فقال يابنيّ كن في جميع احوالك كامل العقل متسمًا بسمة اهل العلم والفضل واشتغل بما يعنيك متجافيًا عما يشينك ويُعنيك قائمًا بما يجب للناس من توقير كبيرهم وملاطفة صغيرهم متحليًا بصفات اهل الكمال متخليًا عما يزري بك من الاقوال والافعال واياك واصحاب الشهوات والاخلاق الذميمة ولذ بمن يصلح حاله ويرشدك الى الخير مقاله وغذّ قلبك بثمرات العلوم

كما تغذي جسمك بما تستطيب من المشروب والمطعوم ولا تكن لكل ما تطلع عليه اسير التقليد كمن ظن الورود وهو عن الشط بعيد ولا تغتر بحلاوة الالفاظ فكل لفظ له باطنٌ وظاهر ولا يقف على الفرق بينهما الاَّ اللبيب الماهر فما كل ما يعلم يقال ولا كل ما حسن ظاهره يقبل على كل حال بل تارة يوافق الصواب فيمدح وتارة يضل عنه فيستقبح ولا ترو شيئًا من غير دليل فتكون كمن يطب غيره وهو عليل ولا تثق الاَّ بما ترى فائدته بديهية ومنفعته عمومية ولا تتبع المقاصد الشخصية والفوائد الذاتية الوقتية وكن غالب وقتك مستفيدًا فما وافق رايك فاحفظه وما لم يوافق مذهبك فالفظه واعلم ان غالب هموم الناس تخيلية وتصورات وهمية منشأُها امور طرأت عليهم ولم تكن من قبل مألوفة فلعدم علمهم بكيفياتها يصورونها في انفسهم بصورة غير صورتها ولجهلهم باسبابها يلبسونها ثيابًا غير ثيابها فتظهر لهم في الصورة التي رسموها وتكبر في اعينهم على قدر الهيئات التي بها وسموها فتتمكن من مخيلتهم وتحل في وجودهم كحلول الروح في الجسد فتشتغل جميع الحواس بها وبتحول الفكر بكليته نحوها وعند ذلك لا يرى الانسان غيرها فان كان ما تخيله خيرًا عظم عنده شيئًا فشيئًا حتى لا يرى ان هناك اعظم منه وان كان شرًا رأى انه فوق ما يتصوره المتصورون ويقدره المقدرون وانه لم يتقدم مثله لاحد من ابناء الزمان وانه ليس في الامكان ابدع مما كان فيكون حزنه وفرحه في التقديرين

بمقدر ما توهمه في الحالين ومن تكرار هذه الصور في القوة المخيلة تتزايد حتى تظهر لصاحبها كانها من جملة الامور المرئية وتؤثر فيه كانها حقيقية وان كان التأثير زائدًا عن الطاقة تنتج منه مضار جسيمة اما في العقل فيختل واما في الجسم فيعتل حتى انه في بعض الاحيان يرى الموت وكأنه قد كان فما رايته في نومك من التمثيل ليس الاّ من هذا القبيل لان الفراق امر لست معتاده فصورته في نفسك بصورة غير صورته فتارة رايت ان السفينة قد غرقت بمن فيها وتارة رايت انها رست على بقعة من الارض عامرة بالناس والاشجار فكانت هذه الرؤيا ما ظننته وفي يقظتك توهمته وكذلك رؤيتك لوالدتك واخواتك وعماتك سببه تصور حبك لهم ورغبتك في صلاح حالهم وخشيتك من فقرهم وفاقتهم فلذلك رايت ما رايت من لعبهم تارة وبكائهم تارة اخرى في البيت فلو تفكرت فيما يحصل لاهلك ووالدتك وللمحبين في عودتك لا سيما اذا راوك متحليًا بحلل الادب متصفًا بصفات اهل العلم والرتب ولاحظت ما تصفونك به من العلم والورع والعفة واجتناب البدع مع ما تحوزه من الشهرة فلا اظن انك تقول بمثل هذه الوسوسة بل يخلو قلبك منها ويدخل عليك السرور في الغدوّ والرواح وتعيش عيشة اهل التقى والفلاح الذين رموا انفسهم في بحار تقديره ووكلوا امورهم الى تصاريف تدبيره عالمين بانه اللطيف بحالهم الخبير بما يصلح لهم في حالهم ومآلهم واعلم يا ولدي وفلذة كبدي

ان من استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الانذال حقر ومن جالس العلماء وقر ومن مزح استخف به ومن آكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطأه ومن كثر خطأه قل حياؤه واحذر يا ولدي انا وصلت الى والدتك وسألتك ماذا رايت وماذا رويت ان تقول لها شغلني حبك عن تحقيق ما رايت او منعني شوقي اليك عن حفظ ما رويت او تفكري في حال عماتي واخواتي الصغار شوش فكري اناء الليل واطراف النهار بل قدّر انك تقول لها رايت كذا ودريته ورويت كذا وفهمته وما كفاني ما كنت اتعلمه بالنهار بل كنت اسهر تارة مع والدي وتارة وحدي الى الاسحار فعند ذلك تعظمك وتجلك كثيرًا . فقبلت يده وانصرفت وعملت باشارته فاطمئن قلبي وانشرح خاطري وصرت من ذلك الوقت الى الان مشتغلا بالاستفادة مجتهدًا في الاستزادة ومن تفضل الله عليَّ اجتمعت في السفينة بشخص انكليزي مع احد الملاحين له المام باللغة العربية فوقع بيني وبينه مزيد الالفة وارتفعت بطول الصحبة من بيننا اسباب الكلفة

المسامرة الثانية والعشرون

برهان الدين وصاحبه

(تتمة من الكتاب)

فصرت ارتع معه في رياض العلم واتمتع من فوائده بما لم اجد عنه اعتياضاً فتشبثت بحبال وده وتمسكت وتعطرت بطيب اخلاقه وتمسكت لانه فضلاً عن كونه يعلمني درسي في اللغة الانكليزية قضيت معه ايام السفينة في مسامرات وجدت لها مزية اذ كشف لي من الامور معماها وجلا عين فكرتي بعد عماها فتارة كان يحدثني عن سابق اسفاره وتارة يطرفني بحكايات ونوادر وتارة يتحفني بالفاظ كامثال الجواهر وكنت قبل ذلك لا التفت لتنويع اساليبه بل كان جل ميلي اليه لاجل التسلي به لكن رايت ان جميع ما يحكيه لا يخلو من فوائد اذا كان السامع نبيهاً فقلت في نفسي لماذا لا اكتب ذلك عنه واحفظ ما اسمعه منه وكل كتاب حررته لوالدتي يكون بعضه من ذلك والبعض من فكرتي لتعلم ما علمت وتقف على قدر ما حفظت وتتسلى بعباراتي عن رؤية ذاتي فصرت لا اسمع منه شيئاً الا كتبته حتى جمعت من ذلك

جملة تصلح ان تسمّى عند المسافرين بالرحلة وجعلتها كسفينة آخذ
منها ما يلزم واحرره لك وها انا اسرد عليك بعض ما نقلته عنه
واستفدته منه وابدأ بذكر سبب معرفتي به وهو انه لما ازمعنا من
الاسكندرية على الرحيل وصرنا بعيداً عن ميناها بنحو ميل نظرت
الى الساحل والمدينة فوجدتهما يصغران شيئاً فشيئاً كلما نعدنا
وكنت لا استطيع صرف نظري عن هذه الجهة حيث انها مسقط
راسي حتى صرت لا اراها الاّ كنقطة سوداء في وسط ضباب او
هلال شك في خلال سحاب الى ان صرت لا انظر غير الماء
والسحاب المسخر بين الارض والسماء فكنت ارفع نظري الى اعلى
واتامل في قدرة الخالق ولا اعلم من شي شيئاً وكنت ارى السحاب
تارة ينعدم وتارة ينقطع وتارة يكون متفرقاً ثم يتجمع وتارة ارى
سحابة صفراء ذات نقط زرق وخضر حلت محل سحابة بيضاء وتارة
كنت ارى على سطح البحر في آن واحد جملة منها في اشكال وصور
والوان مختلفة تبهر النظر وكانها تطوف حول اخرى ثم اراها حلت
محل بعضها وتبادلت او اخذت في التناقص او تكاملت وبعد
برهة من الزمن ينعدم ذلك كله كان لم يكن فكنت اقلب طرفي
الى الافق من جميع جهاته واتبعه في استدارته واختلاف اشكاله
وهيآته فارى الشمس ساطعة على وجه الماء لا يحجب نورها
حاجب فعند ذلك ارى للماء الواناً لا حصر لها واذا كان البحر
هادئاً والريح في سكون رايت فيه من الصور والهيئات ما لا اراه

حين يكون الغيم او تهب الرياح فارى تلك الصور تمتزج مع بعضها وتتعانق ومنها ما يعلو بعضه بعضاً فما سفل يمر في جهة وما علا يمر الى جهة اخرى وعند ذلك تسمع اصواتٌ مختلفة كالحنين تارة وكالانين تارة وكل هذه الحركات يتعدى اثرها الى السفينة فتارة تتمايل مع اللطف وتارة تتحرك بقوة وعنف ولكون هذه اول سفرة ركبت فيها البحر واول مشاهداتي لعجائب هذه الامور كنت لا اتحول من موضعي الاَّ بنداء والدي اما لتعاطي الزاد او لقضاء الحاجة او للرقاد وكنت اظن انه لو تركني وشاني لكنت اقضي الليل والنهار في مشاهدة هذه الاثار فبينما انا اتامل في اسرار هذه الآيات التي لا يحيط بعلمها الاَّ عالم الخفيات واذا برجل من ملاحي المركب يقول لي بلغتي ما رايت في سفر البحر وما هذه العزلة عن الناس فقلت له انها اسلم واشرف واحسن شيء والطف اذ تجعل الافكار متجهة الى التامل في عظمة الخالق وقدرته وتعين الانسان على معرفة بديع صنعته فمن اين لك بمعرفة لغتنا ولست من جهتنا فأبن لي جليَّ امرك واصدقني فقال اني تحصلت على علم العربية باربع سنوات من عمري قضيتها في الاسر والعبودية عاينت فيها انواع الاهوال من الذل والاهانة ومشاق الاحوال وساشرح لك قضيتي ان طالت معك صحبتي لكن نسيت الان اكثر ما علمته لعدم المسامرة فيه مع اهله لان كثرة اسفارنا كانت لبلاد غير بلاد العرب ومن وقت تحولي الى سفن الكومبانية المخصصة لجوب جهة

مصر والجهات المشرقية اخذت في تذكار ما نسيت فان اردت ان اعلمك لسان الانكليز وتعلمني اللسان العربي كان ذلك مامولي وغاية اربي فرغبت في ذلك لوجهين الاول ان يكون سميري فاتسلى بما ينقله من سابق مشاهداته والثاني ان اتعلم اللغة الانكليزية من غير تكلف ومما حملني على الميل اليه كون والدي مع صاحبه الانكليزي دائمًا في محادثاتهم العلمية فلذلك قبلت قوله لما فيه من الفائدة لي وله

فصرت اعلمه ويعلمني واظن ما استفدته منه اكثر مما استفاده مني كما ستريته وتيقنت ان ذلك سر دعاء والديّ وبركة رضاهما عليّ ولو ان كلام والدي فيه اكتفاء لكني كنت لا ادري الطريق الموصلة الى معرفة ما ارشدني اليه فعرفتها من حين عرفت هذا الرجل لانه كشف لي عن امور كثيرة كنت اجهلها ومن عباراته المتنوعة وحسن لفظه اشتغلت بكتابة ما كان يلقيه وحفظه فوصلت الى درجة لم ادر مبلغها وكنت ملازمًا له لا يفصل ذاتي من ذاته الاّ اداء ما عليه من خدماته فانقضت مدة البحر على احسن حال وهو باق معنا الى الان

فاتفق ان شاهدني ذات يوم وانا انظر الى البحر واتعجب من عظمته وقدرة مدبره واذا به قد نبهني بيده وقال لي فيمَ اطلت الفكر فقلت له في عظم هذا البحر فقال لي ليس هذا هو البحر لانه وان كان عظيمًا لكنه صغير حدًا بالنسبة لغيره من البحار اذ هو كجدول

من نهر او جعفر من بحر فقلت لا زلت ملاقيا وهل هناك بحار غير هذا فتبسم متعجبًا ونظر اليّ مستغربًا وقال كانك لم تقرأ علم الجغرافية فقلت وايّ علم هذا فضحك وقال هو العلم ببسط الارض وهيئاتها في الطول والعرض وما فيها من البحار والمدائن والانهار وما اختص به كل بقعة منها واديان اهلها وكيفية حكومتهم وما هم عليه من الاخلاق والاحوال وغيرها فقلت له لم اسمع بهذا الاّ الآن ولم اروه الاّ عنك فقال كيف هذا مع ان العرب هم الذين دونوه واسسوه أفتراهم الان تركوه ونسوه مع ان معرفته عند جميع اهل الاديان من اهم الواجبات على كل انسان اذ به يعلم ما على الكرة من المخلوقات ويقف على حقيقة كثير من الكائنات وبدونه تكون معرفة التاريخ عسرة ثم قال فاذًا يكون علم التاريخ عندكم معقودا فقلت له لا الاّ اننا لا نجعله من الامور الضرورية اللازمة بل نعده من ضمن القصص والاخبار اذ ليس علمًا يحتاج الى معلم فيمكن ان يقراه الانسان من نفسه فلما سمع ذلك مني عبس واعرض وطاطا راسه الى الارض وسكت مليًا ثم رفع راسه وقال الان علمت سر تقهقر الملة الاسلامية وسبب ضعف اهل البلاد المشرقية وهوانها لما هجرت علم التاريخ بمدارسها زال من بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سببًا في سطوتها وعظم بطشها وتمكن قوتها. وحيث لا قوة للملة الاّ بقوة رجالها ولا تكمل قوة الرجال الاّ بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقي العلوم مما

يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلهـا تحت أسر غيرها فيجور عليها ويذلها واعلم ياولدي ان فن التاريخ جم الفوائد عزيز الفوائد اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى يقتفي اثرهم من يروم الاقتداء بهم في احوالهم الاَّ انه محتاج الى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها الى الحق لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل فربما لا يامن فيها من مزلة القدم ومنفعة علم التاريخ عامة للخاصة والعامة وهو مشير كل امير وامير كل مشير وسمير كل وزير وظهير كل سمير اذا سئل عن خبر اجاب وابدى فيه العجب العجاب ترتاح به الارواح الفاضلة وتميل اليه النفوس الكاملة من الحكماء والاساطين والملوك والسلاطين وهو مرآة الزمان ولاخبار الماضين كالترجمان فكم فيه من حوادث وامثال به نقف على ما كان عليه اباؤنا واجدادنا ومشاهير كل ارض وامة والحوادث التي مرّت بين الامم وبعضها والفتن التي اوجبت انقلاب البقاع باهلها ونرى الامم واحوالها والامراء وافعالها والعلماء واقوالها وما مر على الخلق من خير فاوجب تقدمهم وشهرتهم ومن شر فاوجب فقرهم وفاقتهم فلم يترك سيرة ملك الا احصاها ولا احوال رعية الاَّ استقصاها فهو خزانة الحوادث كل احد ياخذ منه ما يلزم لصنعته فياخذ منه المجاهد ما يلزم للجهاد والعالم ما يزيد به شرفه بين العباد وصاحب الحرفة ما يزيد الرغبة في صنعته

فهو اليعسوب لكل فن والمفتاح لكل امر حسن وغير حسن فناخذ منه ما يلزمنا فنعلم الممدوح فنحبه والمذموم فنجتنبه فهو المنبع والاصل لاكتساب حلل الفضل والحصن المانع من غوائل الجهل واهم شي يجب تدريسه بالمدارس والمكاتب لتنبيه ابناء الملة على صفات الكمال فيرغبون في اكتساب تلك الصفات ويجوزون بها اعلى الدرجات فيعلمون صفات الابطال وما حازوه من الشرف عند النزال لحاماتهم عن اوطانهم ويطلعون على صفات الصالحين الذين اورثوا ملتهم ثمرات علمهم وعملهم فيتعودون من الصغر على الاتصاف بصفاتهم والاقتداء بافعالهم ولا يكفي ان تتعلم الاطفال كيفية النثر ونظم الشعر واصول الكلام بل الاهم من ذلك اكتسابهم حب الوطن وتمرينهم على ما سبق من حوادث الزمن حتى يكونوا مثالا وقدوة ومن الغريب اننا نرى اغلب الخلق يرغبون في الاطلاع على سير مخترعة وخرافات واكاذيب ونحو ذلك من الاساليب ولا يعلمون لمن اشتهر من ابناء جنسهم اثرًا ولا يروون عنه خبرًا فنراهم يجهلون سير المشهورين من ابناء ملتهم ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم ويعتنون بمعرفة من مات من منذ آلاف سنين اكثر من اعتنائهم بنسبة اقاربهم وجنسهم والمتصرف في امرهم ويرغبون في معرفة البلاد البعيدة ولا يعتنون بمعرفة ارضهم وارض المدينة القاطنين بها

فخجلت من كلامه وتمنيت ان تكون تربيتي حسب مرامه

فحين رأى ذلك مني اراد ان يذهب الخجل عني . فقال لا باس عليك كأنه لم يهتد بنفسه احد وليس التقصير مَن قبلك وإنما اللوم والمعتبة على من نُصبت لهُ اعلام الهداية وهو ينظر فلم يدلّ عليها وبانت لهُ غاية الرشد فلم يسلك بنفسه واتباعه اليها وعلم فوائد التربية فلم يطلبها واعطي كواسب الجوارح فلم يرسلها وظهرت لهُ الفضائل فلم يكسبها من كافل ارتفق وساد الراحة وقعد بهِ الكسل وهو يرى نجاحه واميراخمد همته الاغفال واخمل ذكر مساعيه الاهمال وكل راعٍ عن رعيته مسئول وكل طالب مآخذ الخيرات عليها مدلول

فقلت له نصحت فابلغت وسمعت فوعيت فلك الشكر على ما افدت واسأل الله ان يبلغني بك ما قصدت فلقد دللت طالبًا ونبهت نائمًا وعرفت مجهولاً وانلت مسئولا وفتحت لي ابواب الطلب وشددت يدي منه باقوى سبب وتركتني انظر الامر بعين ما كنت انظر بها فلقد انشئ بمصر مدارس لتعليم الشبان اظن ان العمل جار فيها على ما وصفت ومسلوك بابنائها في التعليم والتربية الطريق التي اوضحت

فقال ان صح ذلك فقد طابت اعمالهم وتسابقت في رضاهم امالهم واستحق ولاتها الثناء الجميل واستفادوا من الملك الاعلى الجزاء الجزيل وانا ان شاء الله تعالى لا آلو جهدًا في ارشادك وتبليغك من المعرفة الى مرادك ان طاب مقامي وبلغت مرامي فقلت له

ا مرامك وبم يطيب مقامك فاطرق اطراق الحزين حتى سمعت
ن صدره بعض الانين ثم رفع راسه مصعدًا انفاسه وقال
لانسان ممتحن ولا عتب على الزمن فقد الجأتني الضرورة الى
لاحتراف وترامت بي الحاجة فيما تراه من الاعتساف فليس لي
بنية غير سكنى الارض القارة ولو قدرت ما اقمت بهذه المنازل
لكارة الفارة فان بلغت مقصودي بذلت في تربيتك مجهودي
يا رجوك ان تسأل حضرة الوالد ان يكلم صاحبه في امري واني
رغب الدخول في جملته والتمكن من الاقامة بخدمته فوعدته
بذلك واقبلت عليه مستخرجًا بالسؤال مكنون ما لديه فبادر
الاجابة وقال ان شئت جعلنا اول مسامرة بيننا كلامًا اجماليًا
من علم الجغرافيا فيما يتعلق بهذه الارض التي هي مسكننا يكون
كالمقدمة المشوقة الى الاعتناء بتعرف تفاصيل ذلك العلم النفيس
وعند بلوغ المقصود ان شاء الله تعالى تحصل على ما يلزم لك من
الآلات التي تجعلك بالنظر فيها عند التعلم كانك تنظر من
مكانك الى جميع بقاع الارض وبحارها وانهارها وجبالها فاظهرت
الابتهاج بحسن نيته واثنيت على لطف اخلاقه وحسن سجيته
واخذت القلم لاكتب ما يمليه لاتذكر ما اسمعه منه واعيه فلم ينطق
بكلمة الا كتبتها ورايت ان اثبت ذلك في هذا الكتاب الذي
سطرته لكي ادخل السرور والاطمئنان على قلب اشفق الناس
علي واميلهم لايصال كل خير الي ليزيد سرور والدتي بما حصلت

عليه من المعارف ولتاخذ في تلقيح افكار اخوتي بما يكون محمود العاقبة لها ولاولادها ان شاء الله تعالى فاني علمت انه ليس انفع من طرح بعض المعارف الاولية في اذهان الصغار فانه يكون كالبذر يلقى في الارض النقية يرجى ان تظل اشجاره وتجنى باطراف الانامل ثماره وما علي ان يطول المكتوب اذا اشتمل على اجل مرغوب ومطلوب

المسامرة الثالثة والعشرون

الجغرافية والتاريخ

(تتمة من الكتاب)

قال يعقوب يابني كان الناس في سالف الزمان يعتقدون في اكثر الامور خلاف ما هي عليه فمن ذلك امر الارض فان الناس كانوا يعتقدون انها قطعة بسيطة كالصحيفة ذات شكل مربع او مثلث وسمك بالغ ما بلغ الى ان جاء الحكيم المشهور ارسطو فقال ان الارض كسائر الكواكب على شكل الكرة

وبرهن على ذلك وما زال الناس مشتغلين بهذه المسالة حتى صار العلم بكون الارض كرة من قبيل العلوم الضرورية الأَّ ان فيها نوع انخساف من جهة قطبيها فهي كالبطيخة . وقطباها عبارة عن النقطتين اللتين احداها بمنزلة عنق البطيخة والاخرى بمنزلة ما يقابله منها والدائرة العظمى التي تقسمها نصفين فيما بين القطبين تسمى خط الاستواء لكونها تحاذي الشمس في السنة مرتين فيستوي عند ذلك الليل والنهار وموقعها من الفراغ على بعد (١٥٢٫٨٨٨٫٢٥٠٫٠٠٠) ميريامتر من الشمس وتتم دورتها حول الشمس في ثلث مائة وخمسة وستين يوماً وخمس ساعات وثماني واربعين دقيقة وتسع عشرة ثانيـة وتتم دورتها على نفسها في اربع وعشرين ساعة وقدر نصف الخط الواصل بين قطبيها ٦٫٣٥٥٫٩٤٣ متراً وقدر نصف قطر دائرة الاستواء ٦٫٣٧٦٫٨٥١ متراً ومساحتهـا ٥٫٠٩٨٫٨٥٧ ميريامتر مربع (والميريا متر) كلمة افرنكية معنـاها عشرة الاف متر وهي عبارة عن ٢٨٣٣ قصبة وحجمها ٦٫٠٨٢٫٦٣٤٫٠٠٠ ميريامتر مكعب وتنقسم من المركز الى السطح بالنظر للمواد التي هي مركبة منها الى قسمين الاول القسم المركزي وهو ما قارب المركز نصف قطره (٥٦٠) ميريامتر والثاني القسم السطحي وهو القشرة الباقيـة وهي ما فوق القسم الاول الى ظاهر سطح الارض ويختلف سمكها من اثنين من الميريا متر الى اربعة منه فاما القسم الاول فان الناس

وان لم يصلوا الى رؤية شيء منه البتة الا انهم بحثوا فيه وتكلموا عليه وتطلبوا معرفته بالفكر والنظر العقلي والاستدلال ببعض الامور الارضية كالمياه الحارة النابعة من جوفها وجبال النار والزلازل وغيرها فقالوا ان ذلك القسم جميعه معدني شديد الحرارة ملتهب مائع واما الجزء السطحي فهو ايضاً وان لم يتعمق الانسان فيه زيادة عن ستمائة متر الا انه علم تركيبه من المواد المقذوفة من افواه جبال النار المعروفة بالبراكين ومن تركيب طبقات الجبال الشامخة فالجبل الذي ارتفاعه ثمانية آلاف متر مثلا يدل على تركيب عمق من الارض بقدر ذلك الارتفاع وعلى اي حال فهذا الجزء السطحي من الكرة عبارة عن طبقات متوالية مختلفة التركيب والسمك والاتجاه وقد قسم علماء فن الجيولوجية (اي علم طبقات الارض) هذا الجزء من الكرة الى طبقات سموا كل طبقة منها باسم مخصوص وتفصيل ذلك في كتب الفن المذكور وانما الذي يلزمنا الان هو ان نعلم ان سطح الكرة ليس مستوياً وان به محال مرتفعة عن الماء خارجة عنه وتسمى اليابسة والقارة ومحلات منخفضة مغمورة بالماء وتسمى البحار وهذا الارتفاع والانخفاض اما لاسباب قوية اثرت في بعض اجزاء الارض فخفضتها واما لقوة فعالة قذفت البعض الاخر فرفعته فحصل ما تراه من الارتفاع والانخفاض وعلى كل فالمرتفع من الارض اعني القارة هو المسكون وينقسم الى سهل وجبل وجزيرة وشبه جزيرة وغير

ذلك والمنخفض منها ينقسم ايضاً الى بحر وخليج وبحيرة وغير ذلك وسعة الارض اليابسة ١٫٣٦٦٫٣٩٩ ميريامتر مربع وسعة البحور ٣٫٨٥٢٫٥٥٨ ميريا متر فجميع الارض اليابسة لا تزيد عن ربع سعة البحور تقريباً ولكل من البحار والارض القارة تفصيلات واقسام لها اسماء واصطلاحات ستعلمها فيما بعد ان شاء الله تعالى ولا حاجة لنا الى الكلام عليها الآن وانما نقول ان الارض القارة كما ارتفعت عن البحر قد ارتفعت بعض جهاتها عن باقيها فما ارتفع منها ان كان كثير الارتفاع فهو الجبل وان كان قليل الارتفاع فهي الهضبة ومتى اتصلت الجبال ببعضها وامتدت الى مسافات بعيدة قيل لها سلسلة جبال وقد يخرج من الجبل في بعض الجهات فروع تمتد الى انحاء مختلفة ويخرج من هذه الفروع فروع اخرى حتى تشغل الولاية بتمامها ولا بد لكل جبلين من وهدة بينهما اما صغيرة ويقال لها الشعب او كبيرة ويقال لها الوادي وفي هذه الوهاد تكون مجاري الانهر والخلجان فتسير منها حتى تنصب في البحار فمنابع الانهر من الجبال ومصبها في البحار

ويوجد على سطح الكرة نباتات وحيوانات منها ما يختص بجهة ومنها ما يوجد بسائر الجهات وهي تكثر كلما قربت من جهة خط الاستواء وتقل كلما قربت من القطبين والذي علم الى الان من اصناف النباتات قريب من ثمانين الفا وهي تنقسم الى قسمين الاول النباتات اللابزرية وهي نباتات عديمة الفلقة البزرية

كالشيبة والحشيش البحري والقسم الثاني النباتات البزرية وهي التي لها فلقة بزرية كالحنطة والنخل . والذي علم من اصناف الحيوان قريب من مائة الف وقد قسمت الى اربعة اقسام القسم الاول الحيوانات الفقارية وهي التي لها هيكل عظمي كالانسان . القسم الثاني الحيوانات الرخوة وهي عديمة العظام من داخل ولها غطاء من الظاهر كالمحار . القسم الثالث الحيوانات المفصلية وهي مركبة من كثيرة متحركة على بعضها كالعنكبوت . الرابع الحيوانات الشعاعية وهي حيوانات تكون فيها قوة التركيب ضعيفة وهي تقرب من النباتات ولذلك تحسب واسطة بين الحيوان والنبات ولا يعلم لها من الحواس الا اللمس وذلك كالاسفنج فانه اذا وضعت عليه اليد وهو في البحر انقبض وانكمش وتحت هذه الاقسام انواع كثيرة واشرف جميع هذه الانواع نوع الانسان لانه يعيش في جميع بقاع الارض فجميعها مسكنه ومحل سلطانه وهو وان كان نوعاً واحدا لكنه ينقسم ثلاثة اقسام الاول الابيض ويعرف بالقوقاسى نسبة الى قوقاس ويقال قوه قاف (كوه قاف) اي جبل قاف وهو جبل في بلاد الجركس بين بحر الخزر والبحر الاسود وهذا القسم يمتاز ببياض اللون وحمرة الخد ورقة الانف وشممه وضيق الفم واستقامة الاسنان القواطع وحسن استدارة القحف ولين الشعر وطوله واسترساله وكثافة اللحية وعلو الجبهة ومنه سكان بلاد اوروبا ونسلهم في امريكا وسكان غربي آسيا اي العرب والفرس

واليهود والسريان والتتار وهو في شمالي اوربا وأواسط آسيا يندرج في القسم الثاني حتى لا يكاد ينتسب عنه وقد انتسب الى قوقاس لان اهل تلك النواحي اي الجراكسة والكرج اجمل اهل الدنيا واكمل هذا الاسم في صفاته الخصوصيه القسم الثاني الاصفر ويعرف بالمغولي نسبة الى المغول وهو قسم من التتار ويقال انهم في الاصل من جبال التائي في شمال الصين وهذا القسم يمتاز بكونه اصفر البشرة مربع القحف مخروطي الجبهة عريض الوجه مفرطحه ناتيء الخدين اسود العينين ضيقهما مع ميلهما الى الجهـــة الوحشية صغير الانف افطسه خفيف اللحية اسود الشعر قليله مع الخشونة وهو اقصر قامة من القسم الاول ومنه اهل الصين والهند ويابان وشمالي اسيا وشمالي بلاد المسكوب في اوربا وشمالي امريكا غير ان سكان اميريكا المعروفين بالاسكيمو لهم تعلق بالقسم الثالث حتى زعم البعض انهم نتاج اختلاط القسم الثاني والثالث٠

القسم الثالث الاسود وهو يمتـــاز بسواد البشرة وله ثلاثة فروع اولها الملقي نسبة الى شبه جزيرة ملقا ويمتاز باللون الزيتوني وسواد الشعر وغزارته مع جعودة قليلة وضيق الراس وكبر الانف ومنه سكان ملقا وجزائر المحيط وجزيرة ماداغسقر ويقال انه فرع من القسم الثاني المتقدم ثانيها الاميركاني ويمتاز باللون النحاسي وسواد الشعر واسترساله وخفة اللحية وانخفاض الجبهة وارتفاع عظم الخد وطول القامة ومنه سكان اميريكا الاصليون الذين

وجدوا في القارّتين الغربيتين قبل وصول اهل اوربا الى هناك ثالثها الزنجي ويمتـاز بشدة سواد البشرة وجعودة الشعر وسواده وقصره وانخفاض الجبهة ومقدم القحف وفطس الانف وعرض الخد واتساع الفم وضخامة الشفتين وبروز الفم على هيئة الخرطوم وبياض الاسنان ومنه اكثر سكان اواسط افريقية وجنوبها وهذه الاقسام في بعض الجهات قد امتزج بعضها ببعض وتفرع من ذلك فروع عديدة يتعسر الحاقها باصولها والانسان وان شارك غيره من الحيوانات في كثير من الصفات الاَّ انهُ اختص بامور كثيرة منها حسن الصورة واعتدال القامة والتسلط على ما في الارض والتمتع بهِ والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط بهِ نطاق العبارة واعظم مميز لهُ العلوم والادراكات بما ركب فيه من القوى المدركة التي بها يميز الحق من الباطل والحسن من القبيح فيعلم بافكارهِ جميع احتياجاته ويعبر عنهـــا بالنطق فالتكلم حينئذٍ هو الآلة التي تسوق الجمعية البشرية الى الكمال وتمام الالفة وحسن الخصال

المسامرة الرابعة والعشرون

السادايح

(نبع من الكتاب)

وجميع افراد النوع البشري مائلون بالفطرة الى تعظيم الخالق سبحانه لكن منهم من استدل فاهتدى ووصل ومنهم من اخطأ طريق الصواب فضل وأضل. وينقسم الخلق بحسب الاعتقاد الى قسمين وكل قسم تحته طوائف ومذاهب كثيرة

القسم الاول من يقول ان الاله المعبود لا يكون الا واحداً في ذاته وفي صفاته وان العبادة لا تكون الا له

القسم الثاني من يقول بتعدد الآلهة. وتحت هذا القسم فرق متعددة

الاولى جعلت لبعض الكواكب تأثيراً فعبدوها وكان ذلك كثيراً في الامم السالفة ولا يوجد الآن الا عند القليل

الثانية جعلت صفات الالوهية لبعض مخلوقات اخر فعبدوها وهم المجوسيون من الامم السابقين وقد انقطع اثرهم بالكلية

الثالثة تقول ان الاله يظهر في صور متعددة سماوية وبشرية

وحيوانية وهم البراهمة باسيا ومن هذه الفرقة من يعتقد ان الاله عبارة عن متسع في الجو يجتمع فيه ارواح المخلوقات وفيه مجتمع اهل السعادة الذين تجردوا عن المادة وانهم ينزلون الى الارض في صورة بشرية لتطهير النوع البشري من الاوزار ويسمون هذه الارواح (بوضا) وعدد هذه الفرقة اكثر من مائتي مليون

الرابعة وان لم يتحقق لنا اعتقادها الاّ انها تميل الى تعظيم المادة وهي بعض سكان اسيا من جهة المشرق . فاما القسم الاول فينقسم الى ثلاث طوائف الاولى العبرانية وهذه لا تصدق الا بما جاء بهِ موسى وانبياء بني اسرائيل وينتظرون المسيح وعدد هذه الطائفة قريب من اربعة ملايين وهي متفرقة في جميع بقاع الارض . الطائفة الثانية العيسوية يقولون بما انزل على موسى والانبياء وبما انزل على عيسى بن مريم وقد انقسمت هذه الطائفة الى فرقتين الاولى التابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعددهم قريب من مائتي مليون وهم باوروبا من جهة الشمال والثانية التابعون للكنيسة الرومية وهم باوروبا من جهة الشرق وعددهم ستون مليونًا تقريبًا ولا فرق بين الكنيستين الا في بعض عقائد دينية وكون البابا نائبًا عن المسيح او لا وينقسم اتباع الكنيسة الرومانية المذكورة الى قسمين كاثوليكية ومعتقدهم ان البابا هو رئيس الديانة فيعتقدون صدقه ويقتدون بهِ في فعله وعددهم مائة واربعون مليونًا والثاني البروتسطانت وهولاء لا يقولون الاّ بما في الانجيل وعددهم ستون

مليوناً ويجيزون زواج القسيس ولا يقولون بالصور والتماثيل بخلاف فرقة الكنيسة الاولى وكذلك فرقة البروتستانية تنقسم الى مذهبين احدهما اللوتيري نسبة الى واضعه لوتير والثاني الكلفيني نسبة الى واضعه كلفين واهل المذهب الاول يقولون بحضور عيسى حقيقة في العشاء الرباني وهو عندهم عبارة عن خبز ونبيذ يقدمها الكاهن للناس بعد التقديس ويقولون انهما يستحيلان الى جسد المسيح ودمه بل الى لاهوته ونفسه الناطقة واهل هذ المذهب يقبلون تفاوت درجات القسس بخلاف اهل المذهب الثاني

الطائفة الثالثة المحمدية قال وانت اعلم بعقيدتهم واصول دينهم ومذاهبهم وفرقهم فلا ينبغي لي ان اشرحهم لمثلك وانما احب ان اسمع منك ان نشطت شرح بعض امورهم فقلت نعم الملة المحمدية هي دين الاسلام وهي مبنية على التصديق بما جاء بهِ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد افترقت وانقسمت كغيرها حسبما اخبر بهِ صلى الله عليه وسلم الى ثلاث وسبعين فرقة منها الفرقة الناجية وهم الذين على ما كان عليه رسول الله واصحابه وقد كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة وطريقة واحدة الا من كان يبطن النفاق ويظهر الوفاق ثم نشأ الخلاف فيما بينهم اولاً في امور اجتهادية لا توجب ايماناً ولا كفراً وكان غرضهم منها اقامة مراسم الدين وادامة مناهج الشرع

القوم ثم ذلك كاختلافهم في موضع دفنه بمكة او المدينة او القدس حتى حققوا ما روي عنه من ان الانبياء يدفنون حيث يموتون فدفنوه بالمدينة وكاختلافهم في الامامة وما جرى في وقعة الجمل وصفين ثم اختلافهم ايضاً في بعض الاحكام الفروعية وكان الخلاف يتدرج ويترقى شيئاً فشيئاً الى آخر ايام الصحابة حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري وخالفوا في القدر واسناد جميع الاشياء الى تقدير الله ولم يزل الخلاف يتشعب والآراء تتفرق حتى تفرق اهل الاسلام وارباب المقالات الى ثلاث وسبعين فرقة كما ذكر وهي ترجع الى فرق كبيرة

الفرقة الاولى المعتزلة اصحاب واصل بن عطاء كان في مجلس الحسن البصري فدخل رجل فقال للحسن يا امام الدين ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة (يعني جماعة من الخوارج) وجماعة اخرى يرجئون الكبائر (يعني المرجئة) ويقولون لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم لنا ان نعتقد في ذلك فتفكر الحسن وقبل ان يجيب قال واصل انا لا اقول ان صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر ثم قام الى اسطوانة من اسطوانات المسجد واخذ يقرر على جماعة من اصحاب الحسن ما اجاب به من ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت له المنزلة بين المنزلتين فقال الحسن البصري قد اعتزل عنا واصل فلذلك سمي هو واصحابه معتزلة وهم يقولون بان القدم اخص

وصف الله لا يشاركه فيه ذات ولا صفة وينفون الصفات الزائدة على الذات ويقولون بان كلامه مخلوق محدث وبانه غير مرئي في الاخرة الى غير ذلك

الفرقة الثانية الشيعة اي الذين شايعوا عليا رضي الله عنه وكرم وجهه وقالوا انه الامام بعد رسول الله بالنص اما جليا واما خفيا واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عنه وعن اولاده وان خرجت فاما بظلم يكون من غيرهم او بتقية منه ومن اولاده

الفرقة الثالثة الخوارج وهم الذين خرجوا على علي عند التحكيم وكفروه فسموا المحكمة وهم اثنا عشر الف رجل قالوا من نصب من قريش وغيرهم وعدل فهو امام ولم يوجبوا نصب الامام وكفروا عثمان واكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة

الفرقة الرابعة المرجئة لقبوا به لانهم يرجئون العمل عن النية اي يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد او لانهم يقولون لا ينفع مع الايمان طاعة كما لا يضر مع الكفر معصية

الفرقة الخامسة النجارية اصحاب محمد بن الحسن النجار وهم يوافقون اهل السنة في خلق الافعال وان العبد يكتسب فعله ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات الوجودية ونفي الرؤية وحدوث الكلام

الفرقة السادسة الجبرية قالوا ان المعبود مجبور في افعاله

ومنهم الجهمية اصحاب جهم بن صفوان القائلون بان العبد لا قدرة لهُ اصلاً ولا مؤثرة ولا كاسبة وهو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها

الفرقة السابعة المشبهة شبهوا الله سبحانه بالمخلوقات

الفرقة الثامنة الناجية وهم اهل السنة والجماعة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين على ما انا عليه واصحابي ومذهبهم خال عن بدع الفرق المتقدمة وقد اجمعوا على حدوث العالم ووجود الباري سبحانه وانه لا خالق سواه وانه قديم متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الجلال لا شبيه لهُ ولا ضد ولا ند ولا يحل في شيء ولا يقوم بذاته حادث ليس في حيز ولا جهة ولا يصح عليه الحركة والانتقال ولا الجهل ولا شي من صفات النقص مرئي في الآخرة ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن غني لا يحتاج الى شيء ولا يجب عليه شيء ان اثاب فبفضله وان عاقب فبعدله لا غرض لفعله ولا حاكم سواه لا يوصف فيما يفعل او يحكم بجور ولا ظلم وهو غير متبعض ولا لهُ حدّ ولا نهاية ولهُ الزيادة والنقصان في مخلوقاته والمعاد الجسماني حق وكذا المجازاة والمحاسبة والصراط والميزان وخلق الجنة والنار وخلود اهل الجنة فيها والكفار في النار ويجوز العفو عن المذنبين والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام واهل بيعة الرضوان واهل بدر من اهل

الجنة والامام يجب نصبه على المكلفين والامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ولا نكفر • احداً من اهل القبلة الاّ بما فيه نفي للصانع القادر العليم او شرك او انكار للنبوة او لما علم مجيئه عليه السلام ضرورة او لمجمع عليه كاستحلال المحرمات واما ما عداه فالقائل به مبتدع غير كافر ولهذه الملة الاسلامية اعمال بدنية واعمال قلبية وواجبات ومحرمات ومندوبات ومكروهات فالبدنية ترجع الى خمس خصال شهادة لا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله والقلبية مرجعها الاخلاص لله عزّ وجل في القول والعمل والواجب مثل ما ذكر من الاعمال ومثل اداء الامانات والانفاق على ما تلزم نفقته من الاهل والعيال والمحرم مثل الغش والغيبة والنميمة والحقد والحسد والاضرار بأحد في نفسه او عرضه او ماله الا بحقه والمندوب مثل اصطناع المعروف وانظار المعسر والمكروه مثل اخفاء عيب في سلعة لا يلزم به ردها ونحو ذلك فهذه نبذة اجمالية من احوال هذه الامة والتفصيل يحتاج الى التطويل واريد ان نعود الى تتميم ما بدأته من الكلام فما المعروف الا بالتمام

المسامرة الخامسة والعشرون

الانسان وهيأة الاجتماع

(تتمة من الكتاب)

فقال نعم قد قدمنا القول على اقسام نوع الانسان وديانته بما انساق به القول الى هذا المقام والان نقول ان هذا النوع الانساني من طبعه حب الالفة والميل الى الجمعية ولذلك يقولون الانسان مدني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع الذي هو معنى المدنية في اصطلاحهم وبيان ذلك ان الله تعالى خلق الانسان وركبه على صورة لا بقاء له عليها الاّ بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وتحصيله بما اودع فيه من فكره وقدرته الاّ ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته وغير وافية بما يلزم لمادة حياته فلو فرضنا اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل الاّ بعلاج كثير من الطحن والعجن والخبز والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال يحتاج الى مواعين كثيرة وآلات لا تتم الاّ بكثير من اهل الصناعات كالحداد والنجار والفاخوري وغير ذلك ولو فرضنا انه يأكله حباً من غير علاج فهو ايضاً يحتاج في تحصيله

حبا الى اعمال كثيرة كالزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل وكل واحد من هذه يحتاج الى آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ومن المستحيل ان توفي قدرة الواحد بذلك كله او بعضه فحينئذٍ لا بد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسه فيحصل بالتعاون قدر الكفاية لاضعافهم وكذلك يحتاج كل واحد في المدافعة عن نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لان الله سبحانه وتعالى لما ركب الطباع في الحيوانات وقسم القوى بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القوة اكمل من حظ الانسان فقوة الفرس مثلاً اعظم من قوة الانسان بكثير وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف قوته ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوانات جعل لكل واحد منها عضواً لدفع ما يصل اليه من تعدي غيره وجعل للانسان عوضاً عن ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع خادمة للفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في جميع الحيوانات للدفاع كالرماح النائبة عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة لكن قوة الواحد من البشر لا تقاوم قوة الواحد من الحيوانات العجم لاسيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده ولا تفي قدرته ايضاً باتخاذ الآلات المعدة للمدافعة وحده مستقلاً بنفسه لكثرتها وكثرة الصنائع اللازمة لاعمالها واستعمالها فلا بد له في ذلك كله من التعاون بابناء جنسه

لتم حكمة الله تعالى في بقائه وحفظ نوعه والاّ لم يتيسر له غذاؤه ولا المدافعة عن نفسه فيكون عرضة للخطر وفريسة للحيوانات وطعمة للطيور ويبطل نوع البشر فاذا وجد التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فظهر بما ذكر ان الاجتماع ضروري للنوع الانساني ثم اذا حصل هذا الاجتماع فلا بد لهم من وازع ورادع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم اذ ليس السلاح الذي جعل دافعاً للحيوانات العجم كافياً لدفع عدوانهم على بعضهم لانه موجود عند جميعهم فحينئذٍ لا بد لهم من شيء اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يتصور ان يكون من غير جنسهم لقصور مدارك جميع الحيوانات عن مداركهم فيتعين ان يكون واحداً منهم وان يكون له عليهم الغلبة والسلطان حتى يتمكن بذلك من كف القوي منهم عن الضعيف ويستخلص للعاجز من القادر وينتصف للمظلوم من الظالم فينكف شر بعضهم عن بعض بعدله ويعم الأمن جميعهم تحت ظله وهذا هو معنى الملك فلا بد لهم منه ولا بد ايضاً ان يكون متميزا عنهم بخواص حتى يقع التسليم له والقبول منه لينفذ حكمه فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف ولكن لا يتم عز هذا الملك الا بالشريعة والقيام لله بالطاعة والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الاّ بالرجال ولا قوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل الى المال الاّ بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل هو

الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعله له قيما وهو الملك ولذا يقال لا ملك الاّ بالجند ولا جند الاّ بالمال ولا مال الاّ بالخراج ولا خراج الاّ بالعمارة ولا عمارة الاّ بالعدل ولا عدل الاّ باصلاح العمال ولا تصلح العمال الاّ باستقامة الوزراء وراس الكل تفقد الملك احوال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبها حتى يملكها ولا تملكه وقد وضع في هذا المعنى دائرة جامعة لثماني كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتد اعجازها على صدورها فلا يتعين طرفها وهي هذه وقد رسمتها لك في ظهر الجواب لتحفظي صورتها مع الورق الذي عندكِ في الدولاب

ثم قال لي بعد ذلك ان الحكومة تنقسم الى صورتين. الاولى الحكومة الجمهورية وهي ان يكون الحكم مفوضاً لمجلس مركب من اعضاء تنتخبهم الرعية لادارة امور المملكة تحت قوانين يلزمهم العمل بها وعدم الخروج عنها . الثانية السلطنة والحكومة الملكية وهو أن يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو الملك وهذه ايضاً تنقسم الى قسمين مقيدة ومطلقة لانه اما ان يكون الملك مقيداً بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها الى هوى نفسه وهي الحكومة الملكية المقيدة واما ان يكون غير مقيد بشي من ذلك يحكم برايه ويتصرف بهوى نفسه فيكون رايه شريعة المملكة وحكمه قانونها وهي الحكومة الملكية المطلقة وتنقسم الادارة في الحكومة الى ادارة دينية وادارة سياسية وادارة عسكرية وادارة مالية

ولا بد لكل دولة من ايرادٍ كافٍ لها وهو عبارة عن مجموع مقادير مقررة على الرعية للقيام بما يلزمها من النفقات وتكون هذه المقادير مضروبة على الاشخاص او على املاكهم واراضيهم او على ما يحرون فيه ويستعملونه وينضم اليه ما يحدث من بعض العوائد كالمكوس والجمارك ومتى كان ايراد الدولة غير كافٍ لما يلزمها من المصارف الضرورية او ما تريد استحداثه من الامور النافعة لعامة الرعية كاجراء الانهر وعمل القناطر استدانت ما يلزم لذلك وقد كان الناس في مبادى احوالهم قبل اختلاط الامم واتصالهم متفرقين في بقاع الارض تسكن كل امة في جزيرة او قطعة من القارة محدودة بالجبال او بالانهر لا تختلط بغيرها الاَّ عند بعض حروب تكون بينها وبين من يليها من الناس وكانت مساكن الناس في اول الامر متبددة متفرقة ثم تضامت وتقاربت فحدث من ذلك الكفور والقرى والبلدان والمدن فكانوا غالبًا على شواطي الانهر والبحار وتارة في المواضع المرتفعة من الاودية وفي النادر فوق الجبال وبازدياد التمدن اتصلت المدن ببعضها بواسطة المسالك والطرق وكان غالب الطرق اولا في المواضع المنخفضة من الاودية للتوصل الى الجهات المشهورة ثم عملت طرق مقاطعة لها ولم تعمل الطرق الموازية للجبال الاَّ اخيرا ولما اتسع التمدن وكثرت علائق الاجتماع ووجدت تلك الطرق غير كافية حدثت الخلجان الصناعية القاطعة للانهر والجبال وغير القاطعة لها وصار

توزيع فروق ارتفاعاتها بواسطة احواض تعمل في محلات تقاطعها واتصالها بغيرها (وهي المعروفة بالهويسات جمع هويس محرف حوض) ولانعدام بعض الحدود الطبيعية للارض بسبب اختراع الطرق القاطعة لها تمّ اعمال الحصون والقلاع لتمييز الحدود والفصل بين المتجاورين من الامم وبعضهم ومع هذا فكانت الحدود الطبيعية احسن فائدة لان بها يتم شروط الامن والملكية واحسن الحدود ما كان بالصحاري ثم ما كان بالابحر ثم ما كان بالجبال ثم الانهر ولكن لما كانت تلك الحدود في الغالب لا تفي بتحصيل الامن بين الامم المختلفة اضطر الناس الى تكميلها بموانع صناعية فنشاء من ذلك اتخاذ الحصون لحصول هذا الغرض وهي قسمان ثابتة وغير ثابتة فالاولى هي الحصون البرية وتبنى بمصاريف كثيرة ومؤنة كبيرة وتكون على روس الاودية وسواحل البحار والانهار ومحلات تقاطع الطرق وسائر المواضع التي ليس فيها موانع طبيعية او فيها موانع غير كافية للحفظ وهذه الموانع سوآء كانت صناعية او طبيعية لا تفي بالغرض المطلوب الاّ اذا استكملت شروطها من الاتصال ببعضها بحيث يكون بينها ارتباط يمنع العدو من الاستيلا عليها من غير ان يكون عرضة للاسر والتلف والخطر والثانية اعني غير الثابتة هي السفن البحرية ثم كل من هذه الموانع الثابتة وغيرها لا تقوم بنفسها في صد العدو والمحاماة عن الدولة والامة بل لا بد من طائفة من رجال الامة يقومون عليها ويدافعون عن

الملكة وإهلها وهذه الطائفة التي تقوم بامر المدافعة اما ان تكون عساكر مخصوصة معدة لهذا الامر مستعدة للسير والسفر الى كل جهة تؤمر بالسير اليها فيكون لها علوفات ومرتبات بقدر الكفاية واما ان تكون رديفًا يطلب عند الاحتياج وليس لهم علوفة ولا مرتب وبعض هذه العساكر يكون في البر وبعضهم في السفن في البحر وتلتجيء البرية في تقلبات احوالها الى القلاع والحصون الارضية وتلتجيء البحرية الى المينات المحصنة قال ولذلك تفاصيل شرحها يطول ولك الان في هذا القدر مقنع وكفاية وسنحصل ان شاء الله بالتدريج للغاية

المسامرة السادسة والعشرون

ختام كتاب برهان الدين

فهذا آخر ما القاه عليّ من هذه المسائل كتبته لينتفع به اخوتي كما ذكرت وتعلمي درجة اجتهادي واشتغالي بما حررت وانا ارجوان لا تحرميني من وعظك وانحاف برقيق لفظك ولا تكتمي عني شيئاً من امركم فاني متشوق لجميع خبركم ونحن بفضل الله في صحة تامة مجتهدين في تعلم اللغة الانكليزية والدي مع صاحبه وانا مع صاحبي وفي بعض الاوقات احضر مع والدي بعض دروسه وانقل ما اجده في كراريسه واما الخواجا فانه رجل ذو لطف وادب لم يتغير عن اسلوبه لحظة ولم اسمع منه ما يخل بشرفنا لفظة ملتزماً معنا حسن السيرة ورأفته بنا لا توصف ومعاملته معنا قل في غيره ان تعرف لا يترك فرصة فيها سرورنا الاّ جلبها ولا يعلم تغير طبعنا من خصلة الا اجتنبها أحلّ والدي في رأيه وغرضه محل سنته وفرضه فشكر الله مسعاه ووفقه لطريق الصواب وهداه وان سألتِ عن اقامتنا في السفينة فاقول ان القمرة التي كانت اعدت فيها لنا عبارة عن خزنة صغيرة تزيد في

الارتفاع عن قامة الانسان بقدر مدّ الذراع وطولها طوله سواء بسواء وبها كوة لدخول النور والهواء ولكنها في غالب الاوقات مقفولة خوفاً من دخول الماء وبكل قمرة فرش للجلوس والنوم على حسب عادة القوم وفيها اباريق وآنية معدة لما عساه يحصل من القيء وما يعتري الانسان في بعض الاوقات من التهوع ولكن القيء لم يحصل لنا الا قليلاً لان البحر مدة السفر كاد ان يكون ساكناً فلم يحصل لمركبنا اضطراب الا في اوقات قليلة فكنت ارقد وادفع ضرره بهذه الحيلة وانما حصل لوالدي مرتين وذلك في ابتداء الامر وكانتا خفيفتين وعند دخولنا السفينة وصعودنا على ظهر البحر شممنا له روائح مائية رديئة اعدمت منا شهوة الاكل فتركناه بالكلية الى ان قال لنا الانكليزي على وجه النصيحة بسبب ما يعلمه بالتجربة لكثرة اسفاره لا بد لراكب السفينة من الاكل ولو بتكلف لانه اذا كانت معدته خالية اصابه الدوار بسبب اضطراب السفينة وفترت قوته فالاولى للانسان ان يتحايل على ان يتناول من الطعام ما يقوي بدنه ليشتد ويقوى على حركة البحر واضطراب السفينة فامتثلنا وفعلنا واسترحنا بذلك الى ان وصلنا وانما كانت القمرة تضايقنا وترتيب فراش النوم لا يوافقنا لاننا كنا ننام على شيء شبيه بالدرج على قدر الانسان لا يكاد يزيد عنه وكان محلي فوق محل والدي وكنت اردت اولاً ان امتنع من ذلك فأبى والدي حفظه الله

الآن انام كما رتبوا وقال لي الضرورات تبيح المحظورات واما الطعام فكان في الكثرة فوق المرام لاننا كنا ندعى للأكل في اليوم والليلة خمس مرّات وكانت الاطعمة حسنة نظيفة الأ انها قليلة الملح والنضج فكنا نعافها لعدم اعتيادنا على مثلها في بلادنا وكان ائتدامنا في اغلب الاحيان بالجبن والزيتون والسمك المعروف بالسردين واشباه ذلك وهكذا خبزهم لا يشبه خبزنا فلا ادري أهو من الحنطة ام غيرها ولو وجدنا سواه ما اكلناه وكثيراً ما سمعت والدي يقول لو علمت حال الخبز من قبل لتزودنا خبزاً غيره من الاسكندرية ولما رأى الانكليزي عدم رغبتنا صار يعيده لنا في النار ويشويه ويأتي لنا كل يوم بدجاجة فيذبحها والدي وانا اتولى طبخها بيدي واكثر لنا من المربيات فكنا نأتدم بها في بعض الاوقات وبالجملة فقد انقضت ايام السفر ولم يحصل لنا في السفينة ادنى ضرر والآن وصلنا ثغر مرسيليا وبعد ثلاثة ايام نقوم ونركب عربة السكة الحديد ونتوجه الى مدينة باريس وهي قاعدة بلاد الفرنسيس فاذا وصلنا الى هناك بعون الله ومشيئته سطرت لكِ خطاباً غير هذا اضمنه ما اراه وما اسمعه بعد الآن ورجائي أن يدوم لي حسن رضاك في جميع الحال والاحوال فهو لي نهاية الامال وراس مال القبول والاقبال وارجو ايضاً ان تبلغي اذكى التحيات الى اخوالي وعماتي واقبل يد خالي العزيز ادام الله بقاءه ويسر لي لقاءك

ولقاءه وارجو منه ان يقرا لي الفاتحة بمقام الامامين لعل الله تعالى يردنا سالمين بلغنا الله واياكم الامال وجمعنا في احسن الاحوال امين والحمد لله رب العالمين

ثم انه ختم الجواب وظرفه واذا بالخواجا دخل عليه وسأله عن الوالد فقال له ان عنده بعض فتور وقد اضطجع في فراشه ليستريح فان شيئت ذهبت اليه لانبهه فمنعه عن ذلك وقال اني منتظره في حجرتي فاذا قام فاخبره فاجابه برهان الدين لذلك ثم اراه ذلك الكتاب في ظرفه وقال له هذا كتاب سطرته الى والدتي بمصر باذن والدي واريد ارساله اليها فارجوك ان تتفضل بتوصيله الى البوسطة فقال حبا وكرامة واخذه وتكفل بتوصيله وانصرف

انتهى الجزء الاول

فهرست الجزء الاول

من كتاب

علم الدين

تقريظ الكتاب

ما تنفع الأيدي يبيد وإنما ... يبقى لنا ما تنفع الأقلام

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين وبعد فاني تصفحت هذا الكتاب بل العجب العجاب الذي نسبت للشيخ علم الدين روايته واسندت للسائح الانكليزي حكايته فوجدته نزهة للناظر وسلوة للخاطر فيه للقلوب ارتياح وللخواطر نشاط وانشراح تعرب مبانيه عن لطف معانيه وتنفح روائح العاطره الرائقة عن بدائع مضامينه الفائقة ويشهد لمؤلفه بعلو المقدار ولمصنفه بحسن الاختيار جمع فيه من غرائب الفنون ونقائض الجد والمجون الضب والنون وقرن الى اسنى المقاصد اشرف المطالب ففتح بابه المرغوب لكل طالب اظهر فيه ما خفي من اسرار الصنائع وكشف عن وجه مخدرات العلوم البرائع واضاف الى ذلك من حكم الحكماء ما اغفله القدماء ووشحه بلطائف النوادر وما تفردت به الأواخر واظهرته في هذا الدور الاخير فهو مخترع لجميع المخترعات جامع وبديع في بيان معاني المتبدعات نافع يتنقل من فصل الى ضده ويحكم الوصل بما ابداه من عنده فكأن مؤلفه المفضال يقول فيه بلسان الحال .

تصديت في انعاب فكري لجمعه ... فجاء كتاباً في البها لا يشارَكُ
وكنت بحمد الله فيه موفقاً ... فإسمي عليٌّ في الانام مبارَكْ

فلله در من انشاه وبطراز الحسن والاحسان وشاه فانه اجاد وسلك طريق السداد وبلغ به ما فوق المراد بلغه الله تعالى امانيه وكبت حاسده وشانيه ولا زال متواصل اللقا دائم الارتقا بهجة للياليه وايامه يزين الوجود بآثار اقلامه مغتنما للثناء الجميل والاجر الجزيل بحرمة سيد الأنام الذي يحسن بذكره البدء والختام

وكتبه الفقير المعترف بالتقصير تراب اقدام العلماء عبد الجليل بن عبد السلام زاده المدني في اواسط شعبان المعظم سنة اربع وتسعين ومائتين والف بالمحروسة حامدًا مصليًا